892.709
Ha554a

أدب الخلفاء الأمويين

تأليف

عبد الرزاق حميدة

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الثمن

٣٠ ص

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يطيب لكثير من الناس أن يقرءوا أدب العصر الأموى ، وأن يستمتعوا بما فيه من آثار قيمة فى الشعر والخطابة ، وما ظهر فى آخره من رسائل هى أقرب إلى الأدب الرفيع منها إلى أى شىء آخر ، وقد يطيب لهم أن يروا هذا الأدب مشغولا بالسياسة والحزبية من غير أن يخرجه ذلك ـ فى أكثر حالاته ـ عن أن يكون أدبا خالصا ، ويجدون لذة فى قراءة الشعر السياسى الذى يؤيد بنى أمية ويستظل بظلهم ، أو يشيد بمبادىء الخوارج وصفاتهم ، أو يرثى للشيعة وما حل بهم . ويعجبهم فى هذا الشعر الأموى أن تجمع القصيدة أكثر من فن ، وتنتقل بالقارىء من غرض إلى غرض ، فتجمع بين الغزل والهجاء ، أو تخلط بين الوصف والمدح ، أو تشوب السياسة بالعصبية مثلا ، ويجدون فى هذا التنويع خفة وجدة يبعدان السأم .

وقد يقرأ القارىء نقائض جرير والفرزدق والأخطل فيجد أنواعا من الهجاء ، فيها إقذاع وإسفاف ، ولكنه يسيغ أكثرها ، ويجد فيها جمالا ورقة ، أو جزالة وقوة ، فينسى إسفاف هؤلاء الشعراء ، ويرى نفسه مرغما على الإعجاب بهم والتسليم بمقدرتهم .

والأمر كذلك فى شعر الغزل العذرى والغزل العابث ، وفى شعر المدح الصادق وشعر الخمر والعصبيات .

وقد روى لنا هذا الأدب فى كتب الأخبار والنقد والتراجم ، كالأغانى والكامل، والأمالى، وطبقات الشعراء ، ووفيات الأعيان، والعقد . وأصحاب هذه الكتب من الأدباء الذين يتخيرون ، ويُسقطون ما لا يرضيهم، ويعرضون ما يروونه فى ثوب جميل من الأدب، تزينه المقدمات أو التعليقات ، وتجمله أساليبهم . إذ يروون لهذه المقطوعة من الشعر قصة جميلة ، ولتلك الأبيات خبراً لطيفا ، ولهذا الخبر الأدبى حديثا طريفا .

ويزيد القارىء إعجابا واستمتاعا أن الكتب التى روت أخبار الأدب الأموى كثيرة الانتقال من موضوع إلى موضوع ، والاستطراد من خبر إلى خبر ، وبهذه الطريقة اللطيفة فى التأليف يندفع القارىء فى تتبع هذا الأدب وأخباره فى تلك الكتب، من غير أن يسرى إلى نفسه شىء من الملل، وينصرف عن أن يعنى بتحقيق هذه الأخبار أو بنقد ذلك الأدب .

* * *

على أن من الناس من لايستسلم لهذا الأدب ولا للكتب التى روت أخباره ، ويحاول أن يقف مفكرا عند اختلاف الروايات أو النقد، فى كتاب واحد أو فى كتب متعددة . فيعز عليه أن يكون قارئا فقط ، ويأبى إلا أن يكون ناقدا يعيب ما يراه معيبا ، ويطعن فى خبر أو رواية تبدو عليهما آثار الصنعة أو التكلف أو البعد عن المعقول ، ويحاول أن يحقق صحتهما أو أن يتبين فيهما شيئا من صفات الأديب ونفسه ، وأن يطبق قواعد النقد ، ويخرج من هذا بدراسة قد تنتهى إلى آراء تغير فكرة الناس عن هذا الأدب، أو تكشف كثيرا من أسراره، كأن يبحث عن أثر النسب الوضيع فى شعر جرير ، والحسب الرفيع فى شعر الفرزدق ، والرق فى مدح نصيب .

وقد يجد فى اختلاف الروايات باعثا على البحث فى الرواية والرواة فى ذلك العصر ـ وقد كان بعيدا عن أن يكون عصر تدوين لقلة الكتاب وأدوات الكتابة ، وحرص المسلمون على ألا يكتبوا مع القرآن شيئا

خوف اللبس . وقد يحمله هذا البحث على الكلام فى منزلة الرواية وفى رواجها فى ذلك العصر ، لما كان يراه الناس فى الراوى من تحدث بالأدب الحى اللذيذ، ينتقل من موضوع إلى موضوع ، ويجيب إذا سئل ، ويروى ما يطرب ويعجب ، ويحدث بالأخبار الطريفة ؛ وقد يشترك فى السياسة برواية أخبار أو أشعار تنصر فريقا ، أو تهدم مذهبا ، أو تدفع اتهاما . وقد يحمله على التفكير فى الرواة وأخلاقهم وتكسبهم بالرواية ، وفى مبلغ الدقة فى الأدب والأخبار التى تروى عن طريق الحفظ والمشافهة . فيرى أن هذه الروايات ليست دقيقة دقة الأدب المسطور ، مهما حرص أصحابها على الأمانة فى النقل فقد تخونهم حوافظهم ، ويلتبس عليهم بعض الأخبار والأشعار فينسبوها إلى غير أصحابها ، أو ينسوا بعضها ، أو يزيدوا فيها . وقد يقرأ أنه كانت لمعاوية قريبة وأن بعض الشعراء تغزل فيها . لكنه يرى أن درجة القرابة فيها خلاف ، فهى أخته فى بعض الروايات ، وهى بنته فى رواية أخرى ، والشاعر الذى تغزل فيها هو أبو دَهبل الجمحى فى رواية ، وهو عبد الرحمن ابن حسان فى رواية أخرى ؛ ويرى شعر الغزل فيها مختلفا كذلك . وقد تزيد حيرته واضطرابه إذا كان حال الرواة مستورا ، وليس فى الشعر ما يرجح رواية على رواية .

على أن هذا البحث الذى يحمل القارىء نفسه عليه ، يحلو لبعض الناس أن يقوم به ؛ ليكشف عن الحق ، أو ليحمل غيره على مساعدته فى الكشف عنه . ويروح مسرورا مطمئنا إذا وفق إلى شىء من الصواب .

* * *

لم يقتصر رواة الأدب فى العصر الأموى على نصوصه من شعر وخطابة، بل أضافوا إلى ذلك كثيرا من الأخبار التى تزيده وضوحا وقوة، فرووا المناسبات التى قيل فيها ، والظروف التى أحاطت بإنشاده ، والخلفاء والولاة والأعيان الذين أحاطوه بعنايتهم لمنفعته أو لذاته، أو سخطوا على أصحابه

لأنه لا يرضى أذواقهم ، أولا يوافق سياستهم . وقل أن يذكر فى هذا العصر شعر أو خطابة أو خبر من غير أن يكون له صلة بهؤلاء الخلفاء والولاة والأعيان . ولكن تاريخ الأدب أخر هؤلاء عن مرتبتهم . وتحدث عن أثرهم فى الأدب عرضا مع أنهم أصحاب التوجيه العظيم للأدب والأدباء . فحاولت فى هذا الكتاب أن أتحدث عن الخلفاء الأمويين وأشهر ولاتهم من ناحيتين : ناحية إنتاجهم الأدبى وأكثره خطابة ، وناحية تأثيرهم فى الأدب وبخاصة فى الشعر الأموى . وإذا كانت الخطابة فى عصرهم قد بلغت الذروة فقد كانوا السابقين إلى ذرا المنابر . وإذا كان الشعر قد نحا مناحى خاصة فى عصرهم أشهرها الغزل والسياسة والهجاء فقد كانوا الآخذين بزمام الشعراء إلى هذه النواحى . ومن أجل هذا كان التاريخ السياسى فى عصرهم لازما للكشف عن العوامل التى وجهت الأدب وأثرت فى الأدباء .

وقد رأيت أن أكثر خلفاء بنى أمية كانوا من مدرسة معاوية التى بينا صفاتها فى ص ١٠٥ وما بعدها ، ولم يخالفها قليلا إلا خلفاء اللهو وهم يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد ابنه . وكان عمر بن عبد العزيز أمة وحده . فجاء ترتيبهم فى الكتاب مخالفا قليلا لترتيبهم فى الخلافة [1] ، وكان أثر بعضهم فى الأدب ضعيفا كمعاوية الثانى ، ويزيد الثالث ، فلم نذكر شيئا عنهم ، أما مروان بن محمد آخر خلفائهم فقد استكتب عبد الحميد بن يحيى فغلبت شهرته على شهرة خليفته . وألحقت بالخلفاء أكثر ولاتهم أدبا ،

---

(١) ترتيب الخلفاء الأمويين :

١ — معاوية بن أبى سفيان (٤١ — ٦٠)
٢ — يزيد بن معاوية (٦٠ — ٦٣)
٣ — معاوية الثانى (٦٤ — ٦٤)
٤ — مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥)
٥ — عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦)
٦ — الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦)
٧ — سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩)
٨ — عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١)
٩ — يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥)
١٠ — هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥)
١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٦)
١٢ — يزيد بن الوليد الاول (١٢٦ — ١٢٦)
١٣ — مروان بن محمد بن عبد الملك (١٢٧ — ١٣٢)

وتوجيها للأدباء ، وقد كنت أود أن تصل إلينا آثار القوم كاملة عسى أن نجد فى أدبهم السياسى مذاهبهم الأصيلة ، وأفكارهم المتأثرة بنظام الحكم عند الفرس والرومان وغيرهما من الأمم التى خضعت لحكمهم . وقد رأينا من ذلك فى الأدب الملكى آراء تشبه أن تكون نظرية الحق المقدس[1] التى تقول إن الحكام يستمدون سلطانهم من الله لا من الشعوب ، وبهذا لا يسألون أمامهم عما يفعلون .

وفى هذا العصر أخبار طريفة ، وفيه آثار أدبية خالدة كخطبة زياد البتراء ، وخطبة الحجاج عندما ولى العراق ، ووصية عبد الحميد بن يحيى إلى الأدباء وغيرها . وفيه الوفادات والمجالس الأدبية والأجوبة والمحاورات ، وكنت أود أن تتسع صفحات الكتاب لكل هذه الآثار ، ولكن كل موضوع من هذه يحتاج إلى كتاب ، فأشرت إلى مصادرها فى ذيل الصفحات . وعسى أن يكون فيه ما أردت من الفائدة .

المؤلف

القاهرة ١٢ رجب سنة ١٣٦٨ هـ
١٠ مايو سنة ١٩٤٩ م

عبد الرزاق حميده

---

(١) بحر الاسلام ص ١٣٢

أما المراجع فقد ذكر أكثرها فى الهامش . ومن الكتب التى انتفعت بها

(١) أصول النقد الأدبى للأستاذ الشايب
(٢) حديث الأربعاء ١ — ٢ للدكتور طه حسين
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة .
(٤) البيان والتبين للجاحظ
(٥) الحيوان للجاحظ من ١ — ٤
(٦) تاريخ أدب العرب للرافعى ١ — ٣
(٧) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ١
(٨) فى الأدب الإسلامى للأستاذ خلف الله

ومن المراجع الأنجليزية

1) Medieval Islam - Von Grunebaum
2) Literary History of the Arabs - Nichlson.
3) » » » Persia - Browne
4) History of the Theatre - Freedley

ووقعت بعض أخطاء مطبعية وهذا صواب أهمها :

١٦ — ١٧ — لله	٧٢ — ١ — وكثيرا
١٧ — ٤ — منهما	٧٥ — ١٦ — لا إله إلا الله
٢٢ — ٢٢ — إلا زمنا	٩٧ — ٣ — الواضعين
٤٠ — ١٨ — ألا تبق	١٥٢ — ١٨ — تغلب
٤٩ — ١٤ — لعفُو غفور	١٩٤ — ١٨ — الردع
٥٣ — ٨ — اثنا عشر	٢٠٠ — ٩ — حسَدتُ
٦٥ — ٨ — بن عبادة	٢٣٦ — ١٣ — وكان عارفا

طرق دراسة الأدب

دراسة النصوص لذاتها

من الطبيعى فى دراسة الأدب أن نتصل به ؛ وأن نعرفه قراءة أو سماعا وحفظاً ، وأن نقف بعد هذه المعرفة وقفات ، تطول أو تقصر ، بحسب النص الأدبى الذى نقرؤه ، ومدى رغبتنا فى البحث عن صفاته ، ومبلغ الصلة بينه وبين قائله ، والظروف التى نشأ فى كنفها ، والعوامل التى أوحت به ، ومايتضمنه من المعانى التى أوحى بها إلى الأديب ، فعبر عنها فى ألفاظ وعبارات تشير إلى عواطف هذا القائل وشعوره ، وتكشف عن إحساسه وذاته وخياله وفكره ، وتنقل كل ذلك إلى القارىء فتثير فى نفسه عواطف ومشاعر ، وتستهوى عقله وشعوره وقلبه ، بل قد تغلبه على عقله فينساه ، وتصرفه عن تفكيره فيميل معها حيثما مالت ، ويخضع لسحر بيانها ، وجمال خيالها ، ودقة تصويرها ، ويتذوق فيها الأدب الخالص ، والفن الجميل .

وإن أسلوب الأديب — أو ألفاظه وعباراته التى يؤلفها تأليفاً خاصا — هو أول مايطالعنا من أدبه ، ولكننا لانستطيع أن نجرد هذا الأسلوب عما يتضمنه من صور النفس والخيال والفكر والعاطفة والشعور التى تكمن وراءه ، وتؤلف معه أدباً خاصاً ، فيه ذاتية الأديب التى انفرد بها ، أو الصفات العامة التى اشترك فيها مع غيره من الأدباء ، ممن ساروا على نهجه ، وتأثروا بمثل ماتأثر به .

فاذا قرأنا نصا أدبيا ، ووقفنا عنده وقفة خاصة به ، وجب أن نعنى به عناية مستقلة ، نبحث فيها عن الموضوع الذى يدور حوله الأدب ، ومدى تأثيره فى نفس قائله ، والوحى الذى هبط على الاديب من هذا الموضوع فأثار نفسه وحملها على القول . ووجب أن نعنى كذلك بالأسلوب الذى تخيره الأديب للتعبير عن شعوره الخاص به . ثم ننتقل إلى الصلة بين

الموضوع والأسلوب ، ونجاح الأديب فى التأليف بينهما ، كأن يختار الأسلوب السهل الهادىء لأوصاف الطبيعة الجميلة كالورود الباسمة، والأنهار الجارية ، والريح الرخاء ، والشمس المشرقة . أو للتعبير عن العواطف الرزينة الهادئة ، كالشكوى والرجاء والاستعطاف . أو أن يختار الأسلوب القوى الفخم لأوصاف الطبيعة الجبارة ، كالرياح العاتية والبحار الهائجة. والشمس اللافحة . أو للعواطف الثائرة كالحب المبرح ، واليأس القاتل،والثورة النفسية الجامحه ، والتهديد والوعيد ، والحروب ومواقعها وشبه ذلك . فاذا فعل هذا فقد نجح نجاحا كبيراً .

ومن الواضح أن هذه الوقفات عند الأسلوب لبحث خصائصه،وتعرف الصلة بينه وبين موضوعه ونفس قائله ، ليست وقفات متعاقبه فى كل حين كما تعاقبت فى هذه السطور ، فانها قد تكون فى آن واحد ، وقد تتعاقب إذا أردت الوقوف عند كل منهما اختياراً، وانتقلت إلى مايليه إذا فرغت منه ، وإنما نفعل ذلك عند الدراسه المقصودة ، لاعند القراءة الممتعه . فأجول بذهنى وذوقى فى الأسلوب .لبيان ماينطوى عليه من الخصائص، ومايتضمنه من المعانى ، وما يثيره فى نفسى من الانفعال والاحساس ، ولبيان مقدرته على تصوير نفس صاحبه وعواطفه ، وما أثار خياله ونبه عبقريته وتدور فى نفسى أشياء كثيرة تتصل بهذا الأدب كشخصية الأديب فى أدبه ، وآثار البيئة فيه ، وفعل الثقافة والزمن فى معانيه وغير ذلك مما يمر بذهنى عند قراءة نص أدبى أعنى به لدرسه ونقده .

وقد أقف وقفات خاصة ، لأبحث عن مدى الانسجام بين أجزاء هذا النص الأدبى ، ومقدار خضوعه للقواعد العامة التى يتصل بها . فاذا كان شعراً مثلا عرجت على مافيه من خصائص الشعر وأصوله. وإذا كان مسرحية نظرت إلى مدى التناسق بين فصولها . أو نواحى القوة والضعف فى رسم شخصياتها وحوادثها ، ونجاحها فى الوصول بالقارىء أو السامع إلى الغاية

التى ألفت من أجلها ، وكيف راعى صاحبها أصول المسرحيات ، أوخرج على هذه الأصول ، فكان فى ذلك مجدداً أو منحرفا عن الصواب . وإذا كان مقالا رجعت إلى أصول المقالة ، أو رواية رجعت إلى قواعدها ، وهكذا .

إذا قرأ الناقد الأثر الأدبى لهذه الغاية ، ووقف عنده وقفة الناقد استطاع أن يبين قيمته الأدبية ، معتمداً على ذوقه الخاص ، ومستعيناً بقواعد النقد العامة . فاذا قرأ أو سمع قول مجنون ليلى .

يا صاحبىَّ ألمّا بى بمنزلة قد مر دهر عليها أيّما حين
إنى أرى رجعات الحب تقتلنى وكان فى بدئها ما كان يكفينى
لاخير فى الحب ليست فيه قارعة كأن صاحبها فى نزع موتون (١)
ألقى من اليأس تارات فتقتلنى وللرجاء بشاشات فتحيينى (٢)

ووقف عند البيت الأخير ظهرت له صورة واضحة قوية من فعل اليأس والرجاء وهما يتناوبان نفس الشاعر ، فيقتله اليأس كلما عاوده ، ويحييه الرجاء إذا أشرق فى خواطره ، وليس فى حاجة إلى أن يبين قوة الاضطراب الواضح فى معاودة اليأس والرجاء للشاعر ، وحيرته بينهما مما يوضحه لفظ « ألقى » و « تارات » و « بشاشات » . فاذا رجع قليلا إلى نفس القائل لمح من خلال الأسلوب اضطرابها وانفعالها ، وشدة ماتلقى من اليأس كلما عاودها فقتلها ، ولمح سرورها وبشاشتها كلما عاودها الرجاء فأحياها . وبتبين مبلغ هذه الشدة من اليأس حتى يبلغ درجة القتل ، ومبلغ السرور والبشاشة من الرجاء الذى يحيى هذه النفس . ويخيل إليه أنها تلقى من هذا اليأس والرجاء عنتا وإرهاقا . ولو دام يأسها لاستراحت ، ويحسبها فى حالة الرجاء والبشاشة تخشى معاودة اليأس ، فتختلط البشاشة بالألم ، وتنم عما تخفى وراءها من الخوف والفزع .

ولو أنه رجع إلى قائله وعرف أنه كان عاشقاً قتله الحب ، وسار به

---

(١) الموتون : المضروب على الوتين ، وهو عرق معلق بنياط القلب

(٢) التارات : جمع تارة ، ومعناها المعاودة والتردد حينا بعد حين .

الحديث في الآفاق ، تبين أنه كان يلقى هذا اليأس والرجاء في الحب ، وأنه كان يطمع في اجتماع شمله بمن يهوى فتحول الظروف دون الاجتماع أو اللقاء ، فيكتفي من هذا بالرجاء ، وقد لا يتحقق هذا الرجاء .

فدراسة هذا النص تظهر مقدار ما فيه من قوة التعبير ، ومقدار ما فيه من الدلالة على المعاني التي يمكن أن يفهمها القارىء منه ، ثم تكشف عن نفس القائل ، ومدى حيرتها بين اليأس والرجاء ، وما يفعله كل منهما بها من قتل أو إحياء . ثم تزداد وضوحا إذا عرف الموضوع كما تقدم .

وهذه هي أولى مراحل الدراسة الأدبية ، نلجأ اليها قبل كل شيء لبيان القيمة الذاتية للادب ، وتعريف الناس بأوجه القوة والضعف فيه ، من ناحية الأسلوب وجماله ، والفكرة ووضوحها ، والعاطفة وقوتها ، والنفس وتصويرها ، وامتلاء النص الأدبي بكل هذه المعاني ، ونقلها إلى القراء مصبوغة بصبغة القائل .

وهذه مرحلة في النقد والتحليل أبعد من مرحلة القارىء الذي يقرأ ليستمتع ، وليشارك الاديب عواطفه وشعوره أو شيئا شبيها بهما من غير أن يتكلف ما وراء ذلك من التحليل والنقد .

النص المستقل

ولو قرأ لأبي تمام :

إن الربيع أثرُ الزمان لو كان ذا رُوح وذا جُثمانِ (١)
مُصوّراً في صورة الانسان لكان بساما من الفتيان
بُوركتَ من وقت ومن أوان فالأرض نشوى من ثرًى نشوان
تختالُ في مُفوّفِ الألوان في زَهَر كالحدَق الرّواني

(١) الاثر بضمتين : ماء الوجه ورونقه ، وقد قرأ (أثر) بفتحتين : ومعناه : أنه الذي ذكره وخبره أو (آثر) افعل تفضيل : بمد وفتح ، يروى ، ريالمد ، أنه المصطفى من الازمان عند الناس ، أو أنه مصطفى بالجمال والبهجة .

لم يجد فى نفسه حاجة إلى معرفة الظرف الذى قيل فيه ، فذلك واضح من الشعر ، يصف فيه الربيع . ووجد نقده مقصورا على هذه القطعة الأدبية الرقيقة ، التى جاءت فى صورة الرجز ، وليس فيها تكلف رؤبة ولا أبيه العجاج ، ولا إغرابهما مثلا ، وهى تصف الربيع على قصرها وصفا جميلا يغنى كل شطر منه عن قصائد . وفيها من المعانى العامة ما يوحى إلى القارىء بالتفصيل . فالشطر الأول من هذا الوصف « إن الربيع أثر الزمان » موجز ، ولكن كلمة « أثر » تشير إلى أنه خير الأوقات ، والقارىء يدرك من ذلك أنه أحسن الأيام ، ثم يدرك أنه كذلك لجمال الدنيا فيه ، وتفتح الأزهار ، واعتدال الليل والنهار ، وحلاوة النسيم ، وعذوبة المياه ، وغناء الأطيار ، وابتسام الدنيا بعد عبوس الشتاء ، ورقة الشمس قبل حلول الصيف . وذلك كله مستفاد من لفظ واحد هو « أثر » وإذا نظرت إلى قوله « لكان بساما من الفتيان » لأدركت ما فيها من معنى الشباب والنضارة والمرح ، والخلو من العبوس والتجهم كما يكون الشباب عادة . ولكنه جاء بكلمة « بسام » لكيلا يترك فرصة لمعترض يقول إن الشباب قد يعبس ويتجهم . وتعبيره عن الأرض بأنها « نشوى » يحمل كل معانى السرور والمرح كذلك . وقد جعلها — وهى الأرض — ذات حس وإدراك وعواطف ، فجعلها نشوى من هذا الثرى المنتشى بما فوقه من مظاهر الجمال الذى خلعه الربيع على الدنيا ، وزاد فى هذا الخيال فجعلها تختال فى هذه الالوان الجميلة التى تكسوها ، كما تختال الغادة فى ثياب الزينة الزاهية ، أو أن هذا الثرى نشوان بما شرب من ماء أطربه ، فدبت فيه الحياة وانتقلت منه إلى النبات فانتشى كذلك ، وبدت عليه مظاهر الابتهاج .

وتشبيه الزهر بالاحداق الناظرة تشبيه دقيق ولطيف ، فان النظرات تعبر عن معنى الجمال ، وتبعث فى قلوب الناظرين محبة وسحرا ، وكأن هذا الزهر يخاطب من يراه بلغة العيون القوية الجذابة .

حاجة النص إلى علم بظرفه وإشاراته

على أن من الادب ما يحتاج فى فهمه إلى معرفة قائلة وظروفه وبيئته ، ليتم فهمه على حقيقته ، وليستطيع الناقد أن يقدره قدره . فاذا قرأقول الفرزدق :

لعمرى لئن قَيَّدْتُ نفسى لطالما ... سعيتُ وأوْضعتُ (١) المطية للجهلِ
ثلاثين عاماً ماأرى من عَماية (٢) ... إذا بَرَقت ، إلا أشد لها رحلى
أتتنى أحاديث البَعيث ودونه ... زَرُود فشامات العقيق من الرمل (٣)
فقلت : أظن ابن الخبيثـــة أننى ... شُغلتُ عن الرامى الكنانة بالنبل ؟!
فإن يَكُ قيدى كان نذراً نذرته ... فما بى عن أحساب قومى من شُغل

فهذه الأبيات وحدها ، على قوتها ، تخفى كثيراً من الظروف التى يتوقف عليها فهم المعنى . وليس الشاعر مطالبا أن يشرح هذه الظروف ، ولا أن يفسر هذه الملابسات ، فذلك من عمل الناقد . ولهذا القيد الذى قيد الفرزدق نفسه به قصة . فقد روى أنه كان لايحفظ القرآن ، ولا يعرف القراءة والكتابة ، وأنه كان حج وعاهد الله بين الباب والمقام ألا يهجو أحدا أبدا ، وأن يقيد نفسه ولا يفك قيده حتى يحفظ القرآن ، وأسرف جرير فى هجاء نساء بنى مجاشع ، فأتين الفرزدق وقلن له : قبح الله قيدك ! فقد هتك جرير عورات نسائك ، فقال هذه القصيدة . وفيها الأشارة إلى قصة القيد . أما إشارته إلى ضلاله وجهالته ، فذلك أنه كان معروفا بالفسق وكان جرير يهجوه بذلك (ويقال إنه تاب فى آخر عمره) وله أبيات يذكر فيها أنه كان مع امرأتين فى المدينة فى بيتهما ثم أنزلناه من ثمانين قامة ، وأنهما خافتا عندما استوت رجلاه فى الأرض فأمرهما أن يرفعا الحبال التى نزل بها من عندهما . وقال :

هما دلتانى من ثمانين قامة ... كما انقض باز أقتم الريش كاسره

---

(١) أوضع المطية للجهل : أسرعها وحثها إليه . (٢) العماية : الجهالة
(٣) زرود : (ماء لبنى مجاشع فى طريق الحاج من الكوفة) . شامات : آثار تخالف لون الارض .

أما البعيث فهو رجل من مجاشع قبيلة الفرزدق .وكان يهاجى جريرا معه. وابن الخبيثة هو جرير . وأما قول الفرزدق : شغلت عن الرامى الكنانة بالنبل : فيذكر أبو عبيدة تفسيره فى النقائض(١). فيقول إن رجلا من فزارة وآخر من بنى أسد التقيا ، وكان مع الفزارى كنانة جديدة ، ومع الأسدى كنانة رثة ، فطمع الأسدى فى كنانة صاحبه ، فاحتال لذلك بأن راهنه على الرمى ، ونصب الأسدى كنانته ،فجعل الفزارى يرميها ويصيبها حتى نفدت أسهمه ، ونصب الفزارى كنانته الجديدة فلم يهتم الأسدى بها ، وسدد سهمه نحو الفزارى فقتله وأخذ الكنانة . هذا مايذكره أبو عبيدة ، ومراد الفرزدق أنه لم يغفل عن جرير كما غفل الفزارى عن الأسدى الذى كان يرمى الكنانة بالنبل إذ وجه الأسدى إليه سهما فقتله.

أليس من الواضح إذن أن فهم الأدب يتوقف أحيانا على فهم الظروف والأشارات والمواطن التى ترد فيه؟ لهذا كانت حاجة الأديب الناقد إلى الثقافة المتنوعة أشد من حاجة غيره ، أما ضرورة اتساع ثقافته الخاصة المتعلقة بالأدب ، والمتصلة به من قريب ، كأساليب اللغه وقواعدها ، وبلاغتها وتاريخها ، والاحاطة بأدبها وفقهها ، فذلك أمر مسلم . وأما ثقافته العامة المتصلة ببيئة الأدب ، وتاريخ الأمة ، وطبيعة الاجتماع البشرى ، والنظم الاقتصادية والسياسية ، ونشأة العلوم وتطورها ، وتأثير الأمم بعضها فى بعض ، وأزمان هذا التأثير ونواحيه ، فبكفى فيها القدر الذى يعين على فهم الأدب ، وأسباب تحوله واتجاهه . كما أنه لايستغنى عن فهم النفس الانسانية والالمام بالدراسات المتعلقة بها ، لأن أدب الأديب صورة من نفسه ، وقد عنى علماء النفس ، بغرائز الانسان ونوازعه وطباعه، ومايؤثر فيها فى أحوالها المختلفة ، ووصلوا إلى نتائج قيمة تفيد ناقد الأديب فى نقده . وإذا كان من المستحيل أن يحيط إنسان بكل هذه المعارف تفصيلا ، فمن الممكن أن يصل إلى نتائج الأبحاث التى يقوم بها العلماء ، كل فى ناحية تخصصه ، ويستفيد من

(١) ج١ : ص ١٢٨

هذه النتائج فى فهم الأدب ونقده ، والوصول إلى أحكام قيمة[١] .

التحقيق الأدبى :

يقصد بالتحقيق الأدبى البحث وراء الآثار الأدبية ، والتأكد من صحتها ، ونسبتها إلى قائليها ، وإلى العصور التى قيلت فيها ، ومن أن هؤلاء الادباء الذين تنسب إليهم قد عاشوا حقا فى العصور التى ينتسبون إليها ، أو أنهم من عمل الخيال والاختراع .

ولهذا التحقيق قيمته ؛ فهو يعيننا على الوصول إلى النص الصحيح ، فيكون تقديرنا له تقديرا صحيحاً . فاذا روى نص بروايتين مختلفتين إحداهما أدق من الأخرى وكانت هذه أضعف من الناحية الأدبية وصلنا عن طريقها إلى الحكم بضعف النص وعيب قائله ، وإن كان الثانى الثانى أجمل ، لأن الغرض هو الوصول إلى الحق . كى نقدر الأدباء قدرهم ، كل بحسب إجادته .

وقد تروى القطعة الأدبية منسوبة إلى قائلين ، وليس من المعقول أن تكون من عملهما معاً ، فقد روى أن الأبيات الآتية من قول عمران بن حطان من شعراء الخوارج فى العصر الأموى[٢] ونسبت كذلك إلى السيد الحميرى من العصر العباسى الأول وهى :

أيها المادحُ العبادَ ليُعطىَ إن الله ما بأيدى العباد
فاسأل اللهَ ماطلبتَ إليهم وارجُ نفع المنزّل العواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه وتسمّى البخيلَ باسم الجواد

ويقال إن عمران بن حطان مر بالفرزدق وهو ينشد ، وكان يتهمه أنه يقول للاستجداء فيكذب ، فقال فيه هذه الأبيات . وقد نسبت هذه

---

(١) (فى الادب الجاهلى) للدكتور طه حسين بك بحث اوسع فى حاجة الناقد الى هذه الثقافة الخاصة والعامة .

(٢) أغانى حـ ٧ ص ٥ طبعة الساسى

الأبيات أيضاً للسيد الحميرى ، وقد وقف على بشار وهو ينشد الشعر . أما أنا فأرجح نسبتها إلى عمران بن حطان الخارجى ؛ لأنها بخلائق الخوارج وصفاتهم أشبه . لكن التحقيق يقتضى زيادة على هذا ، معرفة الرواة الذين نسبوها إلى كل منها ، والبحث فى أمانة كل منهم وحفظه ، وفى مذهبه . أهو من الخوارج أم من الشيعة أم محايد ؛ فإن ذلك يرجح النسبة بعض الشىء ويرجحها كذلك شبه النص بقائله ، وأخلاقه ، وأسلوبه ، وخياله ، ومعانيه ، وغير ذلك من خصائصه .

شبه النص بعصره وبيئته

وقد ينسب أدب إلى بيئات أو عصور ، فان كان شبيهاً بها سلمنا بنسبته وإن خالفها دعا ذلك إلى الشك فى نسبته ونفيناه عن العصر أو البيئة التى ينسب إليها ، وإن بقيت له قيمته الأدبية ، لكنه لا يعتد به فى الحديث عن أدب ذلك العصر أو تلك البيئة ، فلو أن قصيدة فيها وصف الاهرام نسبت إلى عصر بنى أمية لوقفنا منها موقف الشك ، إذ لم نسمع بذكر للأهرام فى الشعر إلى من عهد المتنبى ، فاذا نسبت هذه القصيدة إلى جرير زاد ذلك من الطعن فيها ؛ فلم يثبت أن جريراً قدم مصر . وليست الأهرام مما عرفه جرير فى الشام أو العراق أو الحجاز .

اعتماد التحقيق على الناحية الشكلية :

وقد ننصرف فى التحقيق الأدبى عن ذلك كله ، إلى الناحية الشكلية ، فلو أن بيتا من المستطيل[1] الذى نشأ فى العصر العباسى أو موشحا من الموشحات[2] التى ظهرت فى الأندلس ، أو فى العراق — على يد ابن المعتز —

---

(١) بحر مولد عباسى : وهو مقلوب الطويل ، وزنه مفاعيلن فعولن : أربع مرات ومثاله : لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أجور أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

(٢) نوع من الشعر له طريقة خاصة فى وزنه وقوافيه ، ويوضحه قول ابن المعتز الذى يقال إنه هو أول من اخترعه:

كما يقال — ونسب هذا البيت أو الموشح إلى جرير أو جميل أو غيرهما من شعراء العصر الأموى، طعن ذلك فى صحة نسبته، إلا إذا قامت الأدلة الأخرى القوية على عكس ذلك، وأثبت بحث آخر أن هذا البحر أو هذا الموشح قد عرف من عهد بنى أمية.

وقد نبحث فى الألفاظ والتراكيب - ونحن نعرف تاريخ ظهور عدد منها فى اللغة العربية - فاذا كانت هذه فى شعر منسوب إلى عصر لم تعرف فيه هذه الألفاظ أو التراكيب، حملنا ذلك على أن نقف منها موقف الشك ونظنها من عمل الواضعين، كاستعمال الألفاظ الاسلامية بمعانيها المستحدثة فى الاسلام، فى شعر ينسب إلى الجاهلية مثلا، أو ظهور شعر فيه تراكيب من هذا النوع الذى عرف فى العصر العباسى يحمل طابع الحضارة وأثر العلوم اليونانية، ثم نسبته إلى صدر الاسلام مثلا.

ووسائل تحقيق هذه النصوص قد تحتاج إلى عمل أكثر مما قدمت الاشارة إليه، وبخاصة فى العصور التى كان الادب ينقل فيها رواية وحفظا.

أما عصور التدوين التى سجل فيها الادب فى كتب أو دواوين مخطوطة أو مطبوعة، فقد يختلف أمر تحقيقها عما سبق كأن نقارن النسخ المطبوعه والمخطوطه ونحكم الذوق والعقل إذا اختلفت. ولا شك فى أن الدقه فى

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت فى غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع
ما لعينى عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبرى
عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى

الادب المسطور أوفر منها فى الأدب الذى تناقلته الحوافظ أزماناً فنسيت بعضه أو حرفت فيه ، أو قدمت وأخرت ، أو زادت ، أو نسبت إلى غير قائله .

وقد عنى كثير من الرواة والمؤلفين فى الأدب العربى بتحقيق هذه النصوص . كما عنوا بتحقيق الأخبار ، فخدموا العلم بذلك خدمة عظيمة ، ومهدوا الطريق لمن بعدهم من المحققين كى يتموا مابدأه هؤلاء ، ومازال هذا التحقيق قائماً إلى الآن .

وقد يتجاوز التحقيق الأدب ، إلى الأخبار أو الحكايات التى تتعلق بهذا الأدب لتفسيره أو بيان ظروفه ، وهذه جديرة أيضاً بالتأكد من صحتها إذ أنها تلقى ضوءا على الأدب قد يحتاج إليه الأديب الناقد بعد ذلك . وقد يكون من الخير أن نتحقق من وجود الأدباء أيضاً ، ونستوثق من أنهم كانوا أشخاصاً عاشوا فى أزمان خاصة ، وبيئات خاصة ، أو أنهم لم يعيشوا أصلا ، ولم يكن لهم وجود . ومن هذه الشخصيات الأدبية بعض العشاق فى العصر الأموى كشخصية مجنون ليلى ، فقد دار حولها أخبار كثيرة فى الأغانى ، بعضها يثبت وجوده وبعضها ينكره ، وبعضها يسميه البحترى بن الجعد ، وبعضها يسميه الأقرع بن معاذ ، وبعضها يسميه مهدى بن الملوح ، وبعضها يقول إن الشعر المنسوب إليه كله مولد عليه ، أو منسوب إلى آخرين ، أو بعضه من عمل الوضاع ، أومروى لغيره من الشعراء . وأخباره قد اضطرب فيها الرواة واختلفوا ، كما اضطربوا فى اسمه وفى جنونه واختلفوا ،

يقف المحققون أمام هذا التناقض فيحكمون العقل ، ويستعينون على ذلك باختلاف الروايات ، ويجرحون بعضها ويعدلون البعض الآخر ، ويخلصون من ذلك بنتائج قيمته (١) ، وقد يقارنون أخباره بأخبار غيره ، كقيس بن ذريح ، وكثير عزة ، وجميل بن معمر ، ولكنهم إن

---

(١) أخباره في الاغاني جـ ٢ ص ١ وما بعدها .

استطاعوا أن ينكروا وجود هؤلاء الشعراء العشاق ، فلن يستطيعوا أن ينكروا رقة الشعر الذى نسب اليهم ، ولا جمال القصص الذى يدور حول أكثرهم ، مما كان مادة دسمة للمؤلفين المسرحين والروائيين بعدهم، وبخاصة فى هذا العصر الحديث . ولا يستطيعون أن ينكروا أن الذين اخترعوا هذه الشخصيات العاشقة أو وضعوا هذه الأشعار ، أوتخيلوا هذا القصص، كانوا على علم واسع بالبيئة البدوية فى الحجاز ، وعلى علم واسع بعادات القبائل وأحوالها الاجتماعية ، فحاولوا أن يكون شعرهم وقصصهم وأخبارهم صورة صادقة أو قريبة من الصدق . ولاحرج على مؤرخى الأدب وناقديه إذا اعتبروه مثالا للعصور التى نسب إليها ، مع شىء من التحفظ والاحتياط .

ولم يقتصر اختراع الأشعار والقصص والاخبار ونسبتها إلى هؤلاء العشاق ، ولا إلى العصر الجاهلى أو صدر الاسلام ولا إلى العرب وحدهم ولم تكن غاية هؤلاء المخترعين أن يتكسبوا دائما، ولا أن يرضوا بعض الطوائف ولا أن يخدموا العلم ، وإنما كانت لهم هذه الأغراض وأغراض أخرى . وبعضهم قد اعترف بما وضعه من أخبار وأشعار ، كخلف الاحمر ، الذى قيل إنه نسك فى آخر أيامه ، وأنبأ أهل الكوفة بما صنع فأبوا تصديقه ، وقيل فى حماد إنه أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، وكان غير موثوق به ، ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الاشعار (٢) .

وإذا كان بعض هؤلاء الرواة الوضاعين قد اعترف بما دسه على أولئك الشعراء القدماء ، فقد بقى كثير منه لم يعلن عنه واضعوه ، ولم يكشف عنه التحقيق الادبى بالرغم مما بذله المحققون قديما وحديثا .

الجمع بين النقد والتحقيق

وإنه لمن الصعب على شخص واحد أن يكون محققا للأدب ، يعنى بالنصوص والأخبار التى تتعلق بها ، ويميز الصحيح من الزائف بكل الوسائل

(٢) طبقات ابن سلام ص ٢٤

اللازمة للتحقيق ، وأن يكون مع ذلك أديبا ناقدا ، يبين خصائص النصوص وقيمتها الأدبية ، وصلتها بنفس صاحبها ، ويستقرىء أدب الأديب أو العصر أو المدرسة الأدبية ليتعرف مزاياها ، وغير ذلك مما يجب على الناقد الأدبي أن يقوم به ، فلا أقل من أن يستعين كل منهما بصاحبه وأن يحيط بمناهجه لشدة الاتصال بين عملهما وحاجة كل منهما إلى طرق الدراسة التي يتبعها الآخر وكثيرا ما يمتزج النقد بالتحقيق ، كأن يطعن الناقد في بعض ألفاظ النص لأنها ليست من العصر الذي روى فيه الشعر ، أو يأخذ على النص بعض المعاني التي جاءت بعد زمانه وهكذا .

إذا فرغ الناقد من النص الجزئي ، وجد أمامه طرقا لمواصلة الدراسة متعددة ، يتخير واحدة منها ليتم عمله ، فاما أن يعنى بالآثار الأدبية التي قيلت في موضوع واحد أو التي يشملها فن واحد ، ويدرس الأدب عندئذ على أنه فنون ، فيساير ها منذ نشأتها ، ويعنى بآثار العصور والبيئات في تطورها وتنوعها . وإما أن يعنى بآثار أديب واحد ، فيدرس صفات أدبه ، ويبحث عن مزاياه الفنية ، واتجاهه عبقريته كما يصورها أدبه ، وإما أن يعنى بعصر من العصور الأدبية ، فيدرس كتابه وشعراءه ، وما جد فيه من علوم وفنون ، وما أثر في أدبه ورجاله من مؤثرات ، ولكل من هؤلاء الباحثين وجهة ، ولكل من طرق البحث هذه اسم خاص بها ، ولكل منها مزاياها وعيوبها أيضاً . على أننا نود قبل أن ننتقل إلى بيان هذه الطرق أن نشير إلى اعتمادها جميعاً على المقارنات الادبية اعتمادا كبيراً . وأول هذه الطرق التي أشرنا إليها هي .

١ - دراسة الفنون الادبية :

قد نعنى بدراسة فن من فنون الادب في نثره وشعره ، أو في واحد منهما ، كأن ندرس الخطابة العربية في أزمنتها المختلفة ، من عهد الجاهلية

ونسايرها فى صدر الاسلام والعهد الاموى ، ونرى ازدهارها فيه وفى العصر العباسى الاول ، ونشهد ضعفها فى أواخر القرن الثالث الهجرى ونومها حتى تفيق قليلا من سباتها فى عهد الحروب الصليبية ، وتعود إلى رقدتها مرة أخرى ، حتى تستيقظ فى العصر الحديث نشيطة قوية ، تغذيها الثورات الحديثة فى عهد «عرابى» فى مصر مثلا ، ونجد من عوامل البعث الحديث فى هذا العصر ما يصل بها إلى درجة عظيمة من القوة والتطور ، وتنوع الموضوعات بتنوع الاغراض التى تستدعيها ، فنرى من هذه الدراسة أنها كانت فى عصر الجاهلية ضرورة من ضرورات الحياة فى أمة بدوية تمتعت بالحرية ، فأعربت عن آرائها بصراحة وقوة ، من غير أن تخشى بطش حاكم مستبد ، ولم تستطع أن تستغنى عنها بصحف أو منشورات ، تنقل آراءها إلى من تريد .

فلما جاء الاسلام كانت الحاجة اليها أقوى وأشد ، لعدم كفاية الشعر أو غنائه فى القيام بأغراض الدعوة الكريمة ، التى تنوعت وزادت زيادة عظيمة ، ولعدم شيوع الكتابة شيوعا يقلل من شأن الخطابة ، ثم نراها قد أصبحت فرضاً فى بعض العبادات والشعائر كالجمعة والعيدين والحج . ونراها قد خضعت فى مظاهرها وفى صفاتها للدين الكريم ، كما خضعت كذلك فى أسلوبها ومنطقها له أيضا .

ثم استمرت فى قوتها أيام بنى أمية وبنى العباس إلى أواخر القرن الثالث لم يغن عنها الشعر ولم تحملها الكتابة لاسباب تذكر بالتفصيل فى تاريخها فى ذلك الزمن .

فلما ضعفت الالسنة ، وقلت مقدرة القائمين بها بحكم مناصبهم ، واستعجم اللسان ، وشاعت الكتابة ، وأغنت المنشورات والرسائل والكتب ، تأخرت الخطابة ومنيت بشىء كثير من الضعف قضى عليها ، اللهم إلا فى زمنا قصيرا فى أيام الصليبيين ، وإن ظلت فى كل ذلك رسما من رسوم الدين ، يقوم بعبئها خطباء المساجد تقليدا وتكلفا .

ولما نهضت البلاد العربية فى العصور الحديثة نهضاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ، تهيأت الدواعى للخطابة ، ومرنت الالسنة عليها ، واستعانت بها فى الدعوة للاصلاح الاجتماعى ، والرقى السياسى والدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات ، فى دور القضاء والمجالس النيابية والنوادى الثقافية والسياسية ، وبلغت فى عصرنا هذا منزلة ساميه .

إذا عيننا بالخطابة على هذا النحو أدركنا صورة صادقة لتطورها فى الادب العربى ، وكانت دراستنا لها دراسة متصلة ، تمتاز بعرض الفن الواحد كله جملة وتفصيلا ، مع بيان أحوالها فى مختلف عصورها ، وما كان لهذه العصور وظروفها من أثر فى قوتها أو ضعفها . مع مانضيفه إليها من دراسة متعلقة بالأسباب العامة ، التى تجعل للخطابة قيمة أدبية مستقلة ، كأن نبين امتيازها على الشعر بتحررها من قيوده ، وملاءمتها لظروف لا ينفع فيها الشعر ، ولا تغنى الكتابة ، واتساعها لأغراض ومواقف ليست من طبيعتهما ، ثم اعتمادها فى نجاحها على صوت قائلها وهيئته ، وإدراكه لنفسيات الجماهير الذين يخاطبهم بما يصلح لهم ، ويحملهم على أن يروا رأيه وأن يطيعوا قوله وحاجته إلى حضور البديهة ، ووفرة الأساليب ، وقوة الاستشهاد وهكذا . .

وقد نتبع مثل هذه الطريقة فى كتابة الرسائل أو فى بعض فنون الشعر كالمدح أو الغزل أو شعر الخمر ، أوفى تطور المسرحيات أو القصة من القديم إلى الآن .

غير أن هذه الطريقة تفصل الفن الأدبى عن غيره من الفنون التى نشأت معه فى عصره ، والتى تأثرت بالمؤثرات العامة فى الأدب حينئذ ، ويضطر مؤرخو الأدب ، على هذه الطريقة ، إلى تكرار هذه المؤثرات فى كل فن يؤرخونه .

على أن الدراسة قد تسير من النص الواحد إلى غيره من النصوص

والآثار الأدبية التى تنسب إلى أديب واحد . وقد تسمى هذه الطريقة :

(٢) طريقة التراجم :

ونحن نسميها كذلك تجوزا . فإننا نبدأهنا من الآثار الأدبية للأديب، ونعرف من المقارنات والنقد مميزات هذه الآثار، ونحكم منها أحكاما عامة على هذا الأديب، ونصل إلى كثير من الحقائق المتصلة بشخصيته الأدبية، ونلمح فى أدبه شخصيته الحقيقية ، ومذاهبه فى الأدب ، وفى الحياة ، وندرك مامر به من تطورات فى أدبه ، جعلته يختلف فى بعض أحواله عن البعض الآخر كأن نتبين من دراستنا لابن قيس الرقيات أنه كان شاعرا يمدح آل الزبير لأنهم يمثلون سيادة قريش ، ثم يميل عنهم ، عندما أدبرت أيامهم وخشى على حياته فيتصل بعبد الملك ويمدحه ويمدح بنى أمية .

وكأن ندرك من شعر الفرزدق روح الفخر التى غلبت على شعره من أوله إلى آخره ، كما نتبين فى بعض قصائده شيئا من مذهبه السياسى فى التشيع لآل البيت ، ونقف على شىء من أخلاقه التى منها الفسق عن أمر الله ، حتى نفى من المدينة وحبس بسبب ذلك . ونعرف من أشعاره كذلك أنه كان لايحفظ القرآن ثم قيد نفسه ليحفظه .

ونستطيع أن نتبين فى شعره أنه كان راوية عالما بالأخبار والأنساب وآثار الجاهلية ، كما فى نقائضه مع جرير . وأنه كان قوى العبارة ، يؤثر الألفاظ الفخمة والتراكيب القوية ، وأنه كان يجارى أسلوب أهل الجاهلية فى شعرهم ، ويكثر من الغريب فى قوله ، ولايبالى بالخروج على قواعد اللغة المألوفة ، سواء أرضى رجال النحو أم أبوا ، وأنه كان يضطرب فى نظمه أحيانا فيأتى بالمعقد المتداخل الذى يحتاج فى فهمه إلى كثير من الصبر والعناء.

ولكن هذه الطريقة فى دراسة التراجم، التى هى بالطريقة النقدية أشبه ، طريقة فيها كثير من النقص لأنها قد تؤدى إلى أحكام عن الأديب غير صحيحة ، فأدبه قد يكون نتيجة انفعال مؤقت . أو خيال كاذب. وليس أدب الأديب شيئا مستقلا عن تاريخه . لهذا وجب أن تكون دراسة التراجم

شاملة لأخبار الأدباء وأنسابهم ، وحالاتهم الخاصة والعامة ، وما كانوا عليه من فقر أو غنى ، ومن صحة أو مرض ، ومن جبن أو شجاعة ، ومن اضطراب أو هدوء فى حياتهم بسبب صلاتهم بالناس ، ومخالفة مذاهبهم لما ألفوه أو موافقتهم لذلك ، وكيف كانت حياتهم فى منازلهم ، وعلاقاتهم بالأسر والأعيان والحكام ، فان لذلك ولغيره تأثيرا فى أدبهم .

ثم إن ثقافة الأديب وبيئته ودينه ذات أثر لا ينكر ، كما أن لأخلاقه ومزاجه وعصره ، توجيها كبيراً له كذلك .

والإحاطة بذلك كله نافعة للأديب الناقد فى أن يعطينا صورة صادقة لما يدرسه من التراجم والسير ، فإذا عرفنا أن الفرزدق قد نسك فى آخر أيامه ، فكف عن قذف المحصنات ، فكان من ذلك شعره الذى يقول فيه .

أخاف وراء القبر إن لم يعافنى ... أشدّ من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد ... عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة موثقا

فهمنا هذه الروح الجديدة فى شعره .

ولو قرأنا ديوان جرير وجئنا إلى قوله (١) .

لعمرى لقد أشجى تميما وهدها ... على نكبات الدهر موت الفرزدق
عشية راحوا للفراق بنعشه ... إلى جدث فى هوة الأرض مُعمق
لقد غادروا فى اللحد من كان ينتمى
إلى كل نجم فى السماء محلق

لوقفنا موقف الشك من نسبة هذه الأبيات إليه ، بعد أن عرفنا ما كان بينه وبين الفرزدق من اتصال الهجاء دهراً طويلا ، وقد نسبها الأغانى إلى شاعر يقال له أبو ليلى المجاشعى . وربما كانت هذه النسبة قوية ، لأن الفرزدق

(١) ديوان جرير ص ٤٠٧

من مجاشع أيضا . ولكن الأغانى لا يقتصر على ذلك بل يروى أن جريراً رثى الفرزدق ، ويروى فى ذلك أن جريراً سمع بموت الفرزدق وهو بداره فى فى حجر ، وقيل فى مجلس المهاجر بن عبد الله الكلابى باليمامة فقال :

مات الفرزدق بعد ما جدّعته ليت الفرزدق كان عاش طويلا

فلما سمعه المهاجر قال له « بئس - لعمر الله - ماقلت فى ابن عمك ، أتهجو ميتا ؟ أما والله لو رثيته لكنت أكرم العرب وأشعرهم » فقال جرير إن رأى الأمير أن يكتمها على فإنها سوءة ! ثم أنشد .

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تعلت(١)

هو الوافد الميمون والراتق الثأى إذا النعل يوما بالعشيرة زلت(٢)

ثم بكى وقال : « أما والله أنى لأعلم أنى قليل البقاء بعده ، ولقد كان نجمنا واحداً ، وكل واحد منا مشغول بصاحبه ، وقلما مات ضد أو صديق إلا تبعه صاحبه » . ومات بعده بقليل . فاذا أضفت إلى ذلك أن جريراً كان رثى نفسه فى هذا الشعر قبل موتها ، وأن هذا الخبر المتعدد الروايات يتفق فى جملته على أن جريراً رثى الفرزدق تبين أنه صحيح لاشك فيه . ولكنك ترجح هذا إذا عرفت أنه قالها عند اقتراب أجله ، فكأنه كان يرثى نفسه كما تقدم .

ونحن نعلم من التاريخ ، لا من الأدب ، أن اتجاه جرير والفرزدق والأخطل إلى الهجاء لم يكن لدافع شخصى فى جملته ، ولكن سياسة بنى أمية التى كانت تغرى الشعراء بعضهم ببعض ، وتتجاوز عما فى شعرهم من قذف وفحش ، هى السبب فى تطاول الهجاء بينهم أعواما .

ومن الحق أن دراسة تاريخ الأديب تلقى على أدبه ضوءاً قوياً يفسره ويبين قيمته ، إذ أن للأدب بواعث خارجية لابد من معرفتها قبل دراسته .

---

(١) تعلت : تعلت المرأة تتعلى برئت من سقم أو نفاس

(٢) الثأى : آثار الجرح

لكن فى هذه الدراسة المعنية بآثار الأديب بعض الخطر . فالاقتصار على أدبه وحده ، ومحاولة فهمه فهما صحيحاً محاولة عابثة ، كما أن الاعتماد على تاريخه وإرجاع أدبه إليه ، والحكم على هذا الأدب فى ضوء هذا التاريخ الخاص وحده ، حكم غير سليم تماما . وسبب ذلك فى الحالة الأولى أن من الأدباء من تتغير نفسه عند القول ، فيصدر عنها أدب يخالف مانعرفه من صفاتها فى الحياة العامة . ومن هؤلاء كثير من شعراء الفخر الكاذب ، الذين يفخرون بالشجاعة ولاحظ لهم منها ، وبالكرم وأيديهم مغلولة ، وبطيب العنصر وهم من الدهماء ، وبالورع والتقوى وهم مجاهرون بالمعاصى وهكذا . فهم إما أن يكونوا كاذبين يريدون أن ينسبوا إلى أنفسهم! ماليس من صفاتها ، وإما أن تكون هذه رغبات مكبوتة ، وأن نفوس هؤلاء الأدباء تود فى خلوتها أن تفصح عما تتمنى أن يكون عليه صاحبها ، وحالت الظروف دونه ، وقد يكون للموضوع ذاته حكم على الأديب ، كشعر المناسبات أو مقالات المجاملة . وخوف العامة يؤثر فى الأدب فلا يكون صورة من نفس قائله على حقيقتها ، فالذى يقول فى مدح الرسول ﷺ وهو رقيق الإيمان قد يتكلف ، والذى يقول فى الدفاع عن حزب أو مذهب وهو مقيد بنظام الحزبية قد يدافع عن غير إيمان بما يقول ، والذى يدعى لتكريم أو لرثاء عظيم فى حفل عام ، قد يقول مجاملة قولا لايؤمن به .

فاذا درسنا جريراً من أدبه وجدنا فخره بآبائه يزيد على آبائه ، وإذا درسنا غزله وجدنا رقة ووجدا ولوعة ، ولكنها لاتلائم ما عرف عن جرير فى تاريخه ، فنحن لم نعرف عنه أنه كان محبا عاشقا ، ونحاول تعليل ذلك بأن هذا الغزل كغزل ابن أبى ربيعة ، أثر من آثار الشباب أو ذكراه أو بعض أمانى النفس ، وأن جريراً كان يتخيل هذا الحب فيجيد فيه هذه الأشعار ، وليس شىء كهذا غريبا فى الأدب ، فان لخيال الأدباء فى الروايات والمسرحيات والشعر الغنائى أثرا أقوى من أثر الحقيقة ، وهم يستمدون

منه كثيرا من رسم الشخصيات وتصوير العواطف والمواقف والطباع ، وهو مظهر عبقريتهم وفنهم .

والعكس صحيح ؛ ففى تاريخ الفرزدق أنه كان جبانا ، وأنه كان قبيح الشكل فأين ذلك فى شعره ؟ وجرير كان وضيع الأب ، ويروى أن رجلا جاءه يوما فسأله : من أشعر الناس ؟ قال : « قم حتى أعرفك الجواب » . فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها ، وجعل يمص ضرعها ، فصاح به : اخرج ياأبت ، فخرج شيخ دميم رث الهيئة ، وقد سال لبن العنز على لحيته ، فقال : أترى هذا ؟ قال نعم ، قال أو تعرفه ؟ قال لا ، قال : هذا أبى ، وإنه كان يشرب لبن العنز مخافة أن يسمع أحد صوت الحلب فيطلب منه لبنا . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم . فأين أثر هذا الأب فى جرير ؟ .

إذا كانت هذه القصة صحيحة فتدل على أن تاريخ الأديب ونسبه وأحواله قد لا تكون كل شىء فى أدبه . فان جريرا كان يفخر بأبيه ويتجاوز أباه هذا — فى الفخر — إلى أجداده وعشيرته فيقول :

ألم تر أن مجد بنى تميم بناه الله يوم بنى الجبالا

ويقول :

مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم ياخزر تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

فالواجب يقضى بأن يتعاون تاريخ الأديب مع أدبه ، وينتفع الناقد بذلك فى الربط بينهما ، والاستعانة بهما معاً على تحليل النصوص وتقديرها ، وبيان الباعث على أدبه ومعانيه ومن داخل النفس وخارجها . وبذلك نستطيع أن نصل إلى الرأى الصحيح فى الصلة بين أدب الأديب ونفسه ، ومقدار صدقه فى التعبير عن آرائه ومذاهبه ، وتكلفه فى مجاراة الظروف ، أو إخلاصه لفنه من غير مجاراة لمؤثر خارجى .

وهذه الطريقة التى سميناها التراجم، لأنها تعنى بكل أديب وحده وتجعل تاريخه وأدبه عماد بحثها ، تصل بنا إلى إحدى طريقتين أخريين فى دراسة الأدب : إحداهما دراسة المدارس الأدبية ،والثانية دراسة عصور الأدب .

(٣) المدارس الأدبية :

إذا فرغنا من دراسة أديب وجدنا أنفسنا مضطرين إلى التفكير فيما قرأنا من قبل ، وفيمن درسنا من رجالات الأدب ، وأدركنا أن هناك تشابها بين أديب وآخر فى شىء ما ، قد يصل فى قوته إلى وضعهما فى باب واحد يتشابهان فيه ويشبهان غيرهما . وقد نسمى ذلك كله مدرسة أدبية ، تبدأ بدءاً تاريخيا بأقدم هؤلاء الأدباء . ثم ننتقل إلى البحث فى خصائص هذه المدرسة ، ومقدار التشابه بين أفرادها وتأثر اللاحق من رجالها بالسابق، والاسباب التى وجهت أولئك الأدباء وجهة خاصة ، كالمدرسة البديعية فى الشعر العربى التى بدأت بدءاً عمليا بيشار ، وسميت كذلك لعنايتها بالبديع والحرص عليه . وكانت فى أول أمرها تجىء منه بالمستحسن العذب ، ثم أدركها التكلف فيما بعد ، ففسد الشعر فى أواخرها . ولعلك لاتخرج واحداً من شعراء العصر العباسى الأول من هذه المدرسة . غير أن هناك من غلب عليهم هذا البديع كمسلم بن الوليد وأبى تمام والبحترى وابن المعتز ، فجعلوا من مدرسة واحدة هى التى أشرنا إليها .

وإذا كان من مظاهر هذه المدرسة وجود المحسنات واضحة فى أدبها ، فان سبب ذلك التحسين يحتاج إلى بحث شىء آخر بجانب الادب ، هو الحضارة وأثرها فى الزينة وحسن المظهر ، حتى فى الكلام . وقد تصل العناية بهذه الزينة إلى حد التكلف ، فتخرج عن أن تكون جمالا . ويرجع ذلك إلى مدى مبالغة أهل الحضر فى التزين ، وقد يكونون من المهارة بحيث يهذبون الأشياء تهذيباً يسر العين والأذن والقلب ، ولا ينبو عن الذوق ، فيزداد إعجاب الناس به ، كاعجابهم بأى شىء صحت زينته

وتم جماله ،ترى ذلك فى حديث أهل الحضارة وملابسهم وبيوتهم ،كما تراه فى أدبهم وفنونهم ، فحديث أهل المدن أرق أنغاما ، وملابسهم أزهى ألوانا وأكثر تنوعا ، وفنونهم أكثر عدداً وتهذيباً . ولو طبقنا ذلك على مدرسة « البديع » فى العصر العباسى لوجدنا القول صحيحاً ، إذ كان للحضارة أثرها فى هذا الأسلوب البديعى ، مجاراة للحياة العامة التى تأثرت بهذه الحضارة . كما أن تقدم الفرس فى ميدان الادب جعلهم — وهم ذوو حضارة سابقة — يؤثرن هذا الادب البديعى الذى عرفوه عن لغتهم ذات الحضارة القديمة .

وقد تكون عناية الناقد وهو ينقد الادب موجهة إلى نوع آخر من خصائص الادباء كالتجويد فى القول والعناية به ، والعودة اليه بعد إنشائه لتهذيبه وصقله ، كمدرسة أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى وابنه كعب وراويته الحطيئة ، ويعد منها النابغة الذبيانى . وقد يذكر منها فى العصر الأموى جميل وكثير ، بل قد تتجاوز هذا العصر فى الادب العربى الى عصر العباسيين ، ومن شعرائها فيه مسلم بن الوليد وأبو تمام وابن المعتز ثم المتنبى [1] وهى مدرسة لها تلاميذ فى العصر الحديث ومنهم حافظ ابراهيم .

وقد نعد فى الأدب العربى مدارس أخرى عنيت بفن من فنون الأدب واتخذت لها طريقة خاصة مشى فيها أفرادها جميعاً ، وهى مدرسة عمر بن أبى ربيعة فى الغزل ، ومن رجالها العرجى والحارث بن خالد المخزومى ،وكان هم هؤلاء وصف النساء والتشبيب بهن ، والتعرض لهن فى مناسك الحج ، ووضع القصص عن لقائهن والتمتع بمجالسهن وغير ذلك ، وإن لم يكن قد حدث فعلا كل ماقالوه .

وتختلف هذه المدرسة عن مدرسة جميل ، بأن الثانية كانت مدرسة العشق الصادق ، والهوى المبرح ، وتعلق القلب بمحبوبة واحدة ، تنصرف إليها

(١) عنى بالحديث عن هذه المدرسة البيانية الدكتور طه حسين فى كتابه فى الادب الجاهلى ص ٢٨٤ وما بعدها طبعة ثالثة .

العاطفة كلها ، وتملك القلب من كل نواحيه ، فيصدر القول ممتزجا بزفرات الوجد،وحرارة الشوق ، ولوعة الفراق . واشتهر من قصائدها قصيدة جميل:

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهراً تولى يابثين يعود

وتائية كثير عزة :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

ويائية مجنون ليلى :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وأيام لانخشى على اللهو ناهيا

ونونية عروة بن حزام :

خليلي من عُليا هلال بن عامر بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني

وعينية قيس بن ذريح التى منها :

أقضّى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهمّ بالليل جامعُ

فضلا عما اشتهر لهؤلاء ولغيرهم من المقطوعات الجميلة المؤثرة فى وصف أحوال العشق وذكريات العشاق ، وآلام الصبابة ، وغير ذلك . وإن بولغ فى قصصهم أحيانا .

ومن تلاميذ هذه المدرسة أو تلك عدد كثير جداً من الشعراء فى عصور الأدب العربى .

٤ ـ الطريقة التاريخية أو عصور الأدب

ا — نسبة العصر إلى دولة أو أسرة حاكمة .

أما هذه الطريقة فتعنى بتقسيم الأدب أقساما ترتبط بعصور التاريخ ، وتنسب كل قسم الى العصر الذى ظهر فيه ، فتنسب أدباً خاصا قبل الاسلام الى أهل الجاهلية ، فتسميه أدب الجاهلية ، وتجعل حده الفاصل دعوة محمد ابن عبد الله ﷺ الى الهدى ودين الحق ،ثم تتدرج تدرجا تاريخيامع العصور فتختم أدب صدر الاسلام بقيام معاوية ، وأدب بنى أمية باستيلاء العباسيين على السلطان فى الدولة الاسلامية ، وتستمر هكذا حتى تصل فى تقسيم الأدب الى النهضة الحديثة .

وهى ترجع فى تقسيم الأدب هذه الأقسام الى قيام الدول بالحكم ، وتجمع كل أدباء ذلك العصر فى دراسة واحدة ، تخرج منها بصفات عامة ، يتميز بها عصر عن آخر فى أدبه وعلومه وحضارته ، كما تميز عن غيره بقيام أسرة بالحكم يتناوبه أفرادها فى الدولة . وتذكر كل مايتصل بالأدب من المؤثرات فتعنى بالتاريخ السياسى كنظام الحكم الاستبدادى أو الشعبى « الديمقراطى » وتعنى بحروب الدولة الداخلية والخارجية ، وماشاع فيها من مذاهب سياسية أو دينية أو اقتصادية ، وما جد فيها من علوم وفنون اخترعها أبناؤها أو نقلوها ، وما كانت عليه من الحضارة والرقى ، وتذكر تأثير ذلك كله فى الأدب وتحاول أن ترجعه اليه .

ب - نسبته الى ملك عظيم .

بل ان من الأقسام ماينسب الى ملك من الملوك ، لا الى دولة ، وذلك لطول أيامه ، أو لوضوح تأثيره فى الحياة العامة كعصر بركليز فى اليونان ، وعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا ، والملكة اليزابث وفكتوريا فى انجلترا . ويمكن أن نجد من ذلك عصر الرشيد أو المأمون فى الأدب العربى ، وعصر محمد على أو اسماعيل أو الملك فؤاد أو فاروق فى الأدب الحديث . ولكننا لم نعن الى الآن بهذا التقسيم فى الأدب العربى .

حـ - نسبته الى أديب مشهور .

كما أن من الأدباء من تطغى شهرته على أقرانه فيخملهم ، وينسب اليه العصر كله كعصر شكسبير ، أو ملتون فى الأدب الانجليزى . وقد نجد فى الادب العربى أديبا كهؤلاء أخمل معاصريه وطغت شهرته عليهم كالمتنبى ويمكن أن نعتبره عصراً وحده ، لكننا لم نفعل ذلك الى الآن ، ونكتفى بالتاريخ له مع بيان الحالة العامة فى عصره ، ودراسته مع فنونها وأدبها ، كالكتب التى ظهرت فى تاريخ المتنبى أو فى تاريخ أبى العلاء ، وتجاوزت ميدان الادب العربى ، والعصر الذى ظهر فيه كل منهما ، الى أشياء أخرى

قد لاتكون عربية أصلا ، مثل تأثير الفلسفة اليونانية وحكمتها ، فى المتنبي وأبى العلاء .

د ـ نسبته إلى حركة تاريخيه كبيرة .

وهناك من الحركات التاريخية مايكون عاما شاملا ، مؤثراً فى لغات وآداب متعددة ، مثل عصر النهضة الأوربية الحديثة التى جاءت فى أعقاب القرون الوسطى ، وبدأت فى ايطاليا ، وتأخر ظهورها قليلا أو كثيراً فى فرنسا وألمانيا وانجلترا ، وقد تركت هذه النهضة آثاراً واضحة فى الادب الأوربى بوجه عام من أهمها تقليد اليونان والرومان فى أدبهم .

كما أن هناك من الحركات الدينية ، أو المذاهب السياسية والاقتصادية ، مايغير وجه الحياة فى أمة أو أمم ، ويسير الادب فى ركابه مؤيداً أو معارضا وتظهر آثار تلك الحركات قوية واضحة فيه ، فينسب العصر الادبى إلى هذه الحركات : فالاسلام وهو دين عام قد أثر فى اللغات التى دخل بلادها وكانت له فى أدبها آثار عنيفة من أهمها استخدام اللغة العربية وسيلة للتعبير بين الادباء وغيرهم من أبناء تلك الأمم ، كما ترى عند الشعراء الأعاجم فى عصر بنى أمية وكثير من مشهورى الأدباء فى عصر بنى العباس ، وأثر تأثيراً عنيفا فى الأدب العربى ذاته مازال باقيا الى الآن . ومن أهم آثاره عند ظهوره أن أخر الشعر عن منزلته ، وقدم النثر ، وعمل على ظهور الكتابة وتقدمها ، فضلا عن الموضوعات التى أوحى بها إلى الأدباء ، والصبغة التى صبغ بها عقول المفكرين وأساليب المنشئين إلى الآن .

وكان للمسيحية آثار قوية أيضا فى الأدب الغربى وإن لم تمح لغات تلك البلاد .

مايبرر هذا التقسيم التاريخى :

ولا شك أن لهذا التقسيم مايبرره ، فالتاريخ بأحداثه العظيمة وما فيه من حروب أو سلام ومن اختلاط أمة بأمة ، وقيام دولة على أساس سياسى أو دينى ، يطبع الأدب طبعاً خاصاً متأثراً بهذا التاريخ ، يؤثر فى الأدباء

تأثيراً عاما فيكون أكثرهم صورة للعصر الذى يعيش فيه ، متأثراً به من قريب او بعيد ، فيسجل أحداثه ويروى تاريخه ، وينشىء أدبه مستمداً معانيه وخياله مما يدور حوله من الحوادث والظروف ، فالأدب الحى القوى يجب أن يكون متأثراً بما يجرى حول الأديب . ثم تبدو صفات الأديب الخاصة من خلال هذه الصفات العامة، موضحة شخصيته ، مميزة له عن غيره من معاصريه ، فاذا كان أدباء بنى أمية قد تأثروا جميعاً بالتاريخ السياسى فقد بقيت لكل منهم شخصيته التى نراها فى أدبه ، فقد كان أكثرهم يمدح بنى أمية ، ولكن جريرا يخالف الأخطل فى معانيه وفى أسلوبه ، وكان الفرزدق يعنى بنفسه وآبائه ، وبلهوه وعبثه ، وبالدفاع عن نفسه أمام هجمات جرير وهجمات النحويين . وفى شعر كل من هؤلاء الثلاثة الفحول ، الأخطل وجرير والفرزدق ، فخر بأصله . ولكن جريرا فى هجائه للفرزدق يخالف هجاءه للأخطل متخذاً من نصرانية الأخطل ومن شربه الخمر ومن تردده على القساوسة والكنائس ، هو وأمهاته ، وسيلة للهجاء ، ويكثر من المعانى التى يستمدها من ذلك ، كقوله فيه :

قبحَ الإله وجوه تغلبَ إنها ... هانت على مَرَاسناً وسبالا (١)
قبحَ الإله وجوه تغلب كلما ... شبحَ الحجيج (٢) وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد ... وبجبرئيل وكذّبوا ميكالا

أما هجاؤه للفرزدق ولغيره فكان من نوع آخر . كان يقول فيه :

ألا قبح الله الفرزدق كلما ... أهل مصل للصلاة وكبرا
فلا يقربَنّ المروتين ولا الصفا ... ولا مسجدَ الله الحرام المطهرا
فانك لو تعطِ الفرزدق درهما ... على دين نصرانية لتنصرا

ولعله يشير بذلك إلى رقة دين الفرزدق ، وإلى حادثته فى المدينة ، التى أشار إليها فى شعره ، فنفاه من أجلها مروان بن الحكم عن المدينة . وكثيرا ما اتخذ من فسق الفرزدق ، ومن غدر بنى مجاشع بالزبير بن العوام ، رضى الله عنه

(١) جمع سبلة وهى الشارب . والمراسن الانوف
(٢) رفع الحجاج أيديهم بالدعاء

معانى يقلب فيها شعره ويجيد . فقال فيه.وأشار صراحة إلى حادثته بالمدينة :

يُوصِّلُ حبليه إذا جن ليلة ... ليرقى إلى جاراته بالسلالم
أتيت حدود الله مُذْ أنت يافع ... وشبت فما ينهاك شيبُ اللهازم (١)
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخل رجس بالخبيثات عالم
لقد كان إخراج الفرزدق عنكمو ... طهوراً لما بين المصلى وواقم (٢)
تدليت تزنى من ثمانين قامة ... وقصرت عن باع العلا والمكارم

ويقول فى قوم الفرزدق،وقد نزل بهم الزبير بن العوام بعد وقعة الجمل،ثم غدروا به وقتلوه .

أجـــيران الزبير غررتموه ... كأنكم الدلادل والقهود (٣)

ويقول :

فبعداً لقوم أجاروا الزبير ... وأما الزبير فلا يبعد

وسكت بنوأمية على هذا الهجاء لأن سياستهم كانت تنتفع به، إذ ينصرف الشعراء إلى مابينهم وينسون بنى أمية .وتثور عصبية قبليه بسبب هذا التهاجى الذى تجاوز الشعراء إلى قبائلهم وقديمها ، فى الجاهلية والاسلام ، ولهذا أثره فى توجيه الشعراء .

ولعل سياسة بنى أمية كانت السبب ، أو من الأسباب القوية ، فى ظهور شعر الغزل العابث فى مكة والمدينة ، كما سيأتى تفصيل ذلك فى الكلام على شعر الغزل فى الحجاز . كما أن التاريخ فى عصر بنى أمية يلقى ضوءاً قوياً على خطبة الحجاج عندما ولى العراق ، وخطبة زياد أيضا قبله ، وعلى شعر الخوارج فى حروبهم مع بنى أمية ، وشعر الهاشميين فى تعصبهم لشيعتهم من آل بيت الرسول .

---

(١) جمع لهزمة وهى عظم ناتئ فى اللحى تحت الاذن .
(٢) حرة بالمدينه تنسب اليها وقعة الحرة بين يزيد والانصار .
(٣) الدلادل : القنافذ الكبيرة. القهود : صغار الغنم .

فتأثر الادب بالعصر واضح فى كل عصور الأدب وبلاده .

تأثير الأدب فى التاريخ :

وللأدب تأثير فى التاريخ . وقد لانستثنى فنا من فنونه . فالخطابة السياسية كثيرا ماتثير الجماهير فتغير نفوسهم ، وتدفعهم إلى ثورات تذهب ببعض النظم . والشعر أيضا له مثل هذا التأثير ، كما للصحافة والمسرح تأثيرهما ، وإنا لنذكر من ذلك رسالة عبد الحميد الكاتب التى بعث بها إلى أبى مسلم ، عند انهزام مروان بن محمد ، آخر خلفاء الأمويين ، أمام جيوش العباسيين فقالوا إنه لما كتبها قال لمروان بن محمد عنها : لو قرأها أبو مسلم لأفسدت تدبيره ، فلما وصلت إلى أبى مسلم مزقها قبل أن يقرأها ، خوفا من فعلها ، وقال البيت المشهور :

محا السيف أسطار البلاغة وانثنى عليك ليوث للغاب من كل جانب

فقد كان عبدالحميد يعرف أثر الرسالة لو قرأها أبومسلم ، وخاف أبومسلم هذا الأثر فمزقها قبل أن يقرأها .

والتمهيد للانقلابات كثيرا مايكون من فعل الأدب فى نواحيه المختلفة فيغير وجه التاريخ ، ويهيىء للتغييرات السياسية ، وقيام دولة مكان أخرى ، كما كانت كتابات فولتير وجان جاك روسو سببا من الأسباب التى هدمت الملكية فى فرنسا ، وهيأت الأذهان للثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر . وكذلك فعل الأدب واضح فى إخماد الفتن وتسكين الثورات ، وبخاصة إذا وصل إلى قلوب الثائرين ولعب بأهوائهم .

أفيقال بعد هذا إن تقسيم الأدب إلى عصور ودراسته على أساس هذه العصور التاريخية تقسيم معيب ؟

مايؤخذ على هذا التقسيم التاريخى :

لعل مايقصده أولئك العائبون هو أن العناية بتاريخ الأدب قد تصرف

الدراس عن الأدب نفسه ، وتحرم الطالب تذوقه ، وتكتفى بالأحكام العامة التى تعرضها عليه ، فتمثل الحالة العامة ، وتتجاهل تنوع الأدب ، بتنوع الأدباء ، وتباعد بينه وبين مافيه من جمال وقوة وبلاغة ، ولا تعرض صوراً مختلفة من خيال الأدباء ، ومعانيهم وفنونهم فيها متعة وسرور للقارىء .

وإن عصور الأدب تجعل حداً فاصلا بين أشياء متصلة ، وتفرق فرقا تاريخيا ، لا حقيقياً ، بين حركات ومذاهب متداخلة ، لاتجارى هذه العصور فى أوائلها وأواخرها : فان المقفع يذكر فى تاريخ العصر العباسى مع أنه تلميذ عبد الحميد الكاتب الذى يعد فى كتاب بنى أمية . وبشار بن برد أدرك شعراء العصر الأموى ، وتأثر بهم إلى حد كبير ، لأنه عاصرهم طويلا ، وقد قال عن نفسه إنه هاجى جريراً فلم يرد عليه ، ولو فعل جرير لكان بشار عالى الشأن ، كما يحكى بشار نفسه . وشعراء الجاهلية الذين أدركوا الاسلام ولم يدخل الايمان فى قلوبهم كان تأثرهم به قليلا كالحطيئة ، فالحد الفاصل فى تطور الأدب لايتبع دائما بدء هذه العصور أو نهايتها ، ولهذا كانت الأحكام الأدبية على العصور أحكاماً عامه ، فيها شىء من التجوز ، وبخاصة عند أوائلها ونهاياتها .

لكن بعض الأدباء ، أو بعض نواحى الأدب ، قد تتأثر تأثراً قوياً ، وتقطع الصلة بين الماضى والحاضر ، فيكون التقسيم التابع للعصور واضحاً فيها . فمدح بنى أمية قد انتهى بقيام الدولة العباسية . وبعض شعراء الاسلام قد كف عن قول الشعر لما أذهله إعجاز القرآن ، كلبيد بن ربيعة من أصحاب المعلقات فى الجاهلية ، حتى أنه لم يرو له إلا بيت واحد فى الاسلام . وذلك واضح فى الآداب التى تتأثر بالسياسة العامة للدولة ، فتحارب بعضها وتحتضن البعض الآخر مما يخالف مذهبها أو يؤيده . وليس من المعقول أن دولة دكتاتورية تسمح للأدب الديمقراطى أن ينتشر فيها . فقيام هذه الدولة نهاية لذلك الأدب وبدء لأدب جديد يتغنى بحكم الفرد ويشيد بفضله .

غير أن بعض أنواع الأدب لايتصل بذلك الحكم ، فيستمر فى تطوره

الطبيعى من غير أن يتأثر تأثرا واضحا به ، فشعر الغزل لايتأثر بقيام دولة بنى العباس لأنه لاصلة له بالسياسة ، وإن تأثر فانما يكون تأثره من بعيد كأن يأخذ بعض المعانى التى أدى اليها تطور الحياة بسبب قيام هذه الدولة وعنايتها بترجمة أدب الفرس أو علوم اليونان . وكذلك أدب الوصف فانه لم يتغير جملة فى سنة ١٣٢ هـ عند سقوط بنى أمية، ولكنه انتقل من وصف البادية بما فيها من نبات وحيوان وعادات وأخلاق ، إلى وصف القصور والأزهار والأخلاق الجديدة، بفعل التطور الذى أدت إليه الحضارة العباسية.

ضرورة هذه الطرق :

من هذا يبدو أن دراسة الأدب التى نريدها يجب أن تكون شاملة لكل هذه الطرق ، فندرس الادب نفسه ، وننقده نقداً صحيحاً ، ونستعين فى نقده ، وبيان جيده ورديئه ، بالذوق الادبى المهذب ،وبالعلم بأسرار اللغة التى ظهر فيها ، وبالنفس الانسانية وحالاتها ، وبالظروف التى أنشىء فيها هذا الادب ، وبمقارنة الادباء أو الآداب أو فنونها .

ومن الطبيعى أن يكون فيها تخصص فى نواحى الأدب المختلفة ، فيعنى قوم بتحقيق نصوصه ، ورجاله ، وآخرون ببيان قواعد نقده وتقديره ، وغيرهم بفنونه وتطورها ، وأسباب ذلك . وغيرهم ببيان المدارس الأدبية ، أو الحركات الأدبية التى تظهر فى الأدب متأثرة بعوامل التأثير المختلفة ، ويعنى جماعة بتاريخه فى عصوره المختلفة . وفى هذا التنوع فى الدراسة فائدة للادب ولتاريخه عظيمة ، أما الاقتصار على واحدة فتقصير لايبرره إلا التعصب أو الهوى .

وقد ظهرت فى عصر بنى أمية آثار أدبية تعد من عيون الأدب العربى ، بل إن بعضها ليسمو إلى درجة الآثار العالمية الخالدة فى الأدب .

فعلى من يريد أن يستمتع بالأدب أن يقرأها ، وأكبر ظنى أنه سيكرر قراءتها ويستمتع بها كلما أعاد هذه القراءة ، لأنها من الأدب الخالد .

فى سبيل الملكية الوراثية

النزاع بين على ومعاوية

كان بنو أمية من أهل السيادة والشرف فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام تأخر أكثرهم عنه ، وتزعموا المعارضة السياسية والحربية فى قريش قبل الهجرة وبعدها . فلما جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، دخل بنو أمية فيما دخل فيه عامة الناس ، وأسلم أبو سفيان بن حرب و لد معاوية فى عام الفتح ، وأسلمت زوجه هند أم معاوية فى ذلك العام أيضاً ، وأسلم معاوية فى ذلك العام ، وعرفوا بفضلهم وغنائهم فى الاسلام كما عرفوا بذلك فى الجاهلية . فاستعان بهم أبو بكر رضى الله عنه ، فولى يزيد بن أبى سفيان أحد الجيوش التى خرجت لفتح الشام ، وجعل له ولاية دمشق إذا فتحها ، ولما مات يزيد فى طاعون عمواس سنة ١٧ هـ استعمل عمر أخاه معاوية على عمله مضافا إلى ما كان له من قبل ، وكان عمر يعرف منه حسن السياسة وقوة التدبير والأمانة على صغر سنه .

وجمعت الشام كلها لمعاوية فى أيام عثمان ، وكان ولاة أمصارها تحت أمره ، وما زال بها حتى استشهد عثمان رضى الله عنه .

وكان قتل عثمان سبباً فى فتنة كبرى بين المسلمين ، فإنه كان رحمه الله باراً بأقاربه فاستطاعوا أن يصلوا إلى إمارة أكثر الولايات والجيوش الاسلامية فى أيامه ، مع أنه لم تكن لأكثرهم سابقة فى الاسلام تجعله يتقدم المسلمين . وكان الحكم بن أبى العاص بن أمية كاتباً أو « أمين سر » لعثمان ابن عفان ، فكان هذا وأشياء أخرى سبباً فى هذه الثورة التى أدت إلى قتله فى داره سنة ٣٥ من الهجرة .

كانت الأمور التى أخذت على عثمان سبباً فى تغير كثير من كبار الصحابة عليه ، ومنهم عائشة وطلحة والزبير ، ومنهم على كذلك . وكانوا ينصحون له ، ولكن بنى أمية كانوا أقوى سلطانا ، وكان لعثمان آراء وحجج يدافع بها عن نفسه لم تغن من أمر الله شيئا ، ولم تقنع أولئك الصحابة ، ولا أولئك الثائرين ، فلما قتل ، وبويع على رضى الله عنه بالخلافة ، بدأ النزاع بينه وبين بنى أمية ، وعلى رأسهم معاوية .

لم يبايع معاوية عليا ، واتهمه بالمشاركة فى دم عثمان ، وأنه قصر فى الدفاع عنه لهوى فى نفسه .

وكان عمل على رضى الله عنه أول ما ولى الخلافة سبباً فى زيادة الثورة فى نفوس بنى أمية ، وعلى رأسهم معاوية ، فقد رأى أن يعزل جميع ولاة عثمان ، وذلك قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار . وقد حذره المغيرة ابن شعبة عاقبة ذلك ، وحذره ابن عباس مثل ما حذره المغيرة ، فإن المغيرة قال له :

«إن لك على حق الطاعة والنصيحة ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، وإن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد ، أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود . استبدلت أو تركت» . قال : حتى أنظر ، فلما عاد اليه من الغد ، ورآه غير فاعل قال له : إنى أشرت عليك بالأمس برأى ، وأرى اليوم أن تبقى هؤلاء العمال . ثم خرج من عنده ودخل عليه ابن عباس . فقال له : رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك ؟ فأخبره خبره بالأمس واليوم ، ونصيحته فيهما ، فقال له ابن عباس : أما أمس فقد نصحك ، وأما اليوم فقد غشك . فقال له على ، ولم نصحنى ؟ قال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا . ويؤلبون عليك ، فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق . مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك .

فقال على : أما ماذكرت من إقرارهم فوالله ماأشك أن ذلك خير فى عاجل الدنيا ، وأما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان ، فوالله لا أولى أحداً منهم أبداً .

فلما أبى استماع النصيحة أبى ابن عباس أن يقبل ولايته على الشام بدلا من معاوية ، وقال له : معاوية رجل من بنى أمية ، وهو ابن عم عثمان ، وعامله على الشام ، ولست آمن أن يضرب عنقى بعثمان ، وإن أدنى ماهو صانع بى أن يحبسنى . فقال على : ولم ؟ قال . لقرابة مابينى وبينك ... ولكن اكتب إلى معاوية ، فمنه وعده . فأبى سيدنا على .

ولعل له عذرا فى خلع عمال عثمان ، فقد كانت الثورة بسبب هؤلاء العمال ، ولعل هذه الثورة قد منعته القصاص من قتلته عاجلا ، خوفا من أن تثور فتنة أخرى قد تذهب بحياته . وتعم البلاد .

مخالفة معاوية

عرف معاوية رأى على فيه ، فأبى بيعته . واستعان بقرابته من عثمان ، وبكتاب زوجته « نائلة » الذى أرسلته إليه مع النعمان بن بشير تصف له فيه مقتل عثمان وصفا مؤثرا ، رققت فيه وأبلغت ، فإذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه ؛ وبقميص عثمان الذى قتل فيه مخضبا بالدم ممزقا ، وعقدت شعر لحيته فى القميص ، فكان لهذا المنظر المؤثر فعل النار فى قلوب أهل الشام ، فإن معاوية ، جمع الناس ، ونشر عليهم القميص ، وصعد المنبر وذكر ماصنعوه بعثمان ، فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم تزهق ، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه ، فأجابوا . وأبقى القميص كذلك زمانا .

وقعة الجمل

أما بيعة على فلم تخضع له الناس ، فقد خرج عليه من بايعوه ، خرج طلحة والزبير وأخرجا معهما عائشة ، وعدداً من الثائرين لقتل عثمان ، وذهبوا جميعاً إلى البصرة ، وتجمع من الفريقين عدد استعدوا لما تأتى به الظروف ،

ثم خرج على فى أعقابهم . والتقى الفريقان ، واقتتلوا فى «وقعة الجمل» وهزم أصحاب الجمل ، وقتل طلحة فى المعركة ، وقتل الزبير وهو عائد إلى المدينة : علم بمسيره عمرو بن جرموز من مجاشع ، فاتبعه ، حتى إذا كان بوادى السباع غافله وقتله .

ولما انتهت المعركة بانتصار على ، زار عائشة فى بيتها الذى نزلت فيه ، وأمر أن تجهز إلى المدينة . ولما جاء يوم رحيلها ودعها ، وخرج معها أميالا ، وسرح بنيه معها يوما . ثم أخذ البيعة على أهل البصرة ، وولى عليها عبد الله بن عباس ، وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبيه (١).

لما فرغ على من وقعة الجمل خلا لمعاوية ، وانتقل من البصرة إلى الكوفة واتخذها مقراً لخلافته . وبدأت الرسل بينه وبين معاوية يدعوه إلى بيعته ، ولما لم تفلح الرسل اختصما إلى السيف ، واستعان معاوية بدهاته وأعوانه من الدهاة الذين ضمهم إلى جانبه كعمرو بن العاص ، وكان له من جند الشام خير عون على نجاحه فى حربه ، فقد عاشرهم زمنا طويلا ، وملك قلوبهم بحلمه وكرمه .

من هذا الوقت نسمع بأدب أموى قوى ، فيه البيان السديد ، والأسلوب الفصيح ، والحجة الباهرة ، والاستشهاد بالشعر ، وروايته ، والايجاز البليغ ، بدأ على لسان معاوية فى خطبه ، وفى رسائله ، إلى على ، وإلى ولاة على فى الأمصار ، يحاول أن يصرفهم عنه . ونسمع بدهاء معاوية وسياسته وحسن تأتيه للأمور ، واتصافه بصفات الخليفة ، أو الملك اللبق ، الذى يحسن سياسة أمة فيضبط أمورها ، ويملك قلوب أكثرها ويرغم الساخطين منها على الرضا والسكوت .

---

(١) عرف فيما بعد بزياد بن أبى سفيان ، وكان له أثر كبير فى سياسة العراق وبيعة يزيد وتحويل الخلافة إلى ملك ، وتثبيت ملك بنى أمية فى العراق ، وكان له ذكر فى الأدب عظيم ، واشتهرت خطبته البتراء ، وسوف نتحدث عنه فيما بعد .

أثر النزاع فى النثر :

(ا) فى الرسائل

فى هذه الفترة، فترة النزاع بين على ومعاوية، ظهر هذا النوع من الأدب الذى أشرت إليه ، وهو الرسائل المتبادلة بينهما ، فقد أراد على رضى الله عنه أن يدعو معاوية قبل أن يتقدم لحربه . فكتب إليه كتابا أرسله إليه مع جرير ابن عبد الله البَجَلى - من بجيلة - وهو :

«سلام عليك ، أما بعد ، فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على مابويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا ، وإن خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ماخرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ماتولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا (١) » . وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردتهما ، فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى قبولك العافية . وقد أكثرت فى قتلة عثمان، فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ، ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكمت القوم إلى ، حملتك وإياهم على كتاب الله . وأما تلك التى تريدها فهى خدعة الصبى عن اللبن (٢)، ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء (٣) الذين لاتحل لهم الخلافة ، ولا يدخلون فى الشورى . وقد بعثت إليك وإلى من قبلك،

---

(١) مأخوذ من قوله تعالى فى سورة النساء : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا .

(٢) فهى محاولة منك أن تخدعنى . كما يخدع الصبى ، وبخاصة أيام الفطام، لنسى الرضاع وقد يكون ذلك بأصغر الأمور فلا يجوز إلا على الصغير .

(٣) الذين عفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء

جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الايمان والهجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله » .

فرد عليه معاوية :

من معاوية بن صخر ، إلى على بن أبى طالب ، أما بعد، فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان، كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار . فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. ولعمرى ماحجتك على كحجتك على طلحة والزبير ؛ لأنهما بايعاك ولم أبايعك. وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق ؛ لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام ، وأما شرفك فى الإسلام ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعك من قريش فلست أدفعه ».

هذان كتابان يمثلان — على الجملة — أسلوب على كرم الله وجهه ، ومعاوية رضى الله عنه ، فى الخصومة التى كانت بينهما . ونفسية كل منهما ، وأثر الظروف والحوادث فى نفسه . أما على كرم الله وجهه فهو مغضب حانق على هذا المخالف ، تتبين هذا الغيظ والانفعال فى الخروج شيئا ما عن موضوع الخصومة أو عن صميمها ، وهو قوله له : « واعلم أنك من الطلقاء الذين لاتحل لهم الخلافة » فإن معاوية لم يكن يطلب الخلافة لنفسه صراحة ، إلى ذلك الحين . ولعل عليا أحس منه بما كان يضمره ، فغاظه أن يكون هذا الذى ليست له سابقة فى الإسلام طامعا فيما ليس له أهلا . ولعل هذا الغيظ قد عاد إلى نفسه عندما ذكر خروج طلحة والزبير بعد بيعتهما . وذلك واضح من أسلوب القرآن « حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » . فقد نزلت الآية كلها ، والآيات قبلها ، فى المنافقين على ماتروى كتب التفسير ، وهذه الآية هى : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » : والاقتباس نفسه يوحى بثورته

النفسية عليهما ، مع التشفى - إن أردت - بما أصابهما .

وهو يحرم معاوية أن يكون له رأى فى الخلافة بعد أن بايع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار .

فكان رد معاوية الذى قرأته من قبل ، وهو رد أحسن فيه التخلص مما أراد على أن يلزمه به ، وحمله تبعة قتل عثمان ، وهو بهذا يريد أن يبرىء نفسه أمام الناس من خلاف الجماعة ، وأنه تخلف لسبب يؤيده الدين ، وهو أن الخليفة الجديد متهم فى دم حرمه الله ، إن لم يكن بالفعل فبالإغراء . وأنه كان مسئولا عن هذا الدم أو داعيا إلى سفكه: « فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف » . ومن يحسن الظن بمعاوية لا يستطيع أن ينكر اتهامه لعلى صراحة بأنه مسئول عن دم عثمان ، وأنه كان يطمع فى الخلافة .

ثم رد على بيعة طلحة والزبير ، وطاعة العراق بأن هؤلاء جميعاً قد قبلوا إمامته ، أما هو وأهل الشام فهم فى حل من الخروج عليه ، وأنهم فى حل من قتاله حتى يدفع إليهم قتلة عثمان ، ثم يترك الأمر شورى بعد ذلك .

ولعل انتسابه إلى أبيه « صخر » فى أول الرد ، مايشير من طرف خفى إلى صلابته فى موقفه ، وإصراره عليه .

أما ختام الكتاب فهو فى منتهى اللباقة ، كأنه يريد به أن يظهر للناس أنه غاضب لله وللدم المسفوك ، وأنه يعرف أقدار الناس لا يدفعها . فهو لا يدفع شرف على فى الإسلام ولا قرابته من رسول الله ، ولا موضعه من قريش . ولكنه يقدم عليها حقوق الله ، وبهذا يستطيع أن يستهوى أنصارا آخرين من جند على .

وإن كتب معاوية وخطبه المتعلقة بالخلاف بينه وبين على تدور كلها على هذا النحو : مقارعة للحجة بالحجة ، وسكوت عند ما يتعلق الكلام بسابقة أو شرف فى الإسلام ، أو وقوف عند ماله من شرف فى هذه الناحية ، كتشريف الرسول لأبيه يوم الفتح بجعل داره كالكعبة من دخلها فهو آمن .

وليس من طبيعة هـذه الرسائل الصادرة عن معاويه إلا أن تـكون كذلك: أهم مافيها البيان القوى ، المعتمد على العقل والمنطق، أو مغالطة العقل والمنطق أحياناً ، مع إخفاء هذه المغالطة فى ثوب يزينه الأسلوب الفصيح ، والاستشهاد بالشعر ، أو القرآن ، أو ذكر سابق الفضل فى الجاهلية ، أو الشرف يوم الفتح فى الإسلام . وكثيراً ما كان يسلم لعلى بالفضل وبالشرف ، لأنه يعلم أن ذلك التسليم لايغنى شيئاً عنـد أهل الشام والعراق ، فهولن يضر معاوية ، ولن ينفع عليا مادام أهل الشام يقبضون عطاءهم ، ويتمتعون بحلم معاوية .

(ب) فى الخطب

وكذلك الخطب التى اهتزت لها أعواد المنابر فى هـذا الخلاف بينهما وبين أنصارهما ، كان يتبارى كل فريق منهما فى بيان وجه الصواب فى الأمر يتشاورون فيه ، أو المسألة تعرض لهم ، أو الحادثه يقدمون عليها أو ينتهون منها ، أو المعركة يحمسون لها أو يفخرن بالانتصار فيها ، أو المصر يمدحون أهـــله لولائهم أو إخلاصهم أو بلائهم فى الحرب ، أو القبيلة يثنون على أبطالها وأفعالها .

وقد يحاول خطباء كل فريق أن يدعوا إلى حزبهم ، ويؤيدوا حقهم ، وينالوا من خصمهم : فيعرض أصحاب على بخروج معاوية ومن معه عن طاعة الله والخلافة ، وبرغبتهم فى الدنيا وحبهم للسلطان . ويذكر أنصار معاوية أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن الثأر من قاتليه واجب ، وأن الخروج لذلك فيه رضا الله ورسوله .

وأكثر ماكانت هذه الخطب فى الوفادات التى كانت بين على ومعاوية ، كل يتخير من أصحابه أفصحهم لساناً ، وأوضحهم حجة ، فاذا تكلم الوفد رد عليهم من كانت عليه الوفادة. ومن ذلك أن سيدنا عليا كـرم الله وجهه أوفد إلى سيدنا معاوية وفداً ، بعد أن توادع الفريقان على ترك الحرب فى صفين سنة ٣٧ هـ طمعاً فى الصلح ، وكان فى وفد على عدى بن حاتم ، ويزيد

ابن قيس وغيرهما ، فلما دخلوا عليه تقدم عدى للكلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فانا أتيناك لأمر يجمع الله عز وجل به كلمة أمتنا ، ويحقن به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين. وإن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذى رأوا ، فلم أجد غيرك وغير من معك ، فانته يامعاوية ، لايصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل » .

فأجابه معاوية :

« كأنما جئت متهدداً ، ولم تأت مصلحاً ! هيهات ياعدى ! كلا والله وإنى لابن حرب ، مايقعقع لى بالشنان [1] ، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان رضى الله عنه ، وإنك لمن قتلته ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به . هيهات ياعدى بن حاتم ! قد حلبتُ بالساعد الأشد » .[2]

ثم تكلم يزيد بن قيس بالمعنى الذى قاله عدى بن حاتم ، فأجاب معاوية بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

« أما بعد ، فانكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التى دعوتم إليها فعنا هى ، وأما الطاعة لصاحبكم فانا لازاها ، إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لانرد ذلك عليه . أرأيتم قتلة صاحبنا ؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » .

وظاهر من خطب هذا النزاع ، سواء أكانت عامة أم فى وفادات كهذه ، أنها كانت تدور حول فكرة واحدة عند كل من الفريقين ، وأنها كانت على

---

(١) الشنان : جمع شن — بفتح الشين ، وهو الجلد اليابس . فاذا ضرب عليه ضارب نفرت الابل من صوته خائفة : يريد معاوية . إن تهديدك لايخيفنى .

(٢) قد بذلت كل جهد فى استنباط كل مايمكن للقتال : كما يبذل الحالب جهده لاستخراج كل اللبن من الضرع .

لسان أعيان الدولة ، وهم أعيان البيان عندئذ ، فكانوا يعرفون الفرق بين خطبة وخطبة ، وبين موقف وموقف ، ولهذا نرى فى هذه الخطب بلاغة لاتكلفا ، وطبيعة لازخرفا ، واختيارا للعبارات ، وإيجازاً فى القول . ونرى بجانب هذه الخطب خطباً أخرى ، قد يعود حديث الفخر فيها إلى ماقبل البعثة . أو تتحدث عن فضل رسول الله ﷺ فى الهداية ، وفضل أبى بكر وعمر فى نشر الإسلام ، ثم فضل عثمان وسابقته ، وقتله مظلوما شهيداً ، وأن معاوية وأهل الشام خرجوا للمطالبة بثأره ، وإقامة حد من حدود الله .

أما أصحاب على فقد يقفون عند قتل عثمان فيبرءون من دمه وقتلته ، ويتهمون معاوية وأصحابه ، ويعيرونه بما كان من عداوته للدين هو وأبيه وأمه ، إلى آخر مايعرف من ذلك فى تاريخ الاسلام .

ومن الخطب القوية التى نذكرها . خطبة معاوية رضى الله عنه بصفين ، يحرض أهل الشام على أهل العراق ، أو يدفع أصحابه لقتال على كرم الله وجهه . قال معاوية :

« الحمد لله الذى دنا فى علوه ، وعلا فى دنوه ، وظهر وبطن ، وارتفع فوق كل ذى منظر ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، يقضى فيفصل ، ويقدر فيغفر ، ويفعل مايشاء ، إذا أراد أمراً أمضاه ، وإذا عزم على شىء قضاه ، لايؤامر [1] أحداً فيما يملك ، ولا يُسأل عما يفعل . وهم يسألون ، والحمد لله رب العالمين على ماأحببنا وكرهنا . »

وقد كان فيما قضاه الله أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ، ولفت [2] بيننا وبين أهل العراق ، فنحن من الله بمنظر ، وقد قال الله سبحانه وتعالى . « ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد » . انظروا ياأهل الشام ، إنكم غداً تلقون أهل العراق ، فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليكم ، فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا بيضتكم [3] ، وإما أن تكونوا قوما تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم وإما أن تكونوا قوما تذبون [4] عن نسائكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله

(١) لا يستشير . (٢) جمعت . (٣) ساحتكم . (٤) تدافعون .

والصبر الجميل . واسألوا الله لنا ولكم النصر ، وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين . »

ولعل فى هذه الخطبة ما يجمع كثيراً من أسلوب الخطابة فى هذا العهد والذى بعده إلى آخر زمن معاوية ، ففيها البدء التقليدى : الحمد لله والثناء عليه ، وذكره بما هو أهله ، ثم الصلاة على نبيه ﷺ . ولعل الرواة نسوها فى هذه الخطبة ، فلم يكن معاوية بالذى يتجاهلها فيضعف حجته أمام خصومه وأمام أنصاره ثم الاستعانة بالقرآن ، استشهاداً واقتباساً ، واحتجاجاً ، فقد استشهد على أن القتال بين الفريقين بقضاء الله ومشيئته ، بقوله تعالى (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) : واقتبس من القرآن آخر خطبته ، أخذه من قوله تعالى (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) . وألح فى طلب الثبات والصبر والشجاعة من أهل الشام ورغبهم فى ذلك بأنه يجب عليهم أن يطلبوا ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليهم ، والله تعالى يقول (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور)[1] .

وهى فى إيجازها من أقوى الخطب ، فذكر البلدين ، العراق والشام ، فيه إثارة للعصبية بينهما ، والعصبية فى ذلك الوقت لها قيمتها ، سواء أكانت للبلد أم للقبيلة ، وقد أثار العاطفة وبث الشجاعة ، فى تذكيرهم بأنهم يدافعون عن نسائهم وأبنائهم وأموالهم ، ثم فى تذكيرهم بالسبب الأهم ، الذى خرجوا من أجله على سيدنا على ، وهو المطالبة بدم عثمان ، ولكنه لم يذكره باسمه ، بل ذكره بقرابته من رسول الله ﷺ ، وفى ذلك ما فيه من فعل فى نفوس القوم ، يمسها من الناحية الدينية ، ويثيرها للأخذ بثأر هذا الصهر الكريم ، عثمان ذى النورين ، حتى يكاد ينسيهم أنهم يقاتلون صهر رسول الله أيضاً ، وابن عمه ، وأبا الحسنين ، رحمهم الله جميعاً .

---

(١) سورة الاعراف

ولا نغفل ما غلب على الخطبة من روح التسليم لله ، وأنه قد قضى ولا راد لقضائه ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ، فخروجهم بمشيئته ، والنصر من عنده فليسألوه النصر مستعينين عليه بالتقوى ، وأن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق وهو خير الفاتحين .

حقا إن كل جملة من هذه الجمل تحمل من المعانى ما توحى به عشرات غيرها ، فهذا الايجاز البليغ يجعل معاوية فى صفوف أكابر الخطباء من رجال السياسة والقواد . ويكفى أن نذكر أنه كان يخاطب عربا مسلمين، يقدرون ما يقول ، ويفهمون ما يرمى إليه ، وينفرون إلى الموت بمثل هذه الخطبة ، لايبالون بأرواحهم فداء لهذه الغاية التى ندبهم لها معاوية .ولا تنس أن يملك قلوبهم بعطائه ، وأنه حبيب إلى نفوسهم من أيام عمر ، وأن دهاءه فى نصب قميص عثمان المخضب بدمه ، والموسوم بشعرات من لحيته تشـــهد بفظاعة الجريمة . ثم أصابع « نائله » المقطوعه دفاعا عن شيخ كبير كانت تستحى منه ملائكة الرحمن ، كما كان يقال عن عثمان . كل هذا يحقق له ما يرجوه، من إثارة حماسة جنده ، فاذا بلغ هذه الغاية كان فى مقدمة مشاهير الخطباء .

مثل هذه الخطابة التى أشرنا إليها فى النزاع بين على ومعاوية نستطيع أن نقدر أى بدء كان لعهد بنى أمية فى الخطابة السياسية بوجه خاص .

أثر النزاع فى الشعر :

أما هذا النزاع فى السياسة ، فكان مقدمة كذلك للنزاع الكبير الذى اشتد بين الشعراء فى زمن بنى أمية لاختلاف مذاهبهم ، وأدى بهم إلى الهجاء المقذع الذى تشهده بين بعضهم وبعض ، وأدى بهم إلى الدخول فى سياسة الأمة لتأييد حزب على حزب ، أو لهدم حزب ، أو تجريح جماعة مخالفة ، كشعراء الخلافة ، والخوارج ، والشيعة ، وآل الزبير .

ونود أن نشير هنا إلى أن هذا الشعر الحزبى الذى قوى واشتد فى عصر بنى أمية ، قد بدأ هنا ، فى عهد على ومعاوية ، وبدأ بين العراق والشام ، فان الشعر ذو منزلة معروفة عند العرب ، وكان لأهل الشام شاعرهم فى هذا

الخلاف ، ولأهل العراق شاعرهم فيه أيضاً ، وكانت للشعر مساعدة أو مشاركة فى هذا الخلاف ، وإن كانت قليلة ، وكان القديم منه مدداً للخطباء والكتاب من الحزبين . وكفى أن نذكر أثره فى ثبات معاوية ليلة الهرير بصفين[1] وقد أوشك أن يفر ، فما منعه من الفرار إلا أبيات ابن الأطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمدَ بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المُشيح[2]
وقولى كلما جشأت وجاشت[3] ... مكانَك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعدُ عن عرض صحيح

فانظر كيف أثر الشعر فى نفسه ! وكيف حمله على الثبات ! ولعله لو فر فى تلك الليلة لتغير التاريخ .

وقيل إنه كتب إلى سيدنا على أبيات كعب بن جعيل من تغلب ، لما دعاه إلى المبايعة : وهذه هى الأبيات :

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق له كارهونا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا على إمام لنـــا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا

فلما قرأ تلك الأبيات دعا شاعر العراق — المسمى النجاشى — أن يجيب ، فقال :

دَعنّ معاوىَ ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا

---

(١) ليلة الهرير من الليالي التى دارت فيها معارك شديدة بين جند على ، وجند معاوية وكان النصر يوشك أن يتم فيها لجند على بقيادة الاشتر النخعى ، وفي صبح تلك الليلة رفع أصحاب معاوية المصاحف ، ودعوا أهل العراق إلى كتاب الله ، فانخدع بها بعض أهل العراق ، وأرغموا عليا على إيقاف القتال . وأن يكون أبو موسى الاشعرى نائبا عنهم . ثم خرجوا عليه بعد التحكيم فقاتلهم ، ولكنهم استمروا من ذلك العهد يخرجون على الخلفاء ، وسموا الخوارج .

(٢) الحذر المانع لما وراء ظهره .

(٣) جشأت وجاشت معناهما واحد . وهو : ثارت من حزن أو فزع .

أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القوم ملك العراق فقدما رضينا الذى تكرهونا

وفى هذا الشعر من المعانى ما تراه فى الخطابة التى أشرنا اليها سابقاً ، ولا شك أن الشاعر الذى يقحم نفسه فى هذا الميدان يخضع للطابع العام الذى يطبع حزبه ؛ وإذا كان كثير من شعر ذلك العصر وخطابته قدضاع ، وبقى أقله ، ففى هذا القليل مايقنع العقل بأنه كان للتاريخ آثاره العظيمة فى توجيه الأدب ، والسيطرة عليه إلى مدى بعيد ، كما كان للأدب نواحيه المؤثرة فى التاريخ ، وذلك واضح من شعر ابن الاطنابة الذى ثبت قدم معاوية لما أوشك أن يفر .

ولعل هذه الخصومة بين حزبين قويين قد حملت بعض الشعراء على أن يضعوا شعراً لتأييد هذا الجانب أو ذاك ، كما نسى كثير مما قيل فى هذا الخلاف . وأكثر ماكان شعر الجانب العراقى من صنع الشيعة بعد ، أما الوضاع المحترفون فكانوا يضعون للجانبين ولكن التحقيق لم يكشف عن كل ماصح ، أو كل ماوضع . وإذا ظهر فى بعض هذا الشعر أثر الضعف أو التكلف ، فليس من الحتم أن يكون كل شاعر مجيداً ، خصوصاً أن هذا الشعر الذى نراه فى كتب التاريخ حول هذه الخلافات لم ينسب لشعراء مشهورين.

ثم كانت مسألة التحكيم ، وما تبعها من ظهور الخوارج ، فقد أوشك معاوية أن ينهزم فى صفين ، فأشار عمرو بن العاص بأن يرفع جنود الشام مامعهم من مصاحف [1] على رءوس السيوف أو الرماح ، وأفهموا أهل العراق أنهم رفعوها ليحتكموا إلى كتاب الله ، وأوضح على لأصحابه غاية معاوية وأصحابه ، وأنهم يريدون الكيد له ؛ خصوصاً فى هذا الوقت الذى كان فيه جيشه منتصراً صبح ليلة الهرير ، فأبوا إلا الهدنة ونزل على كارها

(١) يقول المسعودى فى الكلام عن واقعة صفين « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف » وذلك من الشام وحدها ، ولم يكن بين هذه الواقعة و بين كتابة مصحف عثمان إلا سبع سنين . ومن هذا نرى عناية المسلمين بكتابة المصاحف .

عند رأيهم . واجتمع الحكمان — أبو موسى الأشعرى من جانب على ، وعمرو بن العاص من جانب معاوية — وانتهى الأمر بكتابة عقد التحكيم ، وانتهت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ .

نتائج معركة صفين

عاد معاوية بعدها بجنده إلى دمشق ، وعاد على إلى الكوفة بجزء من جنده ، أما البقية فقد أبت العودة معه ، ورفضت التحكيم ، وعدت حكم الرجال فى كتاب الله كفراً كما قالوا ، وأتوا «حروراء» قرب الكوفة ، نزلها منهم اثنى عشر ألفاً ، ونادى مناديهم أن أمير القتال شبث بن ربعى التميمى ، وكثر الجدال بينهم وبين سيدنا على ، أو رسله إليهم ، كابن عباس رضى الله عنهما . وكان الجدل بينهم أشبه بالمناظرات فى عهد العباسيين ، فهو جدل حول مسألة دينية دقيقة ، والمغالطة فيه ظاهرة من جانبهم ، والحجة واضحة من جانب سيدنا على ، والقرآن يؤيده ، وأدلته منه قوية ، ولكن تعصب القوم عليه ، فوادعهم زمنا .

ثم اجتمع الحكمان . ولم يصلا إلى نتيجة حاسمة يرضى بها الطرفان ، وأراد على قتال معاوية ، لكنه لم يستطع ، بسبب هؤلاء الخوارج الذين فارقوه واستحلوا الحرام وسفكوا الدماء ، وحكموا بكفره ؛ فرأى أن يبدأ بهم ، فالتقى بهم فى «النهروان» ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ولكن جنده تخاذلوا ، وتسللوا من معسكره إلى بيوتهم وأمصارهم ، واستطاع معاوية أن يستولى على مصر وينتقم من عاملها محمد بن أبى بكر ، ويرسل سرايا للاغارة على قرى العراق ، وعلى لا يجد حيلة فى جمع هؤلاء المتفرقين من حوله ، والخوارج لا يكفون عن التشهير به لقبوله التحكيم ، ثم انتهى الأمر بقتله على يد واحد منهم ، هو عبدالرحمن بن ملجم المرادى ، فرحمه الله رحمة واسعة .

هذه الفتنة العظيمة فرقت جموع المسلمين ، وذهبت بكثير من أعيانهم

وسادتهم ، وظلت هذه الفرق طول عهد بنى أمية تتنافس وتقتتل ؛ وكان الخوارج هم الذين أرهقوا الدولة من أمرها عسرا . أما الشيعة فكانت ثوراتهم قصيرة الأجل لاتلبث أن تنتهى بقتل شريف منهم كالحسين رضوان الله عليه ، أو بعض ذريته . كزيد بن على زين العابدين بن الحسين (١)

كان الأدب العربى فى ذلك العهد كله صورة من هذا النزاع ، وصدى لهذه المذاهب المختلفة ، وامتازت الخطابة بظهورها وقوتها . وإن خطب سيدنا على فى ذلك العهد تفيض بالايمان بالحق ، والتذكير بالله ، والغيظ من خروج الخارجين ، ومن صلابة الأعداء ، وخذلان الجنود له . وفيها من الخطب الخالدة ماتمتلىء به كتب التاريخ والأدب .

أما الحزبان الآخران فلم يقصرا فى استخدام سلاح البيان الذى يقابل الحجة بالحجة ، والذى يلعب بالأهواء والعقول . وإن خطب معاوية وعمرو ابن العاص وأصحابهما لتشهد بذلك .

ثم بويع الحسن بن على رضوان الله عليه بعد مقتل أبيه سنة ٤٠ هـ ، فولى الخلافة ستة أشهر ثم نزل عنها لمعاوية فى عام « الجماعة » سنة ٤١ هـ فمهد بذلك لاجتماع أمر المسلمين على خليفة واحد هو معاوية . وبدأت به دولة بنى أمية ، فكان شأنها فى تطور الأدب عظيما ، وكانت سياستها هى التى تحركه فى كل نواحيه تقريباً ، لايخرج عن سلطانها إلا الخوارج ، أما بقية الأدب الأموى فيمكن رده من قريب أو بعيـــد إلى سياسة الأمويين وأشخاص خلفائهم ، كما سنفصله فيما بعد .

---

(١) قتل الحسين فى عاشوراء سنة ٦١ هـ ، فى خلافة يزيد بن معاوية ، وقتل حفيده زيد سنة ١٣٠ هـ فى خلافة هشام

أثر العظماء فى الناس

سيادة وتقليد

نشاهد فى الجماعات من حولنا ، ونسمع فى تاريخ من قبلنا ، أن بعض الناس تسمو بهم مواهبهم الجسمية ، أو العقلية ، أو الفنية ، أو الخلقية ، أو الروحية ، على غيرهم من أبناء قومهم ، أو غير قومهم فى عصرهم . وقد تسمو بهم هذه المواهب على الناس فى كل العصور ، فيعترف لهم بالتقدم والامتياز ، وينظر اليهم من معهم ومن بعدهم نظرة التقدير والإكبار . وقد تتحول هذه النظرة إلى رغبة فى الوصول إلى مستوى هؤلاء الممتازين ، بتقليدهم فيما امتازوا به ، واقتفاء آثارهم فيما سبقوا غيرهم فيه ، وكثيرا مايجاوز الخلف غاية السلف ، ويتحول المقلد إلى مجدد ، فيضاف اسمه وعمله إلى صفحات الخالدين ، وبهذا تتطور الحياة ، وترتقى الجماعات بفعل أولئك النابهين .

وإذا كان من طبيعة الاجتماع فى الجماعات الفطرية أن يكون للقوة الجسدية فضلها ، وأن ينظر الناس فى تلك الجماعات نظرة إكبار أوخوف ، إلى أقوياء الجسوم ، وأن يقدموهم فى الملمات ، وأن يسودوهم عليهم ؛ فإن هناك من المواهب الأخرى ما يسرع إلى منافسة القوة الجسدية، ويرتفع بأصحابه إلى مكانة السيادة والقيادة . ومن ذلك قوة البيان . وحسن التدبير .

وترى عامة الناس ، فى كل الأحوال، تبعا لمن يرون فيه فضلا من عقل أو خلق أو بيان ، أو امتيازا فى قوة أو غنى أو جاه أوعصبية ، يسيرون على نهجهم ، ويقلدونهم ماأمكنهم التقليد ؛ وتنطبع الحياة بطابع أولئك الممتازين إلى حد بعيد .

وقد يتقبل الناس طائعين، سيادة أولئك الممتازين عليهم ، ويعترفون لهم مختارين بما حباهم الله من بسطة فى العلم أو فى الجسم ، أو طلاقة فى اللسان ،

أو حصافة فى الرأى ، أو إحسان فى السياسة ، أو بصر بعواقب الأمور . وقد يفرض أولئك الممتازون أنفسهم فرضا على الجماعات التى يعيشون فيها ، وينجحون فى أن يكون لهم السلطان والأمر المطاع ، ويوجهون الحياة فى السياسة أو الفنون أو العلوم أو الاقتصاد كما يشتهون .

مصدر نبوغ الأدباء

وكان رجال البيان والفنون من الذين تعترف لهم الجماعات بالامتياز والتفوق فى كل العصور ، ونسبوا نبوغهم ومقدرتهم فى القديم إلى قوى أعلى من قوى البشر ، توحى إليهم زخرف القول شعرا ونثرا ، وتلهمهم بديع الفنون من حيث لا يشعرون : اعتقد اليونان والرومان ذلك ، فنسبوا شعر شعرائهم ، وفنون عباقرة الفن عندهم إلى قوى أعلى من البشر ، سموها إلاهات الشعر ، أو ربات الفنون . واعتقد العرب مثل اعتقاد اليونان ، فقالوا إن الشياطين توحى إلى الشعراء بأشعارهم ، ولولاها لما أحسنوا قولا (١)

وكان من أثر هذه العقيدة ، مضافا إليها ماكان للشعراء من فضل على قومهم فى الجاهلية ؛ أن عظمت منزلة أولئك الشعراء ، وكان نبوغ الشاعر منهم فضلا من الله على قومه ، يهنئون به ، ويقيمون من أجله ولائم الفرح والسرور .

فلما جاء الاسلام ، وتغيرت نظرته إلى الأدب ، تقدمت الخطابة على الشعر ، وأصبحت من عمل الخلفاء والولاة والقواد ، ورسماً من رسوم الدين ؛ فشرف قدرها بشرف القائمين بها ، وأصبح تأثيرها مضاعفاً ، يعتمد على شيء أكثر من البيان القوى : يعتمد على الموضوع النبيل ، واللسان القويم ، والمركز الممتاز الذى يتمتع به الخطيب .

---

(١) كتب المؤلف بحثا طويلا عن آلهة الشعر وشياطين الشعراء ، نشر ملخصه فى مجلة الثقافة

قيادة الأمويين للأدب :

ملك بنو أمية أمر المسلمين ، وأصبح فى أيديهم السلطان ، وجمعوا إليه الفصاحة القرشية ، والذوق الأدبى المهذب ، ودراسة القرآن ، ورواية الحديث ، ومأثور آداب الجاهلية وأخبارها ، وعرفوا أهواء النفوس ، وقدروا فضل الأدب ، خطابته وشعره ، فى تأييد ملكهم . فحاولوا ما استطاعوا أن يكونوا عماد الحركة الأدبية فى دولتهم ، وأن يكون زمامها بأيديهم ، وأن يكون سلطانهم فى الأدب كسلطانهم فى السياسة ، يجرى كل منهما فى فلك واحد ، هو خدمة الخلافة وتأييد الخلفاء .

كان حكم بنى أمية حكما مطلقاً ، لاسلطان لأحد فيه على الخليفة إلا سلطان الضمير ، وكان هذا الضمير متأثراً بالدين ، لكن كان تفسيرهم للدين تفسيراً يخالفهم فيه بعض الكبار من المسلمين . ولانرى واحدا منهم أخذ الخلافة بمشورة المسلمين ورضاهم حقاً إلا عمر بن عبد العزيز ، وأما غيره فكان يأخذها بمغالبة كمعاوية ومروان بن الحكم ، وبعضهم كان يرثها عن خليفة قبله ، بوصية منه أو عهد بها إليه . وعلى الناس السمع والطاعة والنزول على رغبة من أوصى أو عهد .

لهذا كان مركزهم فى الامة يحمل الناس على أن ينظروا اليهم نظرهم إلى كل قوى صاحب سلطان ، فى يده خزائن الارض ، وتحت سيطرته جيوش دولة . إنهم كانوا يستطيعون أن يضروا وينفعوا ، فطمع الناس فيما عندهم من ثواب ورهبوا مايسلطون من عقاب ، فكثر شعراؤهم ، طمعا فى عاجل الثواب ، وهرع إليهم أعداؤهم من الشعراء ، خوفا من فتكات سيوفهم ، وظلمات سجونهم ، أو أملا فى عفوهم وخيرهم .

أما أدبهم هم فقد أعدوا أنفسهم له إعدادا ، فإنهم أدركوا حاجتهم إلى الخطابة ، وعرفوا ماتحتاج إليه من فصاحة لسان ، وثبات جنان ، ورواية أشعار ، ودراسة أخبار ، مع ماتتجمل به من أساليب القرآن ، وماتزدان به من مأثور الحديث ، وما يملك قلوب السامعين من ترغيب أو ترهيب ، وماينفع الناس

من وعد أو وعيد ، فأحاطوا بكل ذلك خبراً ، وخلفوا من الخطابة مايسمو بهم على أشهر الخطباء فى أزهى العصور اليونانية والرومانية ، مثل ديموستين وقيصر وشيشرون .

وكان إكبار الناس لادبهم مساويا لعلو هذا الادب ، فخطبهم تسير فى الآفاق ، والحكمة من أفواههم مضرب الامثال ، وأذواقهم المهذبة التى غذاها العلم والثقافة العربية ، كانت عاملا من عوامل التوجيه الادبى ، فكانوا يرشدون الشعراء - ويوجهون المادحين منهم خاصة - إلى الذى كان ينبغى أن يقولوا . كما كان استشهادهم بالشعر ، وروايتهم له ، من أظهر ما أثر عن مجالسهم الادبية . وأستاذهم فى ذلك عبد الملك بن مروان ، فلا عجب أن يكونوا قادة فى الادب كما كانوا قادة فى السياسة ، وأن يقتدى بهم الولاة ورجال الدولة .

وقد رأينا فى عصرنا هذا من كان يعجب بعظيم من الخطباء فيقلده ويحكم هذا التقليد ، من ذلك أنه كان لسعد زغلول مقلدون من الشباب ، يقلدونه فى الصوت ، وفى التأنى الذى فرضته عليه الشيخوخة ، وفى مشيته إلى المنبر ، وفى إشاراته واهتزازه ، بل إن هؤلاء المقلدين تكلفوا عيوبه ، فكان سعد ينطق القاف « كافا » ، وكذلك كانوا يفعلون .

وإذا قسنا الغائب على الحاضر استطعنا أن ندرك أن هؤلاء الخلفاء الفصحاء ، كانوا أساتذة مدارس أدبية ، تأثرت بهم كما تأثر بعضهم ببعض ، وكانوا القوة المحركة للأدب يديرونه حول سياستهم مدحا لها ودفاعا عنها ، ويشغلون الناس بالتهاجى والعصبيات ويغضون على إقذاع الشعراء وخمرياتهم . ويقربون قوما منهم ، ويبعدون آخرين ، مادامت فى ذلك فائدة للخلافة .

على أن من الادب فى عصرهم مااستعصى عليهم توجيهه ، لبعده عن محيطهم ، كالغزل العفيف ، وشعر الوصف البدوى للناقة والحمر الوحشية وغيرها ، أو استعصى لمعارضته لسلطانهم ، وإيمانه بمبدإ غير مبدئهم ، وأعنى به شعر

الخوارج ، وشعر الشيعة ، وقد ثبت النوع الاول فى مخالفته ، ولم يمل به إغراء ولا وعيد ؛ ومال كثير من شعراء الهاشميين وآل الزبير ، مثل الكميت وابن قيس الرقيات، أمام هذا الإغراء أو الوعيد .

وأشهر خلفاء بنى أمية الذين لهم أثر ظاهر فى التطور الادبى وتوجيه الادب هم : معاويه ، وعبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام ابن عبد الملك ، والوليد بن يزيد .

وكان لبعض ولاتهم مثل هذا الاثر : كزياد ، والحجاج ، وخالدالقسرى، وعبد العزيز وبشر ابنى مروان .

ولاتكاد تسمع حديثاً عن الادب الاموى إلا وجدت لواحد من هؤلاء فيه ذكراً وأثراً . وسوف نحاول بيان كل ذلك فى الصفحات التالية إن شاء الله .

معاوية بن أبي سفيان

أشرنا من قبل إلى ما كان بينه وبين سيدنا علي من نزاع بالبيان وبالسنان. ونعود هنا إلى الحديث عنه حديثا مستقلا، يعنى به أديباً خطيباً، ذا أثر فى توجيه الحركة الادبية فى عصره توجيها عاما. ونبدأ بالحديث عن شخصيته الادبية والعوامل التى قدمته فى تاريخ الأدب فنقول:

شرف أسرته:

لانزاع فى أن معاوية سيد من سادات قريش. ورث هذه السيادة عن آبائه فى الجاهلية والإسلام. وكانت الفصاحة مظهرا من مظاهر هذه السيادة وضرورة من ضروراتها. كان «أمية» جد أبيه الذى تنسب إليه الدولة، كثير المال والولد، فنافس عمه هاشما سيادة قريش، وكان جده حرب بن أمية قائد قريش كلها فى حرب الفجار (١) لمكانه سنا وشرفا وقد نسب إليه أنه هو الذى نقل الخط من الحيرة إلى مكة، فعرف فيها بعده، وتعلمه عنه ابنه أبو سفيان وعدد آخر (٢) فكان ذلك أكبر عون على تدوين القرآن وكتابة الرسائل فى عهده ﷺ، وأساساً لمظهر من أعظم مظاهر الحضارة ومقوماتها.

أبوه: أما أبوه فهو أبو سفيان الذى يحدثنا عنه التاريخ زعيما من زعماء المعارضة فى الاسلام. ورئيساً للبعثات التجارية التى كانت تخرج من مكة إلى الشام فى هيئة قوافل عظيمة، وأشهر ذلك ما كان فى أوائل الهجرة، وكان بعضها سبباً فى غزوة بدر، فقد جاء فى سيرة ابن هشام فى الحديث عن

---

(١) كانت حربا بين قريش وكنانة وبين قيس وذلك فى السنة الخامسة عشرة من عمر النبى صلى الله عليه وسلم، وقد اشترك فيها الرسول فكان يجهز النبل لأعمامه كى يرموا به أعداءهم.

(٢) وقيل إن الذى علم أهل مكة الخط هو بشر بن عبد الملك، أخو أكيدر صاحب دومة الجندل، تعلمه من الانبار، وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء أخت أبى سفيان، وعلم أهل مكة هذا الخط.

هذه الغزوة : « ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم . . . وكانت هذه القوافل تخرج مع عظيم استعداد وكبير حيطة ، تتقدمها الكشافة تتعرف ما فى الطريق ، والهداة يهدون السبيل ، والحراس يخفرون القافلة »

وروى ابن عباس [1] عن أبى سفيان بن حرب أنه ذهب إلى الشام فى تجارة بعد صلح الحديبية ، ودعى إلى مقابلة هرقل ليجيبه عن أسئلة تتعلق بالدعوة الإسلامية ، فذهب أبو سفيان ومعه أصحابه . فسألهم هرقل عن أقربهم قرابة من رسول الله ﷺ . فقالوا إنه أبو سفيان ، فقدمه وأجلس أصحابه من خلفه ، وقال : إنى سأسأله فإن كذب فردوا عليه . يقول أبو سفيان « فوالله لو كذبت ما ردوا على ، ولكنى كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك ، إن أنا كذبته ، أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه »

وكان لأبى سفيان منزلة فى قريش جعلته يقود جيوشها فى « أحد » للأخذ بثأر من قتلوا منها فى « بدر » وكان قائد الجيوش التى خرجت لغزو المدينة فى غزوة الخندق . ولما أسلم فى فتح مكة ظفر من رسول الله ﷺ بتقدير لم يظفر به غيره ، فقد جعل داره كالبيت الحرام من دخلها كان آمناً .

أمه : أما أمه هند بنت عتبة فلا يذكر شريفات النساء العرب إلا ذكرت.

وقد عرفت بموقفها يوم أن عرض عليها أبوها عتبة بن ربيعة أن يزوجها بعض من خطبوها — وكان لثقته بحزمها وحسن اختيارها قد جعل لها الخيار بين من يتقدمون لخطبتها - فجاءها ذات يوم فقال لها : « إنه قد خطبك رجلان من قومك ، ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك ، أما الأول ففى الشرف الصميم ، والحسب الكريم ، تخالين به هوجا [2] من غفلته ، وذلك إسجاح

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ص ٢٠٤

(٢) حمقا وطيشا

من شيمته [١] ؛ حسن الصحابة، سريع الإجابة ؛ إن تابعته تبعك ، وإن ملت كان معك ؛ تقضين عليه فى ماله ، وتكتفين برأيك عن مشورته . وأما الآخر: فنى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، بدر أرومته [٢] وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، إن اتبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توعر عليهم ، شديد الغيرة ، سريع الطّيرة [٣] صعب حجاب القبة ، إن حاج فغير منزور ، وإن نوزع فغير مقهور ، وقد بينت لك كليهما » . فقالت عن الأول : إنه مضياع لكريمته ، إن جاءته بولد أحمقت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت . إطو ذكر هذا عنى ، ولا تسمه لى . وأما الآخر : فبعل الحرة الكريمة ، إنى لأخلاق هذا لوامقة ، وإنى له لموافقة ؛ وإنى لآخذه بأدب البعل ، مع لزوم قبتى ، وقلة تلفتى ؛ وإن السليل بينى وبينه لحرى أن يكون المدافع عن حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبتها ، المحامى عن حقيقتها ، المثبت لأرومتها ؛ غير مواكل [٤] ولا زُمّيل [٥] عند صعصعة [٦] الحروب . قال : ذاك أبو سفيان بن حرب ، قالت : فزوجه » [٧]

هذا أحد أخبارها التى تشهد لها بالمحافظة على كرامتها ، وبعد نظرها ، واختيار من يحميها ، وإيثاره على الآخر السهل القياد ، الذى تقضى امرأته أمورها بدونه . ولم يحفل الرواة بذكر هذا الخبر إلا لشرف صاحبته ، وحسن تقديرها ، ونظرها فى عواقب الأمور .

أما الأمر الجدير بالذكر ، وله بالأدب صلة قوية ، فهو أشعارها ، وقد روى ابن هشام بعضاً منها فى رثاء من قتل من أهلها فى غزوة بدر [٨] كما روى لها شعراً فى التشفى بسيد الشهداء . حمزة بن عبد المطلب الذى قتل فى غزوة « أحد » .

---

(١) سهولة ورقة فى طبعه (٢) الارومة : الاصل (٣) الغضب
(٤) العاجز (٥) الجبان الضعيف (٦) اشتدادها حتى تفزع وتخيف
(٧) الامالى جـ ٢ ص ١٠٤

(٨) قتل منهم أبوها وأخوها وعمها . وروى لها ابن هشام جـ ٢ ص ٥١ و٥٢ أربع مقطوعات من الشعر فى الرثاء وعلق على كل من الثانية والثالثة بقوله : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لهند »

أما الأغانى فيروى أنه : « لما كانت وقعة بدر قتل فيها عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعه ، والوليد بن عتبة ، فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم ، وبلغها تسويم [١] الخنساء هودجها فى الموسم [٢] ومعاظمتها [٣] العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد ، وأخويها صخر ومعاوية ، وأنها جعلت تشهد الموسم وتبكيهم ، وقد سوّمت هودجها براية ، وأنها تقول : « أنا أعظم العرب مصيبة »، وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك ، فلما أصيبت هند بما أصيبت به ، وبلغها ذلك قالت : « أنا أعظم من الخنساء مصيبة » وأمرت بهودجها فسُوِّم براية ، وشهدت الموسم بعكاظ ، وكانت سوقا يجتمع فيها العرب [٤] فقالت : اقرنوا جملى بجمل الخنساء ، ففعلوا . فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء : من أنت ياأخية ؟ قالت ، أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ، وأخبرتها بقتل أبيها وأخيها وعمها ، وأنشدت كل منهما شعراً [٥]

وما أردنا بذكر هذا الحديث عن أبيه وأمه ، إلا أن ندل على أن البيئة الخاصة التى نشأ فيها كانت بيئة شرف وأدب ، فقد كانت الفصاحة من صفات الرياسة . وكانت حاجة أبى سفيان إلى هذه الخطابة شديدة فى المواقع ، وفى الاستعداد لها ، وفى مناقشة الآراء قبل المعارك وبعدها . وهو واحد من أشراف قريش الذين قال الله فيهم : « بل هم قوم خَصِمون [٦] » ، وجاء القرآن الكريم لإعجازهم ، فتحداهم من الناحية التى امتازوا فيها وهى الفصاحة . أما أمه فقد بينا موقفها من الخنساء ، ومعاظمتها لها فى سوق عامة تجتمع اليها الوفود من كل الجزيرة . وللخنساء ذكرها وشهرتها فى الأدب ، فلا يعاظمها

---

(١) تميزه بعلامة

(٢) موسم عكاظ ، قبيل موسم الحج

(٣) المعاظمة : المفاخرة فى المصائب

(٤) أشهر أسواق العرب فى الجاهلية ، وكانت تقام كل عام من أول ذى القعدة إلى العشرين منه ، يجتمعون فيها للمتاجرة ، ومناداة الاسرى ، كما كانت سوقا عامة للادب .

(٥) الاغانى جـ ٤ ص ٣٤

(٦) سورة الزخرف

إلا سيدة أديبة تثق من مقدرتها على منافسة الخنساء ، ومن هنا ورث معاوية الفصاحة .

بيئته : ـ أما البيئة العامة التى ربى فيها معاوية فهى بيئة مكة ، وسكانها هم قريش ، ولغتهم هى التى نزل بها القرآن ، وبلغ بها محمد صلى الله عليه وسلم دعوته ، وعارضه قومه بها شعرا وخطابة . وقد قوى هذا الأدب المعارض بعد الهجرة ، فى الوقت الذى كان فيه معاوية فى مقتبل الشباب، يسمع مايروى ويعى مايقال ، ويعرف مايتهاجى به المسلمون والمشركون . ولابد أنه كان يلقى غيره من شباب مكة وفتيانها ، فيروون أشعار المشركين خاصة ، أو يروون معها أشعار المسلمين أيضاً . كما كانوا يسمعون بالقرآن ، وخطب الرسول، ووفادات الخطباء والشعراء عليه . ولابد أنه كان يعرف مايدور فى دار الندوة (١) من آراء وتدبير يتعلق بهذه الخصومة بين قريش والرسول عليه الصلاة والسلام ، ويسمع من أبيه ـ على الأقل ـ حديث الخطب والكلمات التى كانت تلقى فى هذه المجالس ، كما كان يعلم أمر عكاظ وما يجرى فيها ، فى زمنه وقبل زمنه . وكان متصلا بتاريخ قومه ، عالما بأخبار العرب وأيامهم وأدبهم ، بحكم نشأته فى مكة . الى كانت تجبى إليها ثمرات كل شىء ، ومن ذلك ثمرات القرائح ، وآثار الشعراء والخطباء فى الجاهلية .

فى إسلامه : ـ أسلم معاوية فى فتح مكة ، وكان فى الثالثة والعشرين من عمره ، واتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم فكان من كتاب الوحى ؛ ثم قاد الجيوش لأبى بكر وعمر رضوان الله عليهما ، وولى الشام كلها فى عهد سيدنا عثمان . وكان بحكم منصبه هذا يكتب إلى الخلفاء ، ويخطب فى الجيوش ، ويشرف على معاهدات الصلح ، ويدبر أمور الشام التى يقوم بشأنها . وحاجته فى كل ذلك إلى البيان لاتنكر ، كحاجته إلى حسن السياسة والتدبير . وكثيرا

(١) دار أنشأها فى مكة قصى بن كلاب الجد الخامس للرسول ، وكانوا يتشاورون فيها كلما نزل بهم أمر عظيم ، وفيها دبروا مقتل الرسول . فحفظه الله . وأمره بالهجرة .

ما كان يتلقى من أبيه وأمه النصائح الرشيدة .

وظل فى ولاية الشام مرضيا عنه، يدبر أمورها بحزم وحسن سياسة، ويملك قلوب الناس بحلمه ومعروفه ، حتى قتل عثمان رحمه الله ، فاستطاع بدهائه ومرونته السياسية ، أن يجمع حوله كثيراً من رجالات قريش والعرب . وأن يرمى أهل العراق بجند الشام ، وأن يثبت فى معارضته لسيدنا على كرم الله وجهه . وبذل كل جهده حتى أفسد الأمور عليه : فى العراق بمسألة التحكيم ورفع المصاحف فى صفين ، وفى مصر بإفساد ما بين جندها وقوادها وبين أهلها ، وقد نسب إليه أنه كاتب قيس بن سعد عبادة واليها من قبل سيدنا على ، وأشاع بين أهل الشام أن قيسا يواليه ، فعلم بذلك سيدنا على فشك فى قيس وعزله من مصر .

كما حاول أن يستميل إليه زياد بن أبيه ، وكان من خير أعوان سيدنا على فلما علم بذلك سيدنا على كتب إلى زياد :

« إنى وليتك ماوليتك وأنا أراك له أهلا ، وقد كانت من أبى سفيان فلتة من أمانى الباطل وكذب النفس ، لا توجب له ميراثاً ، ولا تحل له نسباً وإن معاويه يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، فاحذر ثم احذر والسلام » :

وظل معاوية على سياسته فى تقريب أعيان الدولة حتى استلحق زيادا بأبى سفيان ، وقد قال يزيد بن مفرغ الحميرى من شعراء العراق : ينكر عليه ذلك .

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مُغلغلة من الرجل اليمانى (١)
أتغضب أن يقال أبوك عف ... وترضى أن يقال أبوك زانى!
فأشهد أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان (٢)
واشهد أنها ولدت زيادا ... وصخر من سُمية غير دانى

(١) رسالة مغلغلة : أى محمولة من بلد لبلد .
(٢) الرحم : القرابة

والذى يعنينا من معاوية هنا هو أدبه أولا ، وقيادته للحركة الأدبية ثانياً .

أما أدب معاوية . فكان صورة من نفسه ومن عصره ، كان معاوية حليما نهازاً للفرص . سياسيا ترى ذلك واضحاً فى مواقفه ورسائله وخطبه : قدم الكوفة بعد مقتل على ، فقام النابغة الجعدى بين يديه فقال :

ألم تأت أهل المشرقين رسالتى   وأى نصيح لايبيت على عتب!
ملكتم فكان الشر آخر عهدكم   لئن لم تَدارِكم حلوم بنى حرب

وقد كان معاوية كتب إلى مروان بن الحكم فأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة عليه ، وعنده عبد الله بن عامر ومروان ، فأنشده :

مَن راكب يأتى ابن هند بحاجتى   على النأى ،والأنباء تنمى وتجلب
ويخبر عنى ماأقول ابن عامر   ونعم الفتى يأوى إليه المعصّب(١)
فإن تأخذوا أهلى ومالى بظنة   فإنى لحراب الرجال مجرب (٢)
صبور على مايكره المرء كله   سوى الظلم،إنى إن ظلمت سأغضب

فالتفت معاوية إلى مروان فقال . ماترى ؟ قال أرى ألاترد عليه شيئا . فقال ماأهون والله عليك أن ينجحر هذا فى غار ثم يقطع عرضى على ، ثم تأخذه العرب فترويه ! أما والله إن كنت لمن يرويه ! اردد عليه كل شىء أخذته منه .

هذه سياسة معاوية الواضحة ، الصادرة عن نفسه المتسامحة ، مع أديب لايخافه على الملك . وهذا تقديره أو خوفه من الأدب السائر ، يروى فيه عنه مذمة . إنه كان رجلا يقدر الأدب ، ويعرف فعله فى نفوس العرب ، فآثر مسالمة النابغة على نصيحة مروان بن الحكم .

وكانت له أرض تجاور أرضاً لابن الزبير ، فعدا عبيد معاوية على أرض ابن الزبير ، فكتب إليه :

(١) الفقير . (٢) الحراب : الذى يسلب الناس أموالهم .

« أما بعد ، فإنه يا معاوية ، إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى ، وإلا كان لى ولك شأن ! »

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه قال له : ماترى ؟ قال أرى أن تنفذ إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك ، يأتونك برأسه . فقال : يابنى ، عندى خير من ذلك ، على بدواة وقرطاس ، وكتب :

« وقفت على كتابك يابن حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (١) وساءنى والله ما ساءك ، والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك . وقد كتبت على نفسى رقيما (٢) بالأرض والعبيد ، وأشهدت علىّ فيه . ولتضف الأرض إلى أرضك ، والعبيد إلى عبيدك والسلام .

فكتب اليه ابن الزبير :

وقفت على كتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل ، والسلام ».

فلما وقف معاوية على كتاب عبدالله أعطاه ليزيد ، فلما قرأه أسفر وجهه . فقال : يابنى ، إذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الداء .

رسائله — : وكثير مما ترويه كتب الأدب من رسائل معاوية كان بينه وبين آل البيت ، كالحسن والحسين ، وابن عباس ، وعبدالله بن جعفر ابن أبى طالب ، رضوان الله عليهم أجمعين . والعجيب أن أكثر المعانى التى ترد فى هذه الرسائل متشابه ، ولكنك تقرأ ما تقرأ منها فترى سحر البيان يصرفك عن تشابه المعانى ، حتى يخيل اليك أنه لاشبه بين كتاب وآخر . وقد أشرنا إلى ما كان بينه وبين سيدنا على من نزاع استعان فيه كل منهما بالبيان ، وأشرنا إلى المعانى التى كان يدور حولها القول . والمعانى هنا شبيهة بتلك ، لا تجد فرقا كبيراً ، إلا أنه كان يحاول فى خلافته أن يستميل اليه أولئك

(١) الحوارى : ناصر الانبياء
(٢) كتابا

القوم ، وأن يذكرهم بفضله عليهم ، أو أن يعترف لهم بالفضل ، أو يخوفهم بطشه وحرمانه ، فإذا أغلظوا له القول فى الرد جعل ذلك وراء ظهره ، ولم يعبأ به . وكانت بينه وبين ولاته فى الأمصار رسائل بعضها عام وبعضها خاص ، ولكنها تمتاز كلها بأسلوب قوى ، وإيجاز قد يقتصر على الإشارة ، ويغنى عن كثير الكلام ، وقل أن يطيل . وكان يشتد ويتوعد ، أو يلين ويتودد ، بحسب الظروف . فقد كتب إلى زياد يدعوه إلى طاعته :

«من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن عبيد (١) ، أما بعد فإنك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النقمة ، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وإن الشجرة لتضرب بعرقها ، وتتفرع من أصلها — لا أم لك ! بل لا أباً لك ! — قد هلكت وأهلكت ، وظننت أنك تخرج من قبضتى ، ولا ينالك سلطانى ! هيهات ! ما كل ذى لب يصيب رأيه ، ولا كل ذى رأى ينصح فى مشورته ، أمس عبد واليوم أمير ! خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمية ! »

« وإذا أتاك كتابى هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الاجابة ، فانك إن تفعل ، فدمك حقنت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش (٢) ونلتك بأهون سعى . وأقسم قسما مبروراً ألا أوتى بك إلا فى زمارة (٣) تمشى حافياً ، من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك فى السوق وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه ، والسلام . »

فأغلظ زياد فى رده ، فلجأ معاوية إلى الدهاء وأرسل إليه كتاباً آخر مع المغيرة بن شعبة بدأه بقوله :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ، إلى زياد بن أبى سفيان » ثم أخذ يلومه على قطع الرحم وعقوق القرابه ، ثم يقول له : « حتى كأنك

---

(١) كان عبدا ، وكان زوجا لسمية لما ولدت زيادا .

(٢) بأقل قوة .

(٣) أى فى جماعة يزمرون بك فى مقدمك على ، تشهيراً بك .

لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأنى ! وشتان مابينى وبينك ! ، أطلب بدم ابن أبى العاص (١) وأنت تقاتلنى ، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء ، فكنت كتاركة بيضها بالعراء ، ومُلحِفة بيض أخرى جناحها (٢) وقد رأيت أن أعطف عليك ، ولا أؤاخذك بسوء سعيك ، وأن أصل رحمك وأبتغى الثواب فى أمرك .»

« فاعلم ، أبا المغيرة ، أنك لو خضت البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه ، لما ازددت منهم إلا بعدا ، فإن بنى عبد شمس أبغض إلى بنى هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح . فارجع - رحمك الله - إلى أصلك ، واتصل بقومك ، ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره . فقد أصبحت ضال النسب ، ولعمرى مافعل بك ذلك إلا اللجاج ، (٣) فدعه عنك ، فقد أصبحت على بينة من أمرك ، ووضوح من حجتك ، فإن أحببت جانبى ، ووثقت بى ، فإمرة بإمرة ، وإن كرهت جانبى ، ولم تثق بقولى ففعل جميل ، لا على ولا لى ، والسلام .»

هذه الرسالة من معاوية إلى زياد ، لما أراد ضمه إلى جانبه بعد موت سيدنا على ، وكان زياد عاملا له على خراسان فخاف معاوية أن ينضم بعده إلى الحسن ، فيكون قوة له ، فحاول أن يغريه كما حاول فى أيام سيدنا على ، ولقد كان معاوية كما قال عنه أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، « يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله » فقد ألح على زياد واستعان على ذلك بالمغيرة بن شعبة ، وكان داهية مثل معاوية وصديقا لزياد . والذى يعنينا من هذا كله هو أدب معاوية الذى يضرب على أوتار حساسة فى رسالته هذه وفى رسائله الأخرى إلى زياد : كان يعرف نقطة الضعف فيه ، وهى أنه مغمور النسب . ولكنه عظيم السياسة ، فأراد أن يرفع من نسبه باستلحاقه

---

(١) سيدنا عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية .

(٢) تهمل القريب ، وترعى الغريب .

(٣) التمادى والمبالغة .

بأبى سفيان ، وأن يعده الولاية ويقدمه فى الدولة ، فأكثر من معاتبته على قطع الرحم كأنه قد صار من بنى عبد شمس حقاً ، وأغراه ببنى هاشم كى ينفض يده من الحسن ، وكناه بأبى المغيرة بعد أن نسبه فى أول الرسالة إلى أبى سفيان ، وجره مع بنى عبد شمس ، وذكره بأن مابين الأسرتين من عداوة لن يقربه من بنى هاشم شيئا مهما فعل . ثم دعاه أن يعود إلى قومه ، وأن يرجع عن تماديه ، لينال إمرة بإمرة ، فإن لم يفعل فليكن محايدا .

لقد جرب فى الخطاب الأول الشدة والتهديد فما نفعا ، فعاد إلى الدهاء ، والسياسة ، واستغلال نواحى الضعف الإنسانى فى المكتوب إليه ، فهو يعرف أن زيادا لانسب له يرفع من شأنه ، ولعل هذه كانت تحز فى نفسه ، فاستغلها معاوية ليضمه إلى جانبه وينتفع به . وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن أدب معاوية صورة من نفسه ، فإنك لتجد هذه النفس واضحة فى هذه الرسالة أو هذا الموقف ، كما ترى فيها المهارة فى بث الاضطراب فى نفس المكتوب إليه . حتى يتركه فى حيرة من أمره .

وقد كانت سياسة معاوية أن يستعين بالسياسة ماأغنته هذه السياسة وألا يلجأ إلى السيف إلا آخرا . وأن يبذل ماله ، ويحتال حيله ، لتثبيت ملكه . وأن يغفر لأعدائه فلتات اللسان ، وألا يحول بينهم وبين التعبير بصراحة عما تكنه ضمائرهم مالم يحولوا بينه وبين ملكه .

الوفادة الأدبية :

وهذه كانت سياسته فى الوفادة الأدبية التى كانت تثور فيها الخصومات بين أنصاره ، وبين بنى هاشم ، وأنصار على . . ويعيدون فيها ذكر الماضى . وورد من ذلك الشىء الكثير فى وفادات من وفدن عليه من صاحبات على ، كسودة بنت عمارة ، وأم سنان بنت خيثمة ، وبكارة الهلالية ، وأم البراء بنت صفوان ، ودرامية الحجونية ، فإنه كان يعطى هؤلاء جوائز ، ويكتب إلى الولاة بقضاء حوائجهن ، بعد أن يذكر لهن مواقفهن من على ومنه ،

ولاينسى أن يذكرهن بسلطانه ومقدرته ، ليعظم عفوه عندهن .

وقد جاء خبر هذه الوفود ومادار فيها من حديث ، فى كتاب العقد الفريد فى « كتاب الجمانة فى الوفود » . ونذكر من ذلك وفادة بكارة الهلالية: روى ابن عبد ربه قال :

استأذنت بكارة الهلالية على معاوية بن أبى سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ـ وكانت امرأة قد أسنّت ، وعشى بصرها ، وضعفت قوتها ـ ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست : فرد عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت ياخالة ؟ فقالت : بخير ياأمير المؤمنين . قال غيّرك الدهر ! قالت : كذلك هو ذو غِيَر ، من عاش كبر ، ومن مات قُبِر . قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة ياأمير المؤمنين :

يازيد دونك فاحتفر من دارنا ... سيفا حساما فى التراب دفينا
قد كنت أذخره ليوم كريهة ... فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال مروان : هى والله القائلة ياأمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا ! ... هيهات! ذاك ـ وإن أراد ـ بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة ... أغراك عمرو للشقا وسعيد

قال سعيد بن العاص ، هى والله القائلة :

فالله أخر مدتى فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم للزمان خطيبهم ... بين الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكت القوم ، فقالت بكارة : نبحتنى كلابك ياأمير المؤمنين واعتورتنى ، فقصر محجنى ، وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، وأنا والله قائلة ماقالوا ، لاأدفع ذلك بتكذيب ، وما خفى عليك منى أكثر ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين . فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك ، اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردها إلى بلدها .

وكثير ما كانت تفد عليه الوفود من العراق وغيرها ، فيتبارى أهل البيان فى مدحه ، أو يذكرون سابق بلائهم فى خدمته أو يشكون إليه ظلم الولاة ، أو يطلبون قضاء ديونهم فيجيب كل طالب إلى ماطلب ، فيعود هؤلاء إلى قومهم يثنون عليه بما هو أهله ، ويشيعون فى الناس حلمه وعفوه وبره وعطاءه .

روى عن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان قال :

عقمت النساء أن يلدن مثل عمى ! شهدته يوما وقد قدمت عليه وفود العرب ، فقضى حوائجهم ، وأحسن جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :

« جزاكم الله يامعشر العرب عن قريش أفضل الجزاء ، بتقدمكم إياهم فى الحرب ، وتقديمكم لهم فى السلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم . أما والله لايؤثر عليكم غيركم منهم حازم كريم ، ولا يرغب عنكم منهم إلا عاجز لئيم » .

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية فى وفد العراق ، فقال معاوية :

« مرحبا بكم يا أهل العراق ، قدمتم أرض الله المقدسة ، منها المنشر ، وإليها المحشر ، قدمتم على خير أمير : يبر كبيركم ، ويرحم صغيركم ، ولو أن الناس كلهم ولدُ أبى سفيان لكانوا حلماء عقلاء » .

فأشار الناس إلى صعصعة فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال :

أما قولك يامعاوية : إنا قدمنا الأرض المقدسة ، فلعمرى ما الأرض تقدس الناسَ ، ولا يقدس الناسَ إلا أعمالهم ! وأما قولك : منها المنشر وإليها المحشر ، فلعمرى ماينفع قربها ولا يضر بُعدها مؤمنا ! وأما قولك لو أن الناس كلهم ولد أبى سفيان لكانوا حلماء عقلاء ، فقد ولدهم خير من أبى سفيان ، آدمُ صلوات الله عليه ، فمنهم الحليم والسفيه ، والعالم والجاهل (١)

(١) كتاب الجمانة فى الوفود : العقد الفريد ج ٢ .

ونريد هنا أن نحلل هذه المقالة التى ابتدأ بها معاوية ، لنرى ما كان فى نفسه ، ويريد أن يوحى به إلى أولئك العراقيين ، مما فهمه صعصعة ورد عليه: يريد تفضيل أهل الشام على العراق ، ليجزى كلا بما سبق منه فى طاعته ، ويريد الإشارة إلى أن الأوطان تشرف ساكنيها ، ويشرفون بها ، فرغب فى تشريف أهل الشام بذلك ثم ذكر أهل العراق بفضله فعلا ونسبا فذكر أنه خير أمير ، برا بالكبير ورحمة بالصغير ، وفى هذا تذكير لهم بواجب الطاعة ، ومقابلة الإحسان بمثله ، وإغراء بالولاء له عسى أن ينالوا من بره ورحمته . وأما هذه المبالغة التى تجعل الناس جميعا حلماء عقلاء ، لو كانوا من أولاد أبى سفيان ، ففيها معنى المبالغة فى حلم معاوية وعقله ، فهذا الذى كان يجعل الناس كذلك ، وهو أبوة أبى سفيان ، خص به معاوية وإخوته ، وفاز منه معاوية بأكبر نصيب .

لكن صعصعة رد عليه بما ينقض قوله ، مع إيجاز وإصابة ، قول وحضور جواب .

وكذلك كانت مجالس معاوية ، والوفادات عليه . كلها أدب ، وشحذ للعقول ، واختبار للبدائه . ومن المحاورات والأجوبة التى ذكرها العقد الفريد نرى مقدار ما استفاد الأدب منها : لقد كانت كلها قوية البيان ، قوية البرهان . وما كان يتخللها من مفاخرات ومنافرات يجعلها أشبه بمفاخرات عكاظ ومنافراتها ، مع حاجتها إلى سرعة الجواب وحضور البديهة ، والعلم بالأحساب والأنساب ، وتذكر المفاخر القديمة والحديثة . وأما علو أسلوبها ، وقوة بيانها فأمر مفهوم .

وإذا كانت هذه الوفادات قديمة فى العرب ، فقد كانت مجالس هذه الأجوبة والمحاورات من صنع معاوية . وتدبيره ، ولم يرو لنا قبلها مثل ماروى عنها فى عهده وفى مجالسه ، ومن وحيه .

الأدب فى البيعة ليزيد :

ويتمثل لنا توجيه معاوية للأدب وقيادته لزمامه فى ناحية أخرى ، هى رغبته فى المبايعة ليزيد بولاية العهد وهذه قد شغلت الخطباء والشعراء . ورجال الدولة زمناً ، كما شغل بها معاوية . وقد أعد للأمر كثيراً من العدد كان الأدب أعظمها شأنا . وقد روى فى أسباب هذه الرغبة روايات: منها أن المغيرة بن شعبة كان واليا على الكوفة لمعاوية ، وكبرت سنه وخاف أن يستبدل به ، فأراد أن يتقرب إليه فحدثه بهذه الفكرة ، وقال له : « ياأمير المؤمنين ، إن الانفس ليُغدى عليها ويراح ، ولست فى زمن أبى بكر وعمر ، فلو نصبت لنا عَلما من بعدك نصير إليه ، فإنى قد دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد » ، فقال: يا أبا محمد انصرف إلى عملك ، ورُم هذا الامر لابن أخيك .

وقيل إنه حدث يزيد بذلك قبل أن يحدث معاوية ، وزين له هذه البيعة ، فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فأحضره معاوية وسأله ، فقال : « قد رأيت ما كان من سفك الدماء ، والاختلاف بعد عثمان . وفى يزيد منك خلف ، فاعقد له ، فإن حدث لك حادث كان كهفا للناس ، وخلفا منك ، ولا تُسفك دماء . ولا تكون فتنة » . قال : ومن لى بذلك ؟ قال أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ؛ وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك . قال: فارجع إلى عملك ، وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك . وترى ونرى .

يروى بعض المؤرخين أن ذلك بدء الفكرة لهذه البيعة التى صادفت هوى فى نفس معاوية ، فاستعان على تأييدها بالرسائل والخطب والاشعار سنين عددا ، فإن المغيرة مات سنة خمسين ، والبيعة لم تتم إلا بعد موت زياد فى سنة ٥٣ (١) . وكان زياد فى حياته يشير على معاوية بالتؤدة ، فلما مات عزم على هذه الفكرة ، فكتب إلى أمير المدينة مروان بن الحكم يقول : « إنى قد كبرت سنى ، ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقد رأيت أن أخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً

(١) وبعض المؤرخين كالمسعودى يروى أنها لم تتم إلا فى سنة ٥٩ .

دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم، وأعلمنى بالذى يردون عليك ».
فقرأ كتابه على أهل المدينة وقال : « إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه ، ودق عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى فيدع الناس كالغنم لاراعى لها. وقد أحب أن يُعلِم علما ويقيم إماما »، فقالوا : « وفق الله أمير المؤمنين وسدده . ليفعل » فكتب بذلك إلى معاوية . فكتب إليه أن سَمِّ يزيد . فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد ، وخطبهم فحضهم على الطاعة ، وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنة أبى بكر الهادية المهدية ، فكادت تكون فتنة ، إذ قام عبد الرحمن بن أبى بكر فقال : « كذبت والله يامروان وكذب معاوية معك ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وبايع لرجل من بنى عَدِى رضى دينه وأمانته . واختاره لأمة محمد ﷺ . لايكون ذلك ! لاتحدثوا إعلينا سنة الروم : كلما مات هرقل قام مكانه هرقل . » فغضب مروان ، وتسابّا . وتكلم الحسين بن على، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس وكتب مروان إلى معاويه بذلك .

البيعة ليزيد فى الحجاز

قدم معاوية المدينة ، وأرسل إلى الحسين بن على وعبد الله بن عباس فحضرا ، فخطبهما فحمد الله وأثنى عليه ، وشهد أن لا إله الله ، وأن محمدا رسول الله ، ثم قال : « وقد كان من أمر يزيد ماسبقتم إليه وإلى تجويزه ، وقد علم الله ماأحاول به من أمر الرعية ، من سد الخلل ، ولم الصدع بولاية يزيد ... وفيكما فضل القرابة ، وحظوة العلم ، وكمال المروءة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ، ماأعيانى مثله عندكما وعند غيركما ، مع علمه بالسنة وقراءة القرآن ، والحلم الذى يرجح بالصُّم الصِّلاب ، وقد علمنا أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة ، قدم على الصديق والفاروق ، ومن دونهما من أكابر الصحابة ، وأوائل المهاجرين ، يوم غزوة ذات السلاسل (١) من لم يقارب

(١) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة يستنفر العرب إلى الشام فلما كان على ماء بأرض جذام يقال له «السلسل» خاف ،فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين ، فيهم

القوم ، ولم يعاندهم(١) برتبة ، فى قرابة موصولة ، ولاسنة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره ، وجمع بهم صلاتهم ، وحفظ عليهم فيئهم ، وقال ولم يقل معه. وفى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فمهلا بنى عبد المطلب ، فإنا وأنتم شعبا نفع وجد ، ومازلت أرجو الانصاف فى اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بفضل قولكما ، فرُدا على ذى رحم مستعتب (٢) مايحمد به البصيرة فى عتابكما . فتكلم الحسين رضوان الله عليه ، ينقض على معاوية حججه ، ويسفه رأيه فى تفضيل يزيد ، ويذكر عيوبه وهفوه ، ويذكر معاوية باليوم الآخر ، حتى فرغ من كلامه ، وتكلم ابن عباس فأيد كلام الحسين .

فلما انصرفا أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وخاطبهم فى شأن البيعة ليزيد : أما ابن عمر فقد أظهر استعداده للدخول فيما يدخل فيه الناس ، وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فقال له : « والله لوددنا أن نكلك إلى الله فيما جسرت عليه من أمر يزيد . والذى نفسى بيده لتجعلنها شورى ، أو لأعيدنها جذعة (٣) : ثم قام ليخرج ، فتعلق معاويه بطرف ردائه ثم قال : « على رسلك ، اللهم اكفنيه بما شئت ، لاتظهرن لأهل الشام فإنى أخشى عليك منهم » وأما ابن الزبير فقد أظهر الخلاف الصريح وأبى أن يستجيب لمعاوية ، وكثر كلامهما حتى قال له معاوية : « والله ماأراك إلا قاتلا نفسك . » ثم أمرهم بالانصراف .

واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لايخرج ، ثم خرج ، ونادى مناديه فى الناس أن يجتمعوا لأمر جامع ، فاجتمعوا فى المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر ، فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته للقرآن ،

أبو بكر وعمر وقال لأبى عبيدة حين وجهه : لاتختلفا : فلما قدم أبو عبيدة أبى عمرو إلا أن يكون رئيسا ، فسلم له أبو عبيدة . طاعة لرسول الله .

(١) يمتز عليهم

(٢) يطلب رضاكما

(٣) قوية : يريد الفتنة والثورة

ثم أخبرهم أن الناس جميعاً قد بايعوا وسلموا ، وأخر أهل المدينة بيعتهم . وأنه واثق من أنهم سيبايعون لأنهم جماعته وأصله ، ومن لايخافهم عليه ، وأن الذين أبوا البيعة كان جديراً بهم أن يسبقوا ، وأنه لايرى أحداً خيراً للمسلمين من يزيد .

فقام الحسين فقال : « والله لقد تركت من هوخير منه أبا وأما ونفسا ! فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أماقولك خير منه أما ، فلعمرى أمك خير من أمه . ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش (٤) لكان نساء قريش أفضلهن ، فكيف وهى ابنة رسول الله ﷺ ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ! فأمك لعمر الله خير من أمه . وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله فقضى لأبيه على أبيك » . فقال الحسين : حسبك جهلك ! آثرت العاجل على الآجل » . فقال معاوية : « وأما ماذكرت من أنك خير من يزيد نفسا ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك » فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيد شارب الخمر ، ومشترى اللهو ، خير منى ! » فقال معاوية : « مهلا عن شتم ابن عمك . فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك » .

ثم التفت معاوية إلى الناس فذكر أن رسول الله ﷺ مات ولم يستخلف ، « فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعة هدى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه . فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله ﷺ ، وصنع عمر مالم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظراً لهم بعين الانصاف . »

وهذه الروايات ترينا حرص معاوية على البيعة ليزيد ، وإلحاحه فى الثناء عليه ، كى يتقبل الناس بيعته بقبول حسن ، وتدلنا على تخوفه من كبار الصحابة

(٤) أم يزيد ليست من قريش وإنما هى ميسون بنت بحدل الكلبية

الذين سبق ذكرهم . وأنه كان يداريهم أحيانا ، ويغلظ القول لهم أحيانا . وأنه لجأ إلى دهائه وحلمه يستعين بهما على عناد أولئك الكرام ، فقد أراد أن يعظم خطأهم حينما ذكر لهم أن الناس جميعا بايعوا ولم يبق إلا أهل المدينة، وكان الأجدر بهم أن يكونوا أسرع الناس إلى بيعته . فلما قام إليه الحسين وذكر له أنه خير منه أما وأبا ونفسا سلم له بشرف الأمومة فقط ، ولكنه أراد أن يلزمه الحجة بصحة خلافته ، وأن قضاء الله كان إيثارا له على سيدنا علي ، إذ قال : « وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ففضى لأبيه على أبيك » . وكأنه يريد بهذا تفضيل نفسه على علي ، وأن أبا يزيد خير عند الله من أبي الحسين. فلما طعن في يزيد بدت لباقة معاوية التي أراد بها أن يستميل قلب الحسين ، فذكر له أنه إنما يشتم ابن عمه، والذي لو ذكر عنده بسوء لما أقره ويرمي بذلك إلى أن يزيد خير من الحسين نفسا . وأما قاله بعد ذلك عن الأدوار التي مرت بها الخلافة ، من الرسول ، إلى أبي بكر ، إلى عمر، إلى عثمان، فهو مقدمة يريد بها أن يبرر ماله من الحق في اختيار يزيد ، إذ أنه ليست هناك طريقة متبعة لاختيار الخليفة ، وإنما كان كل خليفة ينظر إلى ما فيه صالح المسلمين ، فيختار لهم خليفة بعده بالطريقة التي يراها خيرا لهم . وهو لم يفعل غير ذلك ، وقد أريد بهذه البيعة ألا يقع الناس في الاختلاف بعد موته .

وهذا المعنى الأخير دارت حوله خطب أكثر الوفود التي ذهبت إلى معاوية في شأن هذه البيعة ، وقد تقدم أن المغيرة بن شعبة هو الذي وضع أساس هذه الفكرة . وليس يعنينا هنا صوابها أو خطؤها ، فقد أيدها خطباء الوفود الموالية لمعاوية بالحجج الخطابية القوية ، كما أيدها معاوية في رسائله وخطبه العديدة ، وعارضها آخرون معارضة قوية ، ناقضين تلك الحجج الموالية بحجج قوية أيضا . والذي يعنينا هو ما نراه من هذا البيان المتدفق الذي يحاول به معاوية أن يبرر بيعته ليزيد ، والذي استعان به على جذب

الناس إلى رأيه . ولعل مركز معاوية وعطاءه ، وخوف الناس من سلطانه ، كانت سنداً قويا لهذا البيان القوى .

أما أمر هذه البيعة فمختلف فى تاريخه بدءا وانتهاء . وبعض هذه الروايات يقول إن معاوية قد عمل لذلك منذ عام الجماعة ، واستمر يدافع عنها ويدعو إليها إلى قبيل وفاته . ولم تنته بالرضا التام من جميع المسلمين ، وكانت سببا فى فتن عظيمة ، أضعفت أمر الأمة وفرقت أهواءها فى زمن يزيد وبعده .

لم ينته أمر البيعة ، ولا الخطب التى جرت بشأنها ، عند الحد الذى سبق فقد روى أن معاوية لما دنا من المدينة ، واستقبله أهلها وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن على ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، لم يحسن الترحيب بهم ، ثم أقام حتى جاء وقت الحجج ، فلقيه أولئك الكرام ، فأحسن الترحيب بهم ، وكناهم : ودخل عليه ابن عمر عندئذ فقال له : مرحبا بصاحب رسول الله ﷺ ، وابن الفاروق ، هاتوا لأبى عبد الرحمن دابة . وقال لابن أبى بكر : مرحبا بشيخ قريش ، وسيدها ، وابن الصديق ، هاتوا له دابة وقال لابن الزبير . مرحبا بابن حوارى رسول الله ﷺ ، وابن عمته ؛ هاتوا له دابة . وقال للحسين مرحبا بابن رسول الله ﷺ ، وسيد شباب المسلمين ، قربوا لأبى عبد الله دابة . ولم يكتف بهذا التكريم بل أحسن إليهم ، وشفعهم ، وأرسل إليهم الهدايا ظاهرة يراها الناس ، وحملهم معه إلى مكة .

ولما انقضى الحج أراد أن يلزمهم بالبيعة ليزيد كى لا يختلف عليه الناس بعدهم . فعهدوا إلى ابن الزبير أن يتكلم بلسانهم ، ثم دخلوا عليه فرحب بهم ، وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم . ويزيد أخوكم ، وابن عمكم . وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون . فسكتوا ، فقال أجيبونى . ثم أشار إلى ابن الزبير أن يتكلم فتكلم بما لا يرضى معاوية ، وأقره الآخرون على قوله ، فقال معاوية :

« إنى أتقدم اليكم ، وقد أعذر من أنذر ! إنى قائم فقائل مقالة ، فإياكم

أن تعترضوا على حتى أتمها ، فإن صدقت فعلى صدقى ، وإن كذبت فعلى كذبى ، وأقسم بالله أنّ رد على رجل منكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يبق إلا عليها ،

وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه . وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقى المنبر قريباً من الكعبة ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« قالوا إن حسينا وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا . »

فقال أهل الشام وما يعظم من أمر هؤلاء !؟ إيذن لنا فنضرب أعناقهم. لا نرضى حتى يبايعوا علانية . فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ، وأحلى دماءهم عندهم ! أنصتوا ، فلا أسمع هذه المقالة من أحد !

ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قربت رواحله فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دعيتم وأرضيتم بايعتم ! قالوا لم نفعل ، قالوا بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا خفنا القتل ، وكادكم بنا وكادنا بكم .

فى هذه الزيارة — أو الزيارات - التى قام بها معاوية للحجاز كى يأخذ البيعة ليزيد شغل الناس جميعاً بأمر هذه البيعة ، ومخالفة هؤلاء الصحابة لمعاوية ؛ وشغل بها الأدب أيضاً ، فدارت الخطب والأحاديث حول مخالفة المخالفين ، وتأييد المؤيدين ، وما بقى لنا منها إلا القليل ، ولكنه على قلته يشير إلى استعانة معاوية بدهائه ولباقته ، وإيثاره للسياسة على الدين. ولكنه كان فى فصاحته

وقصيده للحجج خطيباً ماهراً ، أثار حركة أدبية قوية فى الحجاز ، تدور كلها حول هذا الموضوع .

وقد روى أنه قدم لذلك بكتب أرسلها إلى سعيد بن العاص [١] كى يدعو الناس إلى بيعة يزيد ، وأن يخبره بمن يتخلف عن هذه البيعه ، فلما أخبره بالحالة ، وأن الذين أبطئوا كانوا من بنى هاشم ، وأن ابن الزبير جاهر بعداوته ، أرسل معاوية كتباً إلى ابن عباس وإلى الحسين وإلى عبد الله بن جعفر وإلى ابن الزبير ، وبعث بها إلى سعيد بن العاص ليسلمها إليهم ، وأرسل إليه هو كتابا يأمره فيه بما يجب أن يعامل به الحسين من الرفق ، لقرابته وعظيم حقه ، ويحذره ابن الزبير . ويخبره أنه قادم عليه إن شاء الله . أما هذه الكتب فكانت كما عهدنا فى معاوية ، تتراوح بين الشدة واللين ، وبين الوعد والوعيد ، وأما الذى يلفت النظر فيها فهو رسالته إلى ابن الزبير . ورد ابن الزبير عليه ؛ فقد كانتا شعراً من بحر واحد وقافية واحدة . ولعل ذلك يحمل بعض الناس على الشك فيهما ، وقد يقوى هذا الشك ضعف الشعر ، وتكلف القول فى هاتين الرسالتين [٢] وسنعلق عليهما فيما بعد .

الوفادة لتأييد البيعة

أما الوفود التى وفدت على معاوية لتأييد هذه البيعة ، فقد كانت بإيعاز منه إلى ولاته فى الأمصار ، وأكبر الظن أن هؤلاء الولاة تخيروا من يرسلون ، من الذين يعرفون موالاتهم للفكرة . ولم يرسلوا أحداً من أصحاب الرأى المستقبل النزيه إلا اضطراراً ، لعظمة هؤلاء فى قومهم ، فلم يكن بد من إرسالهم ، وكان فيمن وفد عليه محمد بن عمرو بن حزم من أعيان الأنصار ، فخلا به معاوية وقال له : ما ترى فى بيعة يزيد ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحد هو أحب إلى رشداً من نفسك سوى

(١) سبق أنه أرسل إلى مروان بن الحكم ، ولعله كان يكرر هذه الرسائل إلى ولاته على المدينة ، فلا تناقض بين الروايتين .

(٢) الرسالتان فى جمهرة رسائل العرب ج ٣ ص ٦٠ ، ٦١

نفسي ، وإن يزيد أصبح غنيا في المال ، وسطا في الحسب ، وإن الله سائل كل راع عن رعيته ، فاتق الله ، وانظر من تولى أمر أمة محمد »

فاحذ معاوية تبهر [١] حتى تنفس الصعداء [٢] ثم قال : « يا محمد إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك » ثم قال « إنه لم يبق إلا ابنى وأبناؤهم فابنى أحب إلى من أبنائهم ، اخرج عنى ! »

ثم دعا الضحاك بن قيس الفهرى ، وقال له : إذا جلست على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي ، فاستأذني للقيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى ، واذكر يزيد ، وقل فيه الذى يحق له من حسن الثناء عليه ، ثم ادعني إلى توليته من بعدي ، فإني قد رأيت وأجمعت على توليته . فأسأل الله في ذلك وفي غيره الخيرة [٣] وحسن القضاء »

ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وجماعة آخرين ، وأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوا إلى يزيد !

وجلس معاوية في أصحابه ، وأذن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته وهؤلاء النفر في المجلس قد قعدوا للكلام ـ قام الضحاك بن قيس فاستأذن ، فأذن له . فحمد الله وأثنى عليه ، ودعا لأمير المؤمنين بالصلاح ، وتحدث عن فضل الجماعة والألفة ، وأنه من الخير ألا يترك الناس سدى ، ثم قال : « وأنت يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله تعالى بك المتاع . وقد رأينا من دعة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحسن مذهبه ، وقصد سيرته ، ويمن نقيبته [٤] مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، والشبه بأمير المؤمنين ، في عقله وسياسته وشيمته المرضية ، مادعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والقنوع به في الولاية علينا . فليوله أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عهده ، وليجعله لنا ملجأ

---

(١) دهشة وعجب (٢) التنفس الطويل

(٣) أن يختار لنا الافضل

(٤) حسن عقله ونفسه ومشورته

ومفزعا بعده ، تأوى اليه إن كان كون [١] فإنه ليس أحد أحق بها منه».

وتكلم بقية أصحاب معاوية بمثل هذا المعنى ، وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق ، فحببهم فى كرم يزيد وحلمه ورشده . فلما فرغ عمرو . سأل معاوية الأحنف بن قيس أن يتكلم ، فتنصل من تأييد يزيد . وألقى التبعة على معاوية ، وقال له ، فاعرف من تسند اليه عهدك . ومن توليه الأمر بعدك . واعص رأى من يأمرك ، ولا يقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ؛ وأنت أنظر للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ؛ مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد مادام الحسن حيا .

وكاد الأحنف بهذا يفسد تدبير معاوية ، وتكلم الحاضرون بين مؤيد ومعارض ، حتى قام يزيد بن المقنع فقال: « أمير المؤمنين هذا ـ وأشار إلى إلى معاوية ، فإن هلك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ، فمن أبى فهذا ـ وأشار إلى السيف . فقال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

الشعر فى هذه البيعة :

على أن معاوية كان يخشى بنى أمية أيضا ، وأراد أن يستوثق من طاعتهم وأن يلزمهم هذه البيعة فى مجلسه ، فأوعز الى مسكين الدرامى أن يقول أبياتا فى معنى البيعة ليزيد ، وينشدها اذا اجتمع عنده أعيان بنى أمية . وأشهرهم عندئذ عبد الله بن عامر ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ـ وكان قد بلغه ما كرهه منهم ، وأخذ مسكين يتحين الفرصة حتى اتفق له ذلك فى مجلس حافل حضره وجوه بنى أمية ، ومعاوية جالس ، وابنه يزيد عن يمينه ، وبنو أمية حواليه ، وأشراف الناس فى مجلسه فمثل بين يديه وأنشأ يقول :

إن أدعَ مسكينا فإن ابن معشر ... من الناس أحمى عنهمو وأذود
إليك أمير المؤمنين رَحلتُها ... تثير القطا ليلا وهن هجود [٢]
وهاجرة [٣] ظلت كأن ظباءها ... إذا ما اتقتها بالقرون ـ سجود

(١) إن حدث أمر عظيم
(٢) نوع من الحمام البرى
(٣) نصف النهار عند اشتداد الحر

ثم قال :

ألاليت شعرى مايقول ابن عامر   ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلا فإنما   يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي [1] خلاه ربه   فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد صاعد   لكل أناس طائر وجدود
فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزل   وفود تساميها اليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عاليا   تشيد أطناب له وعمود
قدور ابن حرب كالجوابي وتحتها   أثاف كأمثال الرئال ركود [2]

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يامسكين ونستخير الله . فلم يتكلم أحد من بنى أمية إلا بالإقرار والموافقة . ووصله معاوية ووصله يزيد . [3]

اتفاق الوالد والولد :

ويخيل إلى أن التفاهم بين معاوية ويزيد على مثل هذه المسائل كان تاما ، فالرواة ينسبون إلى معاوية ـ أو إلى يزيد ـ تدبير هذا الشعر فى هذا المجلس. وينسبون إليه ـ أو إلى يزيد ـ التفكير فى البيعة بولاية العهد ليزيد. وينسبون إليه ـ أو إلى يزيد ـ تحريض الأخطل على هجاء الأنصار . ويقول الرواة إن التفاهم بينهما كان سائدا على أن يشفع يزيد للأخطل وأن يقبل معاوية شفاعته . وكان معاوية يستشيره فى أكثر شئون السياسة كى يهيئه للحكم من بعده على الطريقة التى يحبها . فكان معاوية أستاذاً خاصاً لابنه. وكانت مدرسته هى المدرسة التى تربى فيها .

لكن يزيد وإن اتفقت روحه مع روح أبيه فى الجملة . كان شاباً

---

(١) منبر دمشق ، وأما المنبر الشرقى فهو منبر البصرة ويقال إنه منبر خراسان. النقائض جـ ١ ص ١٠٨ طبعة لندن

(٢) الجوابى : الأحواض العظيمة ـ الاثافى : حجارة الكانون ـ الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام .

(٣) وقيل إن الذى أوعز إليه بذلك هو يزيد ليعلم ماعند شيوخ بنى أمية .

وكانت العصبية أغلب عليه من الدين ، وكانت الصراحة أغلب عليه من الدهاء والحلم

معاوية يسن سنة لمن بعده :

وقد اقتدى عبد الملك بن مروان بمعاوية في استخدام الشعر خاصة، والأدب عامة ، في الدعوة إلى بيعة ابنه الوليد ، وخلع أخيه عبد العزيز بن مروان ، فأوحى إلى نابغة بني شيبان أن يدعو إلى هذه السياسة ويحتج لها فقال شعراً منه:

لابنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطّرَح
داود عدل فاحكم بسنته ثم ابن حرب فإنهم نصحوا

ولكن عبد العزيز مات قبل عبد الملك ، فسقطت المعارضة في البيعة للوليد . وكذلك فعل الوليد بن عبد الملك حينما أراد خلع أخيه سليمان وإقامة ابنه عبد العزيز ولياً للعهد مكانه . فقد أعان الشعر على ذلك ، وإن أخفق: قال جرير :

إذا قيل أي الناس خير خليفةً أشارت إلى عبد العزيز الأصابع
رأوه أحق الناس كلهمو بها وماظلموا إن بايعوه وسارعوا

واستخدم الأدب عامة ، والشعر خاصة ، في هذه المبايعات وغيرها ، لفضله في تهيئة الأذهان ، والاحتجاج للفكرة ، والاستعانة بسحره وسلطانه على العقول والأهواء . وبلغ معاوية ويزيد غايتهما ، وانتهى الأمر بالمبايعة ليزيد ، واشترك الادب في هذه الفكرة السياسية اشتراكا قويا ، بتوجيه معاوية الذي كان له أثر عظيم في توجيه الادب عامة إلى مايريد .

معاوية والأنصار :

كان معاوية يذكر للأنصار معونتهم لسيدنا علي ، ووقوفهم بجانبه في النزاع بينهما . ومن أجل هذا سكت عن هجاء الأخطل للأنصار .

أما سبب هذا الهجاء فليس من عمل معاوية في ظاهره ، وإن كانت

سياسته العامة قد شجعت عليه . فقد روى أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يشبب برملة بنت معاوية (١) نكاية فى بنى أمية فقال فيها :

رمل ، هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى
إذ تقولين : عمرك الله ، هل شـــىء وإن جل سوف يسليك عنى ؟
أم هل اطمعت يابن حسان فى ذا ك كما قد أراك أطمعت منى ؟

وسمع معاوية بهذا التشبيب فغلبه حلمه السياسى ، وسمعه يزيد فثارت عصبيته وذهب إلى أبيه فقال فى سورة الشباب وحدته :

ياأمير المؤمنين ، ألا ترى إلى هذا العلج من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويشبب بنسائنا ! فقال ومن هو ؟ قال عبد الرحمن بن حسان . وأنشده ماقال . فقال : يايزيد ، ليست العقوبة من أحد أقبح منها من ذوى القدرة ، ولكن أمهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم ذكرنى . ففعل يزيد ، فلما دخلوا عليه قال : لابن حسان ألم يبلغنى أنك تشبب برملة بنت أمير المؤمنين ؟ قال: بلى ، ولو علمت أن أحدا أشرف لشعرى منها لذكرته . قال : وأين أنت عن أختها هند ؟ قال : وإن لها لأختا ؟ قال نعم . وإنما أراد معاوية أن يشبب بهما جميعاً فيعلم الناس أنه كاذب فى الأولى قياساً على الثانية .

لكن يزيد لم يرض بذلك ، فأرسل إلى كعب بن جعيل فقال : اهج الأنصار . فقال أرادّى أنت إلى الكفر ! ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر ، الأخطل ولعل كعبا دله على الأخطل لتوقعه أن يفتك به الأنصار إذا فعل ، وكان كعب يريد له الشر — فدعاه يزيد وقال له : اهج الأنصار . فقال أخاف من أمير المؤمنين . قال : لاتخف ، أنا لك بذلك . فهجاهم فقال :

وإذا نسبت ابن الفريعة (٢) خلته كالجحش بين حمارة وحمار

---

(١) ويروى أن التشبيب كان بأخت معاوية .

(٢) الفريعة : أم حسان بن ثابت فهى جدة هبد الرحمن بن حسان .

لعن الإله من اليهود عصابة ... بالجزع بين صليصل وصرار (١)
قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهمو من المصطار (٢)
خلوا المكارم لستمو من أهلها ... وخذوا مساحيكم (٣) بنى النجار
إن الفوارس يعرفون ظهوركم ... أولادَ كل مقبّح أكار (٤)
ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فدخل على معاوية ، فحسر عمامته عن رأسه وقال : « يامعاوية : أترى لؤماً » ؟ فقال : « بل أرى كرماً وخيراً ، فماذا » ؟ قال « زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائم الأنصار ! » . ثم أنشد :

معاويَ إلا تعطنا الحق تعترف ... لحَىّ الأزد (٥) مشدوداً عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأراقم (٦) ضلة ... وماذا الذى يجدى عليك الأراقم
فما لِىَ ثأر دون قطع لسانه ... فدونك من يرضيه عنك الدراهم

وهدد معاوية فى أبيات بعدها ، وذكره بيوم بدر ، وأشار إلى أنه ليس أهلا للخلافة ، وأن بنى هاشم أولى بها . فأمر معاوية بدفع الأخطل إليه لقطع لسانه كما أراد . فاستجار بيزيد فأجاره ، وشفع له عند أبيه ، وأرضوا النعمان فكف عنه .

ويروى أن التشبيب كان بأخت معاوية ، فدخل عليه يزيد وقال : ياأمير المؤمنين ، اقتل عبد الرحمن بن حسان . فقال أبوه : ولم ؟ قال : لأنه شبب بعمتى قال معاوية ليزيد وماذا قال ؟ فذكر له قول ابن حسان :

طال ليلى وبت كالمحزون ... ومللت الثواء فى جيرون

---

(١) صليصل وصرصار : موضعان قرب المدينة
(٢) المصطار : الخمر الصارعة لشاربها .
(٣) المساحى : جمع مسحاة وهى آلة يجرف بها الطين .
(٤) أكار : حراث
(٥) الازد من اليمن ويقصد بهم الانصار وأصلهم من هناك .
(٦) الاراقم من تغلب قبيلة الأخطل

فقال له معاوية : يابنى، وما علينا من طول ليله وحزنه! أبعده الله ! قال: إنه يقول :

فلذاك اغتربت بالشام حتى ظن أهلى مرجمات الظنون

فقال معاوية : يابنى ، وماعلينا من ظن أهله ! قال : إنه يقول :

هى زهراء مثل لؤلؤة الغـــواص ميزت من جوهر مكنون

قال معاوية : صدق يابنى ، هى هكذا . قال إنه يقول :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـــراء تمشى فى مرمر مسنون

قال معاوية : ولا كل هذا يابنى . ثم ضحك ، واستنشده بقية الأبيات فأنشده إياها . فقال معاوية : ليس يجب القتل فى هذا . والعقوبة دون القتل، ولـكنا نـكفه بالصلة(١) .

موقفه من التهاجى بين ابن حسان وابن الحكم :

وكانت بين قريش والأنصار فى المدينة أضغان ، يعبر عنها ما كان يثور بينهم أحياناً من خلاف . وكان التهاجى بين عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شاعر الأنصار ، وبين عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص شاعر قريش ، مظهراً من مظاهر هذا الخلاف ، وإن بدا شخصيا أحيانا . وتقاذفا وأفحشا ، وعلم معاوية بهذا الهجاء ، فـكتب إلى سعيد بن العاص ـ عامله على المدينة ـ أن يجلد كل واحـــد منهما مائة سوط ـ وكان ابن حسان صديقاً لسعيد ، ومامدح أحدا قط غيره ـ فـكره أن يضربه أو يضرب ابن عمه ، فأمسك عنهما . ثم ولى مروان بن الحكم فضرب ابن حسان مائة سوط ولم يضرب أخاه . فـكتب ابن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام ـ وكان كبيراً مكينا عند معاوية ـ :

ليت شعرى أغائب أنت بالشـــام ، خليلى أم راقد ، نعمان ؟

(١) الاغانى جـ ١٣ ص ١٤٣ . وهناك روايات أخرى لهذه الابيات ذكرها الكامل جـ ١ ص ٢٠٢ .

آية ما يكن ، فقد يرجع الغـــائب يوما ويوقظ الوسنان
إن عمرا وعامرا أبوينا وحراماً قدماً على العهد كانوا
أفهم مانعوك أم قلة الكتـــاب ، أم أنت عاتب غضبان ؟
أم جفاء ، أم أعوزتك القراطيـــس ، أمَ امرى به عليك هوان ؟
يوم أنبئت أن ساقى رُضت وأتتكم بذاك الركبان
ثم قالوا إن ابن عمك فى بلـــوى أمور أتى بهـــا الحدثان
فنسيت الأرحام والود والصحـــبة فيما أتت به الأزمان
إنما الرمح فاعلمنْ قنـــاة أو كبعض العيدان لولا السنان

فدخل النعمان على معاوية ، وأخبره أن مروان ضرب الأنصارى فقط فكتب إليه يأمره أن يضرب أخاه مائة . وبعث إلى ابن حسان بحلة . وكره مروان أن يقيم الحد كاملا ، ورجا الأنصار أن يشفعوا فى نصفه عند ابن حسان فرضى بذلك ؛ لكنه أخذ يشيع أن مروان ضربه ضرب الحر ؛ وضرب أخاه ضرب العبد . فشق ذلك على ابن الحكم ، فذهب إلى أخيه وطلب منه أن يضربه الخمسين الأخرى ففعل [(١)].

ولعل معاوية أمر بضربهما غضبا على إفحاشهما ، أو لكراهته لهما معا : أما كراهته لابن حسان فلأنه من الأنصار ، وأما لابن الحكم فلموقف آل الحكم من بيعة يزيد . إذ كان يظن منهم تهاونا ، فكان يخافهم ويخاف غيرهم ، مما أشرنا إليه فى قصة إنشاد مسكين الدارمى .

لكن هذا الهجاء غاظ يزيد وآلمه ، وكره تطاول ابن حسان على قريش عامة وبنى أمية خاصة . وقيل إن هذا هو السبب الذى حمله على دعوة كعب بن جعيل ، ثم الأخطل ، لهجاء الأنصار .

معاوية والعصبيات :

هذا الذى كان يبدو من يزيد ليس إلا صورة مما كان فى نفس أبيه ، وكان يظهره حينا ويخفيه حينا . وكأنما كان يريد بهذه السياسة أن يضرب

(١) الاغانى ج ٤ ص ٨١٧

القبائل بعضها ببعض فيشغلها عنه ، وأن يغيظ أهل العراق بالثناء على أهل الشام ، كى يزيد الفرقة بينهما . وأن يقرب بعضهم حينا ويبعده حينا . فأدى ذلك إلى انقسام هذه القبائل العربية فيما بينها ، وإلى تعصبها لماضيها وحاضرها. وقد شغل الشعر طول عهد بنى أمية بالحديث عن هذه العصبيات ، هجاء أو فخرا ، أو رواية لمآثر الجاهلية ، أو غير ذلك . وأظهر ما كانت هذه العصبية بين مضر واليمن ، أو بين قيس وكلب ، أو بين نزار وقحطان . روى أن عمرو بن العاص كان يحرض معاوية على الأنصار ، ويكره لهم هذا اللقب الذى شرفهم به القرآن والرسول ، ويطلب من معاوية أن يردهم إلى نسبهم القديم . وكان معاوية يميل إلى ذلك ، ومعاوية وعمرو من مضر ، والأنصار من اليمن فاجتمعوا يوماً على بابه وفيهم النعمان بن بشير ، واستأذنوا ، فأمر حاجبه — وكان اسمه سعداً — أن يخرج فيناديهم بأبناء « عمرو بن عامر » أو على أنهم من الأوس والخزرج ، فلما فعل الحاجب « كره ذلك النعمان بن بشير وقال :

ياسعد لا تعد الدعاء فما لنا	نسب نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنا	أثقل به نسبا على الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكمو	يوم القليب هم وقود النار

فلما رأى معاوية غضبه وانصرافه ساخطا ، بعث إليه وترضاه ، وقضى حوائجه وحوائج من كان معه من الأنصار ، سياسة ودهاء ، لا حبا وكرامة .

بل إنه كان يحمى عصبته من الحدود الشرعية ، فقد كان عبد الرحمن ابن أرطاة صاحب شراب ، وأراد عمرو بن سعيد بن العاص من أبيه ، وهو وال على المدينة ، أن يحده فقال أبوه : يابنى ، أضربه وهو حليف حرب ابن أمية ومعاوية خليفة بالشام ! فلما حج معاوية لقيه بمنى ، فقال : إيه ياسعيد ، أمرك أحمقك أن تضرب حليفى مائتى سوط ! أما والله لو جلدته سوطا لجلدتك سوطين ! فقال له سعيد : ولم ذاك ! أو لم تجلد أنت حليفك

---

(١) أغانى جـ ٢ ترجمة ابن ارطاة

عمر بن جبلة . فقال له معاوية : هولحى آ كاهولا أو كله ! وقد حد ابن أرطاة في الخمر في ولاية مروان . فكتب معاوية إلى مروان فأبطل الحد .

وكم من أشباه هذا في الأدب الأموى بعد معاوية !

بعض نتائج هذه السياسة :

فتح معاوية باب الشر بين القبائل بهذه السياسة ، وأصبح بأسهم بينهم شديدا في البلاد التي حلوها بسبب هذه العصبية ، حتى كانت سببا من أسباب ضعف الدولة وسقوطها . ولكنها أرهفت إحساس الشعراء ، وأثارت نفوسهم ، ودفعتهم دفعا إلى التفاخر بماضيهم ، والإكثار من الحديث عن هذا الماضي في أشعارهم . وديوان جرير مملوء بهذا ، كدواوين غيره من هذا العهد . وقد تجاوزوا الحد في الإقذاع . وهيئوا للعباسيين سبيل القذف والتفنن في الهجاء ، فانتهكوا الحرمات ، وقذفوا المحصنات ، ونبشوا القبور ، وصرحوا بالسوءات ، وكسب الأدب من ذلك على حساب الأخلاق والدين .

معاوية والشعر :

إن بيئة معاوية التي نشأ فيها ، والأحداث التي عاصرها ، واستعداده الخاص ، وحسه المرهف ، كانت كلها من العوامل التي جعلته يتذوق الشعر ، ويقدره ، ويؤمن بآثاره ، كما كان يقدر النثر الفني الجميل ويجيده . وقد أشرنا فيما سبق إلى أثر الشعر في نفسه ، وإلى فضله في إقامة ملكه ، وفي البيعة لابنه وقد روى أنه قال : « اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملني على الثبات إلا أبيات عمرو بن الأطنابة » وقد سبقت هذه الأبيات .

وقد خاف لسان النابغة الجعدى ، ورويناً قصة ذلك ، وأما روايته للأدب عامة ، وللشعر خاصة واستشهاده بمأثور القول ، واقتباسه من رفيع الأدب حديثها مستفيض في رسائله وخطبه الكثيرة . وقد نسب إليه شعر قليل

الرواة أبوا أن يحرموه هذه الميزة أيضاً ، ولا غرابة أن يكون معاوية أو غيره شاعرا ، لكن أين الأدلة التي تثبت للبحث والتحقيق ؟

روى أنه أرسل إلى سعيد بن العاص — وهو وال له على المدينة ، كتبا إلى الذين كان يخاف منافستهم ليزيد ، ويعلم كراهتهم له ، ورفضهم لبيعته . ومنهم ابن الزبير ، فكتب إليه رسالة من الشعر وهي :

رأيت كرام الناس إن كف عنهمو ... بحلم رأوا فضلا لمن قد تحلما
ولا سيما إن كان عفوا بقدرة ... فذلك أحرى أن يجل ويعظما
ولست بذى لؤم فتعذر بالذى ... أتاه من الأخلاق ما كان ألأما
ولكن غشا لست تعرف غيره ... وقد غش قبل اليوم إبليس آدما
فما غش إلا نفسه فى فعاله ... فأصبح ملعونا وقد كان مكرما
وإنى لأخشى أن أنالك بالذى ... أردت ، فيخزى الله من كان أظلما

وقد روى كذلك أنه قال شعرا يلوم به والده أبا سفيان لما هم بالإسلام فى فتح مكة ، وورد هذا الشعر فى حديث للحسن بن على — رضى الله عنهما [1] يعير به معاوية ، ويعيب موقفه من الإسلام . قال الحسن فيما قال : أتنسى يا معاوية الشعر الذى كتبته الى أبيك لما هم أن يسلم تنهاه عن ذلك :

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحنا ... بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا [2]
خالى وعمى وعم الأم ثالثهم ... وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنن الى أمر تكلفنا ... والراقصات [3] به فى مكة الخرقا [4]

(١) كان كلام الحسن ردا على عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ، وعتبة بن أبى سفيان ، والمغيرة بن شعبة . لطعنهم فيه وفى أبيه ، وتوبيخا لمعاوية على تمهاته لهم بالتطاول على هذا المقام الكريم ، مقام على كرم الله وجهه

(٢) جمع مزقة وهى القطعة من الثوب وغيره

(٣) الابل تخب فى سيرها كأنها ترقص ، ويحلف بها هنا لانه يقصد منها ما كان ذاهبا الى مكة للحج

(٤) والخرق : ضد التفرق والحمق

فالموت أهون من قول العداة:لقد ‍ حاد ابن حرب عن العُزى(١) لاذا فرقا

وينسب اليه شعر غير هذا . وهاك بعض القول فى القطعتين :

القطعة الأولى : الحق أنى فى حيرة من أمر هذا الشعر ، فالضعف والتكلف والرداءة كلها بادية فيه . ولكن من قال إن معاوية كان من فحول الشعراء ؟ ولكنه كان ذا ذوق أدبى ممتاز ، فكيف يرضى أن يكتب مثل هذا الشعر السخيف ، فى مثل هذا الموضوع العنيف ! أعتقد أنه لو كان يمزح لما نظم مثل هذا النظم ، وكيف يتوقع من ابن الزبير أن يستجيب لدعوة كهذه ، شعرها مهلهل شبيه بأشعار الصبيان المبتدئين ! ولماذا آثر أن تكون رسالته شعرا الى ابن الزبير وحده ، مع أنه كتب رسائل أخرى إلى ابن عباس ، والحسين بن على ، وعبد الله بن جعفر ، وكانت كلها نثرا ؟ وهل عهدنا فى مثل هذه الأحوال أن يكون التراسل شعراً ؟ أكبر ظنى أن هذا الشعر افتعله شعراء من المنزلة الثالثة أو الرابعة ، ولعله من عمل المؤرخين فى العصور المتأخرة ، ممن لا ذوق لهم فى هذا الفن ، وأراد هؤلاء أن يقووا هذا الشعر الضعيف ، فجعلوا رد ابن الزبير عليه شعرا أضعف منه ، وان معاوية ليستحى ، كما يستحى ابن الزبير ، أن يكون له شعر مثله .

القطعة الثانية : وهى التى لام فيها أباه إذ هم بالاسلام ، وحالها ليس خيراً من الأولى ، وقد لا يمنع من مثلها مانع . فالمسألة تتعلق بالدين ، وأبو سفيان كان يريد الخروج من دين معاوية وهند ، إلى دين الله ورسوله ، وينسى من قتل فى بدر وغيرها من أشراف قومه ، وينزل عن سيادته فى قريش ، ويصبح واحدا من عامة المسلمين لا من خواصهم . لكنى أشك فيها مع ذلك من الناحية الفنية ولنفس الأسباب التى أشرت اليها فى القطعة الأولى . وأضيف الى ذلك أن هذه القطعة وردت فى حديث الحسين ، ليطعن فى معاوية ، ويعيره بأنه لم يدخل الاسلام إلا ورغما ، وأنه كان يصد عن سبيل الله . وهذا نافع لمن يريد أن ينتفع به من الشيعة . ليبين أن معاوية كان

(١) العزى : صنم عظيم كانت تعبده غطفان

ينازع فى الخلافة نزاعا باطلا ، لايؤهله له بلاء فى الجهاد ، ولا سابقة فى الاسلام . وأرجح أنها موضوعة لهذا .

التشهير بعلى ومحنة أشياعه :

أما إحدى الكبر التى ارتكبها معاوية فهى موقفه من على كرم الله وجهه بعد موته . فقد أمر بسبه على المنابر ، وكتب إلى الأمصار بذلك ، وحمل الناس على هذه السيئة حملا ، عدا ماأخذ الناس به من الطعن فى على والبراءة منه . وقد رويت فى ذلك أخبار عنه وعن أتباعه ، تجعل البلاء فى هذه الفتنة شبيها بالفظائع التى كانت ترتكبها محاكم التفتيش فى القرون الوسطى من تعذيب الخارجين على الكنيسة ، أو الراغبين عن الدخول فى طاعتها . وقد نقل ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة صورة من ذلك عن محمد بن على الباقر من ذرية الحسين جاء فيها :

«ثم لم نزل أهل البيت نُستغل ونستضام ، ونقصى ونمتهن ونحرم ونقتل ونخاف ، ولا نأمن على دمائنا ودماء أولياتنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم ، وقضاة السوء وعمال السوء فى كل بلدة ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عنا مالم نقله ومالم نفعله ، ليبغضونا إلى الناس . وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، فقتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدى والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا ، سجن أو نهب ماله ، أو هدمت داره . ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب اليه من أن يقال شيعة على » .

كما روى أن معاوية كتب نسخة واحدة الى عماله بعد عام الجماعة ، « أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبى تراب وأهل بيته » . فقامت الخطباء فى كل كورة ، وعلى كل منبر ، يلعنون عليا ، ويبرءون منه ، ويقعون فيه

وفى أهل بيته . وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة على عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام على عليه السلام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وأخافهم ، وقطع الأيدى والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق ؛ فلم يبق بها معروف منهم . وكتب معاوية إلى عماله فى جميع الآفاق : « ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة » وكتب اليهم « أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايته ، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم » . وأمرهم بدعوه الناس إلى الحديث عن فضائل عثمان، فكان ذلك سببا فى وضع كثير من الأحاديث والأخبار المفتعلة فى مدح عثمان وذم على ؛ لمن يريدون التقرب والعطاء الجزيل . كما حدث عكسه من شيعة على وأصحابه ، ويروى أن معاوية كتب إلى عماله أن يدعوا الناس إلى رواية فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، وأن يكثروا فى ذلك ما استطاعوا كى يغطوا على فضائل سيدنا على ، وشغل الناس بذلك ، وعلموه الصبيان والغلمان والنساء والخدم ، وكثرت روايته حتى اختلط الصحيح بالفاسد(١)

هذه صورة مفزعة حقا لما فعله معاوية تلحقه بمحاكم التفتيش، وان شئت فقل ان هذه كانت تقليدا ، لأنها جاءت بعده .

وكان للأدب مساهمة مؤلمة فى هذا النزاع خطابة وشعراً ، وأخباراً مفتعلة ، وأحاديث موضوعة . وأشهر من اشترك فى هذه المآسى معاوية وزياد ، فقد روى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبة عندما ولاه الكوفة ألا يمتنع « عن شتم على وذمه ، والترحم على عثمان ، والاستغفار له والعيب على أصحاب على والاقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم، وأن يطرى شيعة عثمان

---

(١) جاء من هذا شيء كثير فى شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة

رضوان الله عليه ويدنيهم ويستمع منهم (١) . وظهرت شدة زياد وسفاهته، حتى فى رده على كتاب جاءه من الحسن يجير فيه رجلا من شيعة سيدنا على بالكوفة ، فكتب اليه زياد :

« من زياد بن أبى سفيان الى الحسن بن فاطمة ، أما بعـــد فقد أتانى كتابك ، تبدأ فيه بنفسك قبلى وأنت طالب حاجة . وأنا سلطان وأنت سوقة ، وتأمرنى فيه بأمر المطاع المسلط على رعيته ، كتبت الى فى فاسق آويته ، اقامة منك على سوء الرأى ، ورضا منك بذلك . وايم الله لاتسبقنى به ولوكان بين جلدك ولحمك ، وان نلت بعضك ، غير رفيق بك ولامسرع عليك ، فإن أحب لحم على أن آكله للحم الذى أنت منه ، فسلمه بجريرته الى من هو أولى به منك ، فإن عفوت عنه لم أكن شفعتك فيه . وإن قتلته لم أقتله إلا لحبه أباك الفاسق ، والسلام » .

هذا رده على الحسن رضوان الله عليه ، فكيف تكون معاملته لشيعته ! وأرسل الحسن هذا الرد إلى معاوية فعنف زيادا من أجله .

ومن الانصاف لمعاوية أنه كان يفسح صدره لهؤلاء الكبار من آل على ، وكانت ألسنتهم حدادا عليه . « وجزاء سيئة سيئه مثلها » .

أثر هذه الفتنة فى الأدب :

أما ناحية الأدب الخالص فى هذه الفتنة فقد كانت قوية شديدة عنيفة ، كالخصومة نفسها ، فلاضعف فى الأسلوب ولا اضطراب فى العبارة ، ولا وهن فى الحجة . وهى ، كما نرى فى رسالة زياد . تثير نفس القارىء ، وقد تذهله عن حلمه وعقله . ثم يأتى تحلم معاوية فيهدىء من هذه الثورات ، ويكاد يبرئه من تبعة هذا العنف البادى فى قول زياد . لكنها كانت سياسة مرسومة يمثلها قوله فى كتابه إلى زياد « إنه لاينبغى أن نسوس الناس بسياسة واحدة . ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة ،

(١) تاريخ الطبرى حـ ٦ ص ١٤١

كانت هذه الحركة العنيفة سببا فى إعمال الخيال وتسجيع الاختراع فى الأدب، فوضعت القصص واخترعت الأشعار . فالموضوعات التى أشار إليها معاوية وحمل الناس عليها زياد وغيره ، لقيت رواجا عند هؤلاء الوضعين ، وأكثروا فيها القول ورووا لنا بعضها على أنه حق جرى به لسان الرسول ﷺ ، أو أنه حقائق حدثت فى تاريخ على أو معاوية أو عثمان أو غيرهم ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان ، وسهل تمييز الحق من الباطل فيه ، ولكن حركة الاختراع ، أو الافتراء ، ظلت نشيطة فيما تبع ذلك من عصور فكثرت ، واختلط بعضها ببعض ، وصعب إرجاع هذه المفتريات إلى عصورها . ولو تم ذلك لاستطعنا أن نؤرخ لهذه القصص تأريخا أدبيا نبين فيه مزاياها وخصائصها ، ونتحدث عن مصادرها . وأصل الخيال فيها . ومدى التفنن فى تصويرها . لكن اختلاطها جعل ذلك عسيراً .

المجالس الأدبية عند معاوية :

سبقت الإشارة إلى أنه كانت للأدب مجالس عند معاوية ، ولا نستطيع القول بأنه كان يعقد للأدب الخالص مجالس خاصة ، أو أنه كان يعنى به لذاته كما كان يفعل عبد الملك من بعده ، لكنه مزج الأدب بالسياسة ، وكانت مجالسه التى أريد بها الحديث فى شئون الدولة ، أو فى تدبير بيعة يزيد أو استلحاق زياد ، أو إثارة بنى هاشم ، مجالس أدب أيضاً : يجتمع فيها أعيان بنى أمية وأنصارهم ، ويتحدثون فى على وآل بيته ، ويذكرون ماضى النزاع بين الفريقين ، ويروون ما كان من خطب أو أشعار لهم أو عليهم . وقد يفد على الشام بعض أولئك الأنصار أو الأعداء . وقد عنى تاريخ الأدب بهذه المجالس وبالحديث عن الوافدين والوافدات على معاوية من آل البيت وغيرهم كابن عباس وعقيل بن أبى طالب وللوافدات عليه أدب مستقل

(١) عنى الأستاذ أحمد بك أمين بالحديث عن ذلك حديثا قيما فى كثير من موضوعات فجر الاسلام وضحى الاسلام .

كان معاوية وأصحابه يديرون فيه القول (١) ، ويروون الماضى ، ويهددون أحيانا ، ويمنون بالعفو والمثوبة أحيانا . وقد يذكرون عليا أو غيره بسوء فتثور ثائرة آله ، ويلقى معاوية أو أصحابه ماهم أهل له . على أنه قد روى عن هذه المجالس أحاديث فى أخبار العرب وتاريخهم ، كالذى رواه المسعودى فى مروج الذهب (٢) . أن صعصعة بن صوحان دخل على معاوية فقال له : « يابن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فاخبرنى عن أهل البصرة . وإياك والحمل على قوم لقوم » ، ثم سأله عن الكوفة وعن أهل الحجاز ، وعن مضر ، وعن ربيعة وغيرها ، وهو فى كل ذلك يرد عليه بإجابات مختصرة جامعة مسجوعة ، فى بعضها اجتراء على معاوية ، أو مدح لأهل الحجاز ، أو لقومه من ربيعة . ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : « سل يامعاوية وإلا أخبرتك بما تحيد عنه . قال وما ذلك يابن صوحان ؟ قال أهل الشام . قال : فأخبرنى عنهم . قال : أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق ، عصاة الجبار ، وخلفة الأشرار فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية والله يابن صوحان . إنك لحامل مدينك منذ أزمان ، إلا أن حلم ابن أبى سفيان يرد عنك » . فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته . إن أمر الله كان قدرا مقدورا » .

ووفد عليه دَغفل بن حنظلة النسابة ، من بنى شيبان ، مع وفد العراق فسأله معاوية عن كثير من قبائل العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأجابه دغفل على طريقة صعصعة بن صوحان الموجزة المسجوعة . وقال له معاوية فى ختام الحديث بينهما : « أنت والله يادغفل أعلم الناس قاطبة بأخبار العرب » .

وعرفت هذه باسم المحاورات والأجوبة (٣).

---

(١) سبق الحديث عن بعض هذه الوفادات فى ص ١٧٠ (٢) ج ٣ ص ٧٨

(٣) روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد كثيرا من النوعين فخص الاول بقسم من كتابه سماه « كتاب الجمانة فى الوفود » والثانى بقسم آخر سماه « كتاب الجنبة فى الاجوبة » وورد بعض هذه فى كتب أخرى كالأمالى ومروج الذهب

معاوية والغزل فى الحجاز :

لم يكن الشعر قويا فى الحجاز إلا بعد الإسلام ، وقد كان لظهور دعوة الاسلام الكريمة أثر كبير فى ذلك ، بسبب استعانة كل من المسلمين والمشركين به فى الحديث عن الاسلام . ولعل شأنه قد ضعف قليلا هناك فى أيام الراشدين . فلما جاء معاوية سار على سياسة خاصة مع أعيان الحجاز ساعدت على ظهور الغناء وشعر الغزل ، واتبعها خلفاء بنى أمية من بعده ، وذلك أنهم ضيقوا على من عداهم من بطون قريش ، وحاولوا أن يصرفوهم ما استطاعوا عن السياسة ، وأعطوهم المال الكثير حتى أترفوهم ، وبقى العراق وحده يحمل لواء المعارضة لبنى أمية بعد مقتل ابن الزبير . وانصرف فتيان الحجاز إلى اللهو ، يساعدهم المال والجاه والفراغ ، ويساعدهم كذلك ما كان عندهم من الجوارى الحسان العقول والأبدان ، والعاليات الأذواق ، وما كان عليه أهل الحجاز من ظرف ورقة . فأدى ذلك كله إلى شيوع الغناء . وأحسن ما يتغنى به هو شعر الغزل ، فغنى به شعراء منهم كابن أبى ربيعة . أسرفوا فى التعرض للنساء ، العاكفات فى الحجاز ، والقادمات إليه من أنحاء المملكة الاسلامية للحج ، وكان بجانب هذا الغزل فكاهات وقصص ورواية أشعار ونوادر وملح وأخبار . ولنا حديث عن ذلك مطول إن شاء الله .

معاوية ورواية الأخبار :

كان معاوية يعرف كثيراً من أخبار العرب وقليلا من أخبار غيرهم ، ولكنه كان يطلب فى خلافته المزيد منها ، أو يطلب أن يروى له ما يعرفه ، حبا فى هذه الأخبار لذاتها ، أو رغبة فى الانتفاع بروايتها من الناحية السياسية ، وكان يحب أن يروى له بعض أخبار العجم ، عسى أن يستفيد من ذلك سياسة أو تجديدا فى أمور الدولة . وكان يشجع بالأموال ، أو بتعيين الرواة فى عمل دائم لا شغل لهم فيه إلا أن يحدثوه بهذه الأحاديث وقد كان يجلس لأصحاب الأخبار فى كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل ، فيقصون عليه أخبار العرب

وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها فى رعيتها ، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها ثم ينام ثلث الليل ، ويقوم فيأتيه غلمان مرتبون ، وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرءون عليه ما فى تلك الكتب من سير الملوك، وأخبار الحروب ومكايدها ، وأنواع السياسات » ، نقـــل ذلك جورجي زيدان عن المسعودى(١) . وعلق عليه بقوله : « والغالب فى اعتقادنا أن تلك الكتب فى اليونانية واللاتينية ، وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهانيبال ، وأن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية » . ويستمر جورجى زيدان فى بيان سبب ذلك فيقول : « وسماع أخبار العظماء يستنهض الأمم إلى الاقتداء بهم . ولذلك كان أكثر القواد العظام الراغبين فى العلا من العرب وغير العرب، يستتلون أخبار من سبقهم من مشاهير القواد والساسة للعبرة » .

ولا أدرى السبب فى قصر هذه الأخبار على أبطال اليونان والرومان ، يشير إلى أن هؤلاء الغلمان كانوا من الروم المتصلين بأخبار هؤلاء القوم ، غير أنه كان هناك قوم آخرون يعرفون أخبار الفرس وتاريخهم ، ويروون لمعاوية وغيره هذه الأخبار فى الشام والعراق والحجاز ، لاتصال الفرس القوى بالعرب ، وشيوع أخبارهم بينهم من قبل الاسلام ، بسبب الصلات التجارية والسياسية، والوفادات التى وفدها أعيان العرب على الأكاسرة .

وقد ذكر ابن النديم أن أول من ألف فى التاريخ هو عُبَيد بن شَرِيَة الجرهمي، وكان فى زمن معاوية ووفد عليه ، فسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة . وأمر افتراق الناس فى البلاد . وقد استحضره من صنعاء اليمن لذلك ، فأجابه إلى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدون فى كتاب وينسب إلى عبيد بن شرية هذا ، وسمى هذا الكتاب (كتاب الملوك وأخبار الماضين) ولا وجود له . وهذا العمل أشبه بالقصص منه بالتاريخ .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦

معاوية والقصص :

وساعد معاوية على تقدم القصص إذ عين له قوما مخصوصين به كما عين للأخبار . فقد روى عن الليث بن سعد(١) أن معاوية هو الذى جعل قصص الخاصة ،وولى عليه رجلا يقوم به ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ، وصلى على النبي ﷺ ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة،ويروى أنه فعل ذلك ردا على ما بلغه من أن سيدنا علياً قنت فدعا على قوم من أهل حربه،فأمر معاوية رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام.

وهذه الصورة السابقة ليست من القصص فى شيء ، ويخيل إلى أن ماذكر هنا من تحميد ودعاء الخ كان مقدمات ونهايات للقصص . أما القصص ذاتها فكانت تتعلق بأخبار الأنصار أو الأعداء ، وماضيهم وغنائهم . وشبه ذلك. ولا جديد فيها إلا أنها تلونت بلون خاص يخدم السياسة ، ويفعل ما يتفق مع أغراضها . وإلا فمن طبيعة الحروب مثلا أن تكون فيها بطولة ، وأن تحدث أحداث غريبة . وأن يرى المحاربون — ما يلفت نظرهم ويثير انتباههم وهم فى غير ديارهم ؛ فاذا خلوا إلى أنفسهم أو رجعوا إلى قومهم تحدثوا بكل ذلك . وقد يغرق الخيال فيأتى بكثير من المبالغات .

فاذا انضم إلى ذلك أن معاوية أمر بسب على على المنابر ،وكتب إلى ولاته بوضع القصص والأخبار فى الطعن عليه أو فى مدح عثمان وذكر فضائله، عرفنا أثر معاوية فى رواج القصص الخاصة والعامة فى أيامه، وكيف فتح الباب لمن أراد أن ينتفع بها بعده فى خدمة السياسة أو العصبية أو غيرهما .

حرية القول فى زمنه :

ونعنى بذلك حرية الأدب والتعبير عن الآراء فى عهد معاوية ، وأرى أن هذه الحرية ربما كانت مكفولة . إلا فيما يتعلق بالأدب السياسى،فللشعراء

(١) فجر الاسلام نقلا عن خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٠٣

أن يتغزلوا ، وأن يفخروا ، وأن يتهاجوا فى شىء من الحرية . أما الأدب السياسى فكان مقيداً ، وما زاد من هذه الحرية فى مجالس معاوية كان محدوداً وخاصا بمجالسه. ومن هم أولئك الذين كانت لهم حرية الرأى؟ إنهم آل البيت كالحسن والحسين وابن عباس وابن جعفر ، ويضاف إليهم ابن الزبير ، أو بعض أعيان العراق كالأحنف. ولم تكن حريتهم برضا من معاوية ، وإنما كانت شجاعة منهم وإيمانا بحقهم ، واعتدادا بمنزلتهم من الله والرسول. ولولا فضل هؤلاء فى الناس ، وخوف الدولة منهم ، ومعرفتها لمنزلتهم عند العامة ، لحرمت عليهم القول ، أو جزتهم بهذه الشجاعة فى التعبير عن الرأى أشد الجزاء

عرف معاوية بالحلم وسعة الصدر . وروى عنه قوله : «لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له وكيف ذلك؟ قال كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها » . وقال فى خطبته عام الجماعة : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به الغائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر(١) أذنى وتحت قدمى » .

لكن حلمه هذا لم يكن مانعا من الإرهاب ، والضغط السياسى ، والشدة على من يجاهرون برأى صريح يعارض سياسته . نرى ذلك فى أمر البيعة ليزيد ، ، وفى اشتداده على كرام الصحابة : الحسين ، وابن عمر ، وابن أبى بكر ، وابن الزبير ، من أجلها ، فلما عرف رأيهم فى هذه البيعة ألزمهم الصمت بحد السيف فى المسجد الحرام ، فبايع الناس مخدوعين يومئذ كما سبق . وقد سلط على الناس فى عهده من كتموا أنفاسهم ، وقال لزياد فى إحدى رسائله : «إنه لا ينبغى لنا أن نسوس الناس سياسة واحدة . . ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة» .

وقد استعان على ذلك برجال لا يقبلون رأيا مع رأيهم ، ولا يرضون بمعارضة لسياستهم من أمثال زياد فى العراق وعتبة بن أبى سفيان فى مصر . وكان ابن زياد فى العراق أقسى من أبيه . وكانت أساليبهم فى ذلك القتل

(١) خلف

والتشريد وهدم الدور . وكان أيسرها التهديد ومنع العطاء . وأكثر ما كانت هذه الشدة على شيعة على فى العراق . وكان زياد وأعوانه يفتشون عن دخائل نفوسهم ، ويعاقبونهم عقابا شديدا إذا بدا من أحدهم ولاء أو قول حسن فى أبى الحسن . ومن أشهر الذى أخذوا بمحبتهم له ، وحسن رأيهم فيه ، حُجر بن عدى الكندى وأصحابه . أخذهم زياد أخذ عزيز مقتدر ، فأرسلهم بشر حال الى معاوية فقتل أكثرهم ، وأرسلت السيدة عائشة فى حجر وأصحابه الى معاوية ، فقدم عليه الرسول وقد قتلهم ، فحزنت لذلك عائشة لما تعرفه من صلاح حجر وإيمانه .

لكنه كان عهداً أقل إرهابا مما وليه . ومع كل هذه القسوة ، والشدة على المعارضة ، ظهر الأدب الذى يخالف سياسة الدولة ، ويعيب رجالها ، ويهجو الخلفاء وعمالهم . وكان له صولة وجانب مرهوب . ولعل طبيعة البداوة كانت غالبة على كثير من هؤلاء الذين آثروا الصراحة والحرية ، كما كان للايمان العميق بالله وبالمبدأ أثره فى هذه الصراحة ، فأقدم أولئك على ذم معاوية وأصحابه وعماله لا يبالون بما يلقون ، دفاعا عن رأيهم الحسن فى على ، وظنهم السيء بمعاوية .

أكثر هذه الاشعار والخطب المعارضة كانت تجر على أصحابها البلاء ، فاما أن يؤخذوا بأدبهم ، أو يتوبوا إلى خلفائهم ، أو يشترى الخلفاء والولاة أنفسهم وألسنتهم ، فيقيدهم العطاء ويطلق أدبهم بأحسن الثناء .

خاتمة آثاره الأدبية :

آخر خطبه خطبها معاوية :

صعد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه ، وقبض على لحيته ، ثم قال :

أيها الناس : إن من زرع قد استحصد(١) ، وقد طالت عليكم إمرتى ، حتى ملتكم وملتمونى ، وتمنيتم فراقكم وتمنيتم فراقى ، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيرا منى . وإن من

(١) استحصد الزرع نضج وحان حصاده

أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إنى أحببت لقاءك فأحبب لقائى » .

ثم نزل فما صعد المنبر حتى مات

على الرواة بذكر الهيئة التى كان عليهامعاوية عندما تهيأ للخطبة ، فذكروا أنه « قبض على لحيته » ، وربما كان يستعين بذلك على التفكير واستعراض الماضى ، أو لعله فعل ذلك غير متعمد ولا مريد له ، بسبب استغراقه فى التفكير . ثم خطب هذه الخطبة التى تنم عن يقظة الضمير ، ومحاسبة النفس والاحساس بالضعف عند اقتراب الأجل ، والتى تشير إلى إحساسه بكراهة الناس لطول عهده . فاقتص منهم ، وأخبرهم أنه ملهم كما ملوه ، وتمنى فراقهم كما تمنوا فراقه ، وهم مخطئون فى هذا التمنى ، فسيأتيهم بعده من هو شر منه ، ثم أشار إلى أنه لايعبأ بهم ، وأنه أحب لقاء الله وهو أكرم منهم ، فانصرف إليه بالخطاب ، يسأله حسن القبول وحسن الثواب .

الخلاصة:

وخلاصة القول فى معاوية أنه كان أديبا سياسيا ، ظهر أمره فى تاريخ الأدب بعد مقتل عثمان ، واستمر طول خلافة على يدور حول موضوع واحد هو اتهام على بقتل عثمان .

ثم جذب معاوية فحول الأدب إلى السياسة أيضا فى خلافته ، وشغل الناس — عمالا ورعية — بها ، فدار الأدب حولها طول خلافته تقريبا .

وحمل العامة والخاصة على الطعن فى على بعد موته ، والحديث فى مناقب عثمان ، واخترعت لذلك قصص وأخبار وأحاديث .

وأحيا العصبيات التى حاول الإسلام القضاء عليها. فثارت حمية الجاهلية، وكثر الحديث عن أيام العرب وأخبارهم مشوبا بهذه العصبية القبلية . وكان ذلك فتحا لباب الشر الذى يمثله الهجاء ، وسبيلا إلى وضع كثير من القصص والشعر والأخبار لتأييد هذه العصبيات أو الطعن فيها .

ووفدت عليه الوفود من أعدائه وأنصاره ، وجلس لها مجالس يحف به بطانته وأعوانه . وكان فى هذه المجالس خطب ومحاورات وأجوبة تمتاز

بأسلوبها العنيف ، وحججها القوية ، ورواية الماضى ، وعدت هذه من أهم مظاهر الأدب فى عهده وبعد عهده .

وكانت سياسته سببا قويا من الأسباب التى ساعدت على شيوع الغزل والغناء فى الحجاز ، فاشتهر هذا القطر بهما طول عصر الدولة الأموية ، ثم استعان بالشعر خاصة ، والأدب عامة فى خدمة أغراض سياسية ، وأجزل العطاء للشعراء ، وتغاضى عن مخالفات دينية من أجل السياسة .

معاوية زعيم مدرسة أدبية ملكية

وسار على سنته هذه أكثر خلفاء الأمويين وولاتهم ، فكان معاوية بهذا زعيم مدرسة أدبية ملكية فى الأدب العربى : أهم خصائصها :

(١) استخدام الأدب فى السياسة إلى أبعد حد . والاستعانة بالأدباء لتأييد فكرة أو مذهب سياسى ، كما فعل معاوية فى البيعة ليزيد ، وعبد الملك فى البيعة للوليد ، وكما فعل الخوارج فى تأييد مذاهبهم السياسية الممتزجة بالدين ، وكما استعان الأمويون عامة بالأخطل ، واستعان الشيعة بالكميت.

(٢) العناية بالأدب القومى إنتاجا وحفظا واستشهادا واقتباسا : نرى ذلك فى خطب معاوية ، وعبد الملك ، والحجاج ، وخالد القسرى ، وهشام ابن عبد الملك ، وغيرهم ، كما نراه فى رواياتهم لآداب الجاهلية ، وحسن اقتباسهم من أشعار السابقين ، حتى كأنما قيلت تلك الأشعار للموقف الجديد الذى يستشهد فيه بهذه الأشعار . نجد ذلك فى تأثر معاوية ليلة الهرير بأبيات ابن الإطنابة ، وفى استشهاد عبد الملك[1] لما خطب بعد مقتل مصعب ، بشعر قيس بن رفاعة ، واستشهاد الحجاج[2] بشعر رويشد بن رُميض العنبرى ، واستشهاد يزيد بن المهلب[3] بشعر أبى دواد الأيادى فى وصيته لابنه . ولهم أقوال مأثورة فى فضل الشعر ، وأثره فى قضاء الحوائج ، وتأثيره فى

(١) الأمالى جـ ١ ص ١٣ (٢) العقد الفريد جـ ٢
(٣) بلوغ الأدب جـ ٣ ص ١٧٢

النفوس ، تدل على مبلغ تقديرهم له وعنايتهم بأمره .

(٣) تشجيع الرواية لأخبار القبائل فى القديم ، واستمتاع الخلفاء والولاة بهذه الأخبار ، واستخدامهم لها فى السياسة .

(٤) جعل مجالسهم وحضرتهم أسواقا أدبية ، يفد عليها الشعراء بمدائحهم ويتفاخرون بمآثرهم ، ويعودون إلى قومهم بعطائهم وخيراتهم .

(٥) تدخلهم فى الأدب ، وتوجيههم للأدباء بما كانوا يوجهون إليهم من نقد ، ويشيرون عليهم من معان ، ويقترحون عليهم من موضوعات .

فعبد الملك لا يرضيه من الشعراء أن يشبهوه بالأسد ، ولا يعجبه بعض ابتداءات جرير أو ذى الرمة . والحجاج لا يرضيه قول ليلى الأخيلية فيه « إنه غلام » . وزفر بن الحارث لا يرضيه من القطامى أن يتمنى رد جميله يوم يقدر عليه . ولا ننسى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقد حاول توجيه الأدباء ، ولكن إلى غير الهجاء والسياسة والغزل المكشوف ، فحرم الشعراء العطاء ، لما روى لهم أشعارا يأباها الدين والخلق الكريم .

(٦) غلبة التهديد على ماروى لنا من خطب هذه المدرسة . إذ كان أكثره فى أعقاب ثورات وإخماد فتن . ومن أشهر هذه الخطب « البتراء لزياد » وخطبة الحجاج عندما ولى العراق ، وخطبته بعد دير الجماجم . وخطبة عتبة بن أبى سفيان فى مصر . وخطب يزيد بن المهلب فى خروجه على يزيد ابن عبد الملك .

(٧) كثرة الحديث الأدبى ، فى الخطب والأشعار والرسائل ، عن الملوك والأمراء ، على أنهم ظل الله فى أرضه ، ولا هم أمور الناس لأنهم خير الناس ، وأنهم لا يسألون عما يفعلون ، وعلى الناس الرضا بسيادتهم ، وشكر الله على ذلك ، لأنه نعمة منه عليهم ، وربما كانت هذه النظرية معروفة عند الفرس من قبل فى أيام الدولة الساسانية . وبدأها معاوية فى الخلافة الاسلامية ، ثم قويت من بعده عند خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس . وقد سادت هذه

النظرية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى أوروبا وسميت نظرية الحق الأٰلهى «Diuine Right» .

واستمرت هذه المدرسة فى القرن الثانى والثالث الهجرى ، وإن اختلفت قليلا فى رجالها ، إذ شارك الفرس العرب فى مناصب الدولة ، وفى قوة البيان ، فكان منهم خطباء ممتازون ، كالبرامكة الذين جمعوا إلى ذلك رعاية الأدب والأٰحسان إلى الأدباء . وعنى الخلفاء والولاة فى هذين القرنين بالكتابة ، لتقدمها على نحو لم يعرف عند بنى أمية . أما ماعدا ذلك فكان الخلفاء وأكثر الولاة فى هذين القرنين أشباه سابقيهم من الأمويين ، فى الفصاحة والتوجيه الأدبى ، وتقدير الأدباء ورعاية الأٰدب ، وخدمته للسياسة ، والعناية بأخبار الجاهلية والأٰسلام ، ورواية أشعارهما وتاريخهما ، مع مراعاة الفرق بين السياستين ، وإدراك ما تتطالبه العصبية لهذه الأٰسرة أو تلك من توجيه الأٰدب لخدمتها ، والانتصار لها على الأٰعداء .

يزيد — عتبة بن أبي سفيان — زياد بن أبيه

(١) أما يزيد فقد تحدثنا عنه كثيرا فيما سبق ، وقلنا إن ولايته للعهد شغلت الأدب زمنا طويلا فى حياة أبيه . وأشرنا إلى أنه شارك فى توجيه الأدب فعلا ، إذ حاول إغراء كعب بن جعيل بهجاء الأنصار ، ونجح فى حمل الأخطل على ذلك ، فأثار شاعرهم النعمان بن بشير على معاوية ؛ ودافع من دون الأخطل فوقاه ما كان يخشاه من عقاب ، وكافأه على هذا الهجاء . وكان ذلك أول تقديم الأخطل فى قصور الخلفاء وإشراكه فى سياستهم .

وحدثت فى عهده أحداث أثارت الأدب ثورة عنيفة فى عهده وبعد عهده ، وبقيت بعض آثارها إلى الآن فى بلاد المسلمين .

مقتل الحسين بالعراق سنة ٦١ هـ

أما أول هذه الأحداث فهو خروج الحسين عليه السلام إلى العراق وقتله فيها فى يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ . وقد جرت رسائل بينه وبين أنصاره هناك ، ثم بينه وبين أعدائه ، تدور كلها حول هذه الفتنة التى ذهب ضحيتها الحسين عليه السلام شهيدا .

أثرها فى الأدب :

ولقد شغلت حادثة قتل الحسين عصور الأدب فى أكثر البلاد الاسلامية فقيل فى رثائه الشعر الكثير ، وألف فى مقتله الكتب الكثيرة ، واحتفل بذكراه احتفالات عظيمة . وكم ألقى فى ذلك من خطب ، وكم أنشد من قصائد . ولكن الجدير بالذكر أن المسرحيات الوحيدة التى ظهرت فى تاريخ الأسلام كانت بسبب مقتله ، وفى ذكراه ، وعلى الأخص فى بلاد العجم . وكان يستمر تمثيلها عشرة أيام . ويقال إنها كانت تشمل تاريخ الحسين بمثل مقسما ، وكان بدء هذه فى القرن العاشر الميلادى . ولم يعرف من المسرح

فى تاريخ الاسلام إلا هذا النوع إلى أن كان العصر الحديث[1] .

واقعة الحرة بالمدينة سنة ٦٣ هـ

والحادثة الثانية كانت وقعة الحرة فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، وذلك أن أهل المدينة كرهوا خلافة يزيد بعد أن بايعوه . ووفدت وفودهم عليه فى دمشق ، وأظهروا طاعته ، وأخذوا جوائزه : فإنه فى عهد إمارة ابن عمه ، عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، على المدينة ، أوفد إلى يزيد بدمشق وفدا من أشراف أهلها ، فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصارى ، وكان شريفا فاضلا عابدا سيدا ، فأعطاه مائة ألف درهم ، وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف ، وأعطى غيره من الاشراف مثل ماأعطاه . ولكنهم لما عادوا إلى المدينة أظهروا شتم يزيد وعيبه ، وقالوا : « قد قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده القيان [2] ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب(٣) والفتيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه » . فتابعهم الناس فخلعوه . وأتوا عبد الله بن حنظلة فبايعوه .فلما علم يزيد بأمر خروجهم وأنهم حاصروا بنى أمية فى دار مروان ابن الحكم ثارت ثائرته ، وقال متمثلا

لقد بدلوا الحكم الذى فى سجيتى فبدلت قومى غلظة بليان

وعزم على قتالهم ، وأراد أن يعذر إليهم قبل أن يقاتلهم ، فبعث إليهم رجلا منهم هو النعمان بن بشير ، لينصح لهم ، فجاءهم وأمرهم بلزوم الطاعة ، وخوفهم الفتنة ، وقال لهم : لا طاقة لكم بأهل الشام .فلم تنفع نصيحته . ولما تجهز الجيش وعليه مسلم بن عقبة المرى قال له يزيد : « ادع القوم ثلاثا فإن أجابوك وإلا فقاتلهم ، فإن ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا ، فكل مافيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند ،فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس » .

---

(1) The History of the Theatre by Freedley & Reeves Page 186
تاريخ المسرح لمؤلفيه جورج فريدلى ، جون ريفز

(٢) من فسد دينهم . (٣) الجوارى المغنيات

سار مسلم إلى المدينة ولقى بنى أمية فى طريقه إليها بوادى القرى ودله عبد الملك بن مروان على خطة حربية ماهرة يستولى بها على المدينة . فلما وردها دعا أهلها وقال لهم : « إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل ، وإنى أكره إراقة دمائكم ، وإنى أؤجلكم ثلاثا ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه ، وسرت إلى هذا المحل [1] الذى بمكة ، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم » .

لم تكن لهذه الدعوة ثمرة ، واقتتل الجيشان قتالا شديدا ، وغلب أهل المدينة على أمرهم ، وأباح مسلم مدينة الرسول ثلاثا لجنوده ، يقتلون الناس ، ويأخذون المتاع والأموال ، وينتهكون الأعراض — ثم دعاهم للبيعه على أنهم عبيد ليزيد ، يحكم فى دمائهم وأموالهم ، فمن امتنع عن ذلك قتله . وانتهت هذه الحادثة المحزنة بهزيمتهم ، وهتك أعراضهم ، واستباحة هذه المدينة المقـــدسة ، التى حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم ابراهيم مكة .

ويعيب الشيخ الخضرى [2] على الفريقين موقفهما فيعيب على الأنصار قيامهم وحدهم بخلع خليفة صاحب دولة وجيوش ، وينعى على يزيد وأمير جيشه هذا الأسراف فى الاساءة إلى هذا البلد الطيب وأهله الذين آووا ونصروا ويقول : « إنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار ، فان المدينة تعتمد فى طعامها وشرابها على مايجىء من الخارج . وما باله ينتقم هذا الانتقام بعد الهزيمة ! ألم يكن فى قتل من قتل من ساداتهم مايشفى حزازات النفوس !

أثرها فى الأدب

أما من الناحية الأدبية فإن هذه الحادثة لم تشغل الأدب بقدر ما شغلته الحادثة السابقة ، فقد ذكرنا أن مقتل الحسين ظل مبعث حسرات وزفرات

---

(١) عبد الله بن الزبير . وسمى كذلك لانه أحل القتال فى الحرم

(٢) تاريخ الامم الاسلامية — ١ ص ٥٢١

فى قلوب كثير من المسلمين إلى الآن . وقد وجدت هذه النفوس الحزينة على مقتل الحسين ، والساخطة على فعل يزيد ، متنفساً لها فى الأدب العربى ، وفى غيره من آداب الأمم الإسلامية الأعجمية . أما وقعة الحرة فلم تثر ثائرة الأدباء إلا قليلا من الخطابة فى حينها ، وشيئاً من سخط المؤرخين وتعليقاتهم بعدها .

حصار مكة سنة ٦٤ هـ

والحادثة الثالثة هى حصار مكة . وقد رأينا فى دعوة مسلم لأهل المدينة أنه كان يرغب فى الانصراف عنهم إلى هذا « المحل » بمكة . فلما انتهى منها استخلف عليها روح بن زنباع الجذامى وخرج إلى مكة بجيشه فمات فى طريقه إليها، فولى أمر الجيش الحصين بن نمير السكونى . وسار إلى ابن الزبير الذى كان قد امتنع بها ، ودعا لنفسه ، وبايعه أهل الحجاز .

ولما علم الخوارج بمسير جيش الشام إلى مكة خرجوا إليها ليمنعوا الحرم منه ، فسر ابن الزبير بمقدمهم ، ونبأهم أنه على رأيهم . فوقفوا معه يدافعون عن البيت حتى مات يزيد ،ففك الجيش حصار البلد الحرام ، وناظر الخوارج ابن الزبير فلم يرضوا عن قوله ، فتركوه وذهبوا إلى العراق والأهواز .

أثرها فى الأدب

وهذه الحادثة كانت وسطاً فى تأثيرها الأدبى فلم تبلغ من التأثير الخالد ما كان لمقتل الحسين، ولم ينته أدبها عند هذا الحد، لأن ابن الزبير استطاع أن يسيطر على أكثر البلاد الإسلامية زمناً حتى قتل سنة ٧٣ هـ . واستمر يتخذ من حصار الكعبة معيناً لأدبه فى الطعن على بنى أمية ،وسمى نفسه « العائذ » لأنه كان عائذاً بالبيت الحرام .

بعد هذه الحوادث الثلاث الكبرى نستطيع أن نتحدث عن يزيد أديباً تأثر إنتاجه بشخصيته ونفسيته وتعاليم أبيه :

أقام يزيد أكثر حياته بالشام ، بعيداً عن المواطن المقدسة فى مكة

والمدينة فكان رقيق الدين ، وعاش مترفا فشغل باللهو . ويروى أنه جلس ذات يوم على شرابه وعنده ابن زياد فقال لساقيه :

اسقنى شربة تروى مُشاشى [١] ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندى ولتسديد مغنمى وجهادى

وكان له قرد يكنى « بأبى قيس » يحمل على أتان وحشية ، يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء فى بعض الأيام سابقا . وكان عليه قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشهر « مخطط » وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان ، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ، ملمع بأنواع من الألوان . فأثار ذلك شاعرية واحد من شعراء الشام فقال :

تمسك ، أبا قيس ، بفضل عنانها [٢] فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به جيـــاد أمير المؤمنين أتان

وربما قيل فى لهوه أكثر من هذا وأهمله الرواة .

أما عصبيته الجاهلية فكانت واضحة فى ضغينته على الأنصار . لأنهم أذلوا آباءه فى بدر ، ودخلوا مكة مع الرسول ﷺ عندما جاء نصر الله والفتح . وكانوا شيعة على كرم الله وجهه وأعوانه على معاوية . فلما انتصرت جيوش يزيد عليهم فى وقعة الحرة ظهرت هذه العصبية واضحة ، إذ تمثل يزيد بقول عبد الله بن الزبعرى ، شاعر قريش يومئذ :

ليت أشياخى ببـــدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل [٣]
لأهلوا واســـتهلوا فرحا ثم قالوا : يا يزيد لا تشل [٤]
فجزينـــاهم ببدر مثلهـــا وأقمنا ميل بدر فاعتـــدل

---

(١) بضم الميم : النفس (٢) بكسر العين : اللجام (٣) الرماح والنبل
(٤) أهلوا واستهلوا : رفعوا أصواتهم . لا تشل : لا شلت يدك : دعاء له : وهذا البيت ليزيد :

ونسب إليه شعر قاله عندما بلغه موت أبيه ، ومنه :

أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقى الغمام به لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

والشطر الأخير فيه روح الجاهلية التى تفتخر بالأحساب لا بصالح الأعمال ، ولكنه كان قارئا للقرآن يحسن اقتباسه فى الشدة . فقد روى أنه لما سمع بخروج أهل المدينة كتب إليهم :

أما بعد ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال ،

وقد نسبت إليه خطب قام فيها مقام الواعظين الصالحين ، منها خطبته بعد موت أبيه ، وخطبة أخرى تحدث فيها فأكثر من الاقتباس من القرآن ، وتضمين أسلوبه ، وختمها بآخر سورة التوبة . (١)

أما أخذه عن أبيه واقتداؤه به فيظهر من كلام له بعد مقتل الحسين ، فإنه قال لمن عنده : أتدرون من أين أتى هذا ؟ (يعنى الحسين) قال أبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما قوله أبوه خير من أبى فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له . وأما قوله أمه خير من أمى فلعمرى، فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما قوله جده خير من جدى فلعمرى ، ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا . ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء » .

وأدبه على قلته قوى صارم موجز صريح ، لا ضعف ولا لين فى أسلوبه، يصيب موضع الاستشهاد بالشعر والقرآن . ولعله لو عمر لظهر أدبه ، وكان له شأن فى توجيهه كشأن أبيه ، لكنه حكم قليلا ومات سنة ٦٤ هـ شاباً .

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ وقد نسبت لبعض خطباء الخوارج

(٢) عتبة بن أبي سفيان :

أخو معاوية وأحد عماله ،وعرف فى الأدب بخطبه التى قالها فى أثناء ولايته على مصر . وقد وليها بعد وفاة عمرو بن العاص فى شوال سنة ٤٣ هـ وكان شديداً عليهم لاتهامهم فى مقتل عثمان . ومن يقرأ خطبه فى أهل مصر يراه من نوع زياد والحجاج ، فى العنف والقسوة والتهديد والتحذير قبل البطش. وقد روى له العقد الفريد ثلاث خطب فيهم لاتخرج كلها عما قدمنا،وهذه إحداها :

بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

ياأهل مصر ، إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا ، فإن لله فيكم ذبيحا لعثمان ،أرجو أن يولينى نسكه . إن الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطة،وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة منه عليكم . وقد بلغنا عنكم نجم قول [١] أظهره تقدم عفو منا ، فلاتصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق، بإحياء الفتنة ، وإماتة السنن ، فأطأكم لله وطأة لارمق معها [٢] ،حتى تنكروا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذى « يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور » .

وخطب أيضا وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

« ياحاملى الآم أنوف ركبت بين أعين! إنما قلمت أظفارى عنكم ليلين مسى إياكم ، وسألتكم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادكم راجعا عليكم . فأما إذ أبيتم إلا الطعن على الأمراء ، والعتب على السلف والخلفاء ، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت مستشرى دائكم [٣]،وإلا فالسيف من ورائكم . فكم من عظة لنا قد صمت عنها آذانكم ، وزجرة منا قد مجتها قلوبكم . ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، إذا جدتم علينا بالمعصية ،

(١) ظهور قول . (٢) لاتترك فيكم حياة . (٣) عظيم دائم .

ولا مؤيسا لكم من المراجعة إلى الحسنى ،إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى »[1]

ومن هاتين الخطبتين يتبين لنا أسلوب عتبة الذى آثره فى التهديد . فهو يحاول أن يبرأ من كل تبعة ويلقيها عليهم . فعل الخطيب اللبق ، ويبين أنهم إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فلها . ثم نراه يكثر من الكنايات والاستعارات والمحسنات بلا تكلف : فيعبر عن لؤم النفوس بلؤم الأنوف، ويعبر عن تسامحه بتقليم أظافره ، ويقابل بين بطون السياط وظهورهم ، ويتهكم ! فيخبرهم أنه لا يبخل بالعقوبة إذا جادوا بالمعصية. ويستخدم الفقرات القصيرة والسجع اللطيف،فيكون له من ذلك كله أسلوب خطابى قوى يصلح لهذا الموضوع العنيف .

وله حديث فى مجلس أخيه معاوية وجهه إلى الحسن رحمه الله ، فكان فيه كما كان فى خطبه ، حديد اللسان ، إذ قال له :

« ياحسن ،كان أبوك شر قريش لقريش، لسفكه لدمائها، وقطعه لأرحامها، طويل السيف واللسان . يقتل الحى ويعيب الميت . وإنك ممن قتل عثمان ونحن قاتلوك به . وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زندها[2] قادحا ، ولا فى ميزانها راجحا . وإنكم يابنى هاشم قتلتم عثمان ، وإن فى الحق أن نقتلك وأخاك به . فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد منه . ، وأما أنت فوالله ماعلينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان . »

وقد أجابه الحسن بما أخزاه وفضحه يومئذ . ونحن فى هذا الحديث أمام الأسلوب الذى قدمناه فى الخطابة من فقرات قصيرة ، وإيجاز واف،وسجع غير مصطنع ، وسهولة ووضوح بيان .

وصيته لمؤدب أبنائه :

أما وصيته لعبد الصمد مؤدب ولده فحديث رجال التربية عنها حديث جميل ، لما وضع فيها من خطط قويمة فى التربية : قال له :

---

(١) العقد ج ٢ ص ٨ والامالى ج ١ ص ٢٤٥ . (٢) يعنى أنه يصلح لها .

«ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت . وعلمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه . ثم روهم من الشعر أعفه ومن الحديث أشرفه . ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم ، وتهددهم بى ، وأدبهم دونى . وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء . وجنبهم محادثة النساء ، وروهم سير الحكماء ، وما تزدنى بزيادتك إياهم أزدك . وإياك أن تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وزد فى تأديبهم أزدك فى برى إن شاء الله تعالى » .

وما أكثر الوصايا فى الأدب العربى ، فى الجاهلية والإسلام ، وكانت هذه فى أغراض شتى وفى ظروف مختلفة ، فكانت من الحكماء للعامة ، ومن الآباء للأبناء ، ومن أهل الفضل والسياسة للخلفاء والأمراء ، ومن الخلفاء للجنود ، ومن الأمهات للبنات عند الزواج وهكذا . ولكن هذا النوع الأرستقراطى ، وهو وصايا الأعيان لمعلمى أولادهم ، جديد فى الأدب أدى إليه رقى الحضارة . واشتغال قوم بالتعليم ، يستدعيهم الخلفاء والكبراء إلى قصورهم ، لتعليم أولادهم ، ويرسمون لهم خطة عامة يسيرون عليها فى تأديبهم .

ووصية عتبة هذه من أقدم الوصايا فى نوعها ، وإذا كان تاريخ الأدب يعنى بها ، لدلالتها على حرص رجال الدولة أن يتعلم أولادهم الشعر العفيف ، والحديث الشريف ، كما أوصى عتبة ، فان رجال التربية يحرصون على الحديث عنها إذا تكلموا فى تاريخ التربية العربية ، لما فيها من توجيه قيم . فقد عرف عتبة أثر القدوة ، فدعا معلم ابنه أن يبدأ باصلاح نفسه ، وأدرك طبيعة التقليد فى الأولاد واتباعهم آثار معلميهم ، ثم عرف أن حمل التلاميذ على العلم قسرا يسىء إليهم ، ويبغضهم فيه . وأما وصيته لهذا المؤدب ألا يخرج أبناءه من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فلا أظن التربية الحديثة توصى بخير

من هذا إذا فهمنا أن المقصود بالعلم « النقط » أو « الموضوعات الجزئية » . والواجب ألا ينتقل التلميذ من جزء من الدرس إلى غيره حتى يفهمه على وجهه الصحيح . وتعليل عتبة لهذا الجزء من الوصية تعليل لطيف قال : «فان ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم » ، وذلك صحيح إلى حد كبير ، فان تزاحم المعلومات فى الذهن يدعو إلى الخلط والاضطراب ، إلا إذا رسخت فى حينها ، ولم تتزاحم قبل تثبيتها . وقد نفهم كثيرا من دعوته لهذا المؤدب أن يكون كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، فتلك دعوة إلى تعرف نواحى الضعف فيهم ، وتهذيبهم بقدر ؛ وتعليمهم ماتدعو الحاجة إليه قبل غيره ، مع ملاحظة أعمارهم واحتمال عقولهم الخ . ولم ينس أن يفتح له باب الأمل إذا أخلص فى تعليمهم أكثر مايمكن من العلم ، فان ذلك يشرح صدره ، ويدعوه إلى بذل الجهد ، وذلك إذ يقول له : «وزد فى تأديبهم أزدك فى برى إن شاء الله تعالى » .

أما المواد التى حرص عليها عتبة فتكاد تشمل ما كان معروفا من المواد فى ذلك الحين ، وهى كتاب الله تعالى ، والشعر ورواية الأخبار ، وسير الحكماء .

ولو أراد رجال التربية أن يكتبوا فى تفسير هذه الوصية صفحات أخرى لساعدهم ما فى هذه الوصية الموجزة من المعانى . وهى فى ذاتها دليل على اتزان عتبة فى وصيته ، ودقة إحساسه بما يجب فى تعليم أبنائه . وعتبة كغيره من رجال الأدب فى ذلك العصر يؤثر الإيجاز ، ويكتفى بالإشارة ، مع الوفاء بحقوق المعنى ، والاعتماد على ذكاء القارىء وحسن تفسيره . أما حسن التعبير ، وحلاوة التركيب المبنية على السهولة والوضوح ؛ وعلى جمال النسج بلا تكلف ؛ فظاهرة فى هذه الجمل القصيرة ، التى يزينها السجع الصادر عن الطبع . وفى توازن الفواصل وحسن التأليف . وواضح من نظامها — أو عدم نظامها — أنها وصية أدبية ، لا قواعد علمية ، ولهذا أشرنا إليها فى الحديث عن الأدب .

(٣) زياد :

أما زياد فعلم من أعلام الخطابة خاصة ، والبيان عامة ، فى ذلك العصر وهو جدير بعناية تاريخ الأدب ، لخطبه الباقية ورسائله الشديدة ، وفصاحته وسياسته وحدة ذكائه . وقد وهبه الله عقلا رشيداً ألف به بين الفصاحة والسياسة ،فكانت سياسته ميدان فصاحته ، فخطب أشهر خطبه فيها ،وكتب أقوى رسائله التى جرت بينه وبين معاوية وغيره حولها .

وقد كان زياد من أولئك الأفذاذ الذين تظهر مواهبهم مبكرة، فتحمل الناس على أن يفسحوا لهم الطريق راضين أو مرغمين . وما ظنك بغلام حدث ليست له سابقة فى الاسلام يلى أموراً عظيمة فى خلافة عمر ، ثم يفد على المدينة ليخبر الخليفة ، فيأمره أن يخطب الناس به على المنبر ، فيحسن فى خطبته ويجود ، وفى المسجد كبار الصحابة ، فلا يتلجلج ولا يرهب السامعين وهو غريب فيهم . ولا يخشى الزلل وهو شاب يتحدث إلى شيوخ . وقد كان على ثقة من نفسه، عندما دعاه عمر ليخطب وخشى عليه ، فقال له زياد : يا أمير المؤمنين إنى لا أهاب أحداً فى الارض أكثر منك ، وقد حدثتك مطمئنا ،فما أرهب موقفا بعد حديثى إليك . فلما أجاد فى خطبته قال عمرو بن العاص : لله أبو هذا الغلام ! لو كان قرشيا لساق الناس بعصاه ! فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشى ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك . فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا . قال : فما يمنعك أن تدعيه ؟ قال : أخشى هذا القاعد على المنبر ، يعنى عمر بن الخطاب ، أن يفسد على إهابى : وقيل : إنه كان كاتبا لولاة البصرة [1] وكانت وفادته على عمر من عند أبى موسى الأشعرى ليرفع إليه حسابه فأمر له عمر بألف درهم،ومنعه العودة إلى عمله، لما رأى من شدة ذكائه، فقال لعمر : ياأمير المؤمنين أعن خيانة عزلتنى أم عن تقصير ؟ قال : لا عن واحدة منهما ولكنى أكره أن أحمل فضل عقلك على الرعية .

(١) العقد ٣ ـ ص٩ ؛ ص ٢٢٨

كان ذلك فى سن مبكرة ، وكان زياد حوالى العشرين ، وكان على يسمع هذا الحديث من أبى سفيان . وكان يعرف ذكاء زياد ومقدرته ، فلما ولى الخلافة استعان به فى أعمال عظيمة ، وقتل على ، وزياد على فارس يلى أمورها ويجبى خراجها ويحميها ، فخاف معاوية جانبه . وأشفق أن يكون وليا للحسن كما كان لأبيه ، وكتب معاوية إليه كتابا شديداً يدعوه إلى الطاعة ، فرد عليه زياد بكتاب أشد منه وأقسى ، جاء فيه :

« فأما سبك لى فلولا حلم ينهانى عنك ، وخوفى أن أدعى سفيها ، لأثرت لك مخازى لا يغسلها الماء ... وأما زعمك أنك تختطفنى بأضعف ريش . وتتناولنى بأهون سعى . فهل رأيت بازيا يفزعه صغير القنابر ؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟ فامض الآن لطيتك (١) واجهد جهدك . فلست أنزل إلا بحيث تكره . ولا أجتهد إلا فيما يسوءك . وستعلم أينا الخاضع لصاحبه الطالع إليه . والسلام »

وخشى معاوية شره واستعان عليه بالمغيرة بن شعبة فوعده ومناه . كما وعده معاوية ومناه . وألحقه بأبى سفيان . وولاه البصرة وأمورها مضطربة ، والأمن فيها مختل ، فبقى واليا عليها حتى مات المغيرة بن شعبة والى الكوفة ، فجمعهما له سنة ٥٠ هـ . وبقى واليا حتى مات سنة ٥٣ هـ .

عرف زياد بالذكاء وحسن الإدارة والقسوة على المخالفين . ورويت له فى ذلك أخبار أشهرها قسوته على أهل البصرة ، حتى أمن السبل وأقر الأمن .

أدبه صورة من نفسه :

وكانت حياته الأدبية صورة من حياته فى السياسة ، وصدى لما فى طبعه من شدة وقسوة ، وما فيها من إحساس بضعف النسب ، فأراد أن يشغل الناس عنه بهذه الشدة ، وبما وهبه الله من قوة البيان وقوة العقل . ونستطيع أن نرجع أدبه إلى هذه العوامل كلها مجتمعة . أما المواقف التى ظهر فيها هذا الأدب فكان أكثرها فى أيام معاوية ، ولا يكاد يذكر له الرواة أدبا قبل ذلك ، مع أنه كان له خبر مشهور من قبل عهد معاوية بعشرين

(١) الطية : الضمير والنية : والمراد : نفذ ما أضمرته ونويته .

عاما ، كثر الأخذ والرد بينه وبين معاوية فى ضمه إليه ، واستلحاقه بأبى سفيان. ولجأ معاوية إلى الدهاء والحلم حتى استجاب له زياد ، وشايعه فى كراهة على وشيعته ، بعد أن كان عنيفا فى خصومته لمعاوية . وتظهر لباقته فى التمهيد لهذا التغير ، بخطبة خطبها فى الناس ، لما جاءه المغيرة بن شعبة بكتاب (١) من عند معاوية ، يتلطف فيه ، ويستدنيه منه . وانضم إلى الكتاب دهاء المغيرة أيضا . فتريث زياد يومين أو ثلاثة يفكر ثم جمع الناس فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله فى دوام العافية لكم ، فقد نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحى . فى كل عيد يذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصفين ، ما ينيف على مائة ألف ، كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فان كان الأمر هكذا ، فالقاتل والمقتول فى الجنة . كلا : ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم. وإنى لخائف أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرىء بسلامة دينه ؟ وقد نظرت فى أمر الناس فوجدت أحمد العاقبتين العافية . وسأعمل فى أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته (٢) ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وأدرك زياد قوة بيانه ، وقدرته على اللعب بالأهواء والعقول ؛ فى كتابه الذى أرسله إلى معاوية بعد هذه الخطبة ، ردا على رسالته التى بعث بها إليه مع المغيرة قال فيه :

« إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا ، فستزرع فى قلبى مودة وقبولا . وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا ، وفساد نية ، فان النفس تأبى ما فيه العطب . ولقد قمت يوم قرأت

---

(١) أوردنا بعض هذا الخطاب فى ص ٦٨ من هذا الكتاب .

(٢) المغبة : العاقبة

كتابك مقاما يعيا به الخطيب المدره (١) ، فتركت من حضر ، لا أهل ورد ولا صدر (٢) ، كالمتحيرين بمهمه (٣) ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » . وختم كتابه بأبيات من الشعر .

تحس من هذا القول الأخير أنه خطب تمهيداً للتحول من الولاء لعلى وأهله ، إلى الولاء لمعاوية ، والرضا بفكرته فى استلحاقه . وهو تمهيد يحتاج إلى لباقة ، وحسن دخول على العهد الجديد ، بحيث يتقبل الناس منه هذا التحول بقبول حسن . ووضح هذا فى خطبته ، بدعوة الناس إلى أن يدفعوا البلاء ما اندفع عنهم ، وأن يرغبوا إلى الله فى دوام العافية . ثم يشككهم فيما كانوا يعتقدون أنه حق منذ قتل عثمان ، وقال إن الأمر أشكل على الناس وإن أحمد العاقبتين العافية . وبهذا هيأ نفوس الناس لطاعة معاوية ، وأعد أذهانهم لقبول خلافة أخرى تعادى خلافة على . ومثل هذه المواقف مما يعيا به الخطيب المدره ، فاذا نجح الخطيب فى أن يترك « من حضر ، لا أهل ورد ولا صدر ، كالمتحيرين بمهمه ضل بهم الدليل » ، وتركهم يتشوقون إلى منقذ من هذا الضلال ، يسلمون إليه قيادهم طائعين راضين . فقد نجح فى خطبته نجاحاً كبيراً

أثر الدين فى أسلوبه :

لم يكن زياد يقتبس من القرآن أو الحديث فى خطبه ، ولا يشير إلى آدابهما أو أحكامهما فى هذه الخطب . وربما كان ذلك ناشئاً من مخالفته عن أمرهما . وتجد هذه المخالفة واضحة فى خطبته « البتراء » فانه أقسم بالله ليأخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى

(١) المدره بكسر الميم : المتكلم بلسان القوم عند الخصومة .

(٢) الورد بكسر الواو الاشراف على الماء . والصدر : بفتح الصاد والدال : الرجوع من الماء : والمراد تركتهم متحيرين لا إلى هذا الرأى ولا ذلك .

(٣) المهمه : المفازة والبلد القفر .

والصحيح بالسقيم ، وتلك سياسة يأباها الدين ، وعلق على ذلك أبو بلال مرداس بن أدّية همسا فقال : « أنبأنا الله بغير ماقلت : قال الله تعالى : « وإبراهيم الذى وفّى، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى » ، وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ،والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر . فسمعه زياد فقال : « إنا لانبلغ مانريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً » .

أما رسائله فجاء فيها هذا الاقتباس فى موقف يظهر فيه الضعف الإنسانى فى أجلى معانيه ، عند المصيبة فى الأولاد ، أو الخوف عليهم . وذلك أنه لما امتنع بفارس ، وأبى أن يحمل إلى معاوية ماطلبه من الأموال التى فى يده ، وأن يُقبل عليه ، أخذ بُسر بن أبى أرطاة أبناءه الصغار فحبسهم، وكتب إلى زياد :

« لتقدمن على أمير المؤمنين أو لأقتلن بنيك». فكتب إليه زياد : « لست بارحا مكانى الذى أنا به حتى يحكم الله بينى وبين صاحبك ، فان قتلت من فى يديك من ولدى ، فالمصير إلى الله سبحانه ، ومن وراثنا ومن وراثكم الحساب ، «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ولولا أبوبكرة أخو زياد ، ورحلته إلى معاوية فى شأنهم ، لقتلهم بسر أو صلبهم .

أما أثر ولادته مغمور النسب فى نفسه فقد ظهر على لسانه أكثر من مرة . فتراه يدفع التهمة عن أمه باتهام غيره ، ويعيرهم كما عيروه : كتب إليه معاوية وهو ممتنع بفارس : « أمس عبد واليوم أمير ! خطة ماارتقاها مثلك يابن سمية » . فكتب إلى معاوية : « وأما تعييرك لى بسمية ، فان كنت ابن سمية فأنت ابن حمامة (١) ». ولما استلحقه معاوية بشهادة الشهود الذين أعدهم لذلك بدا عليه الفرح بهذا النسب فى قوله : « أيها الناس ، هذا أمر لم أشهد

(١) حمامة : جدة معاوية ، أم أبيه أبى سفيان . وكانت بغيا فى الجاهلية صاحبة راية . شرح ابن أبى الحديد ج ١ ص ١٥٧

أوله ، ولا علم لى بآخره . وقد قال أمير المؤمنين مابلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم . فالحمد لله الذى رفع منا ماوضع الناس ، وحفظ منا ماضيعوا » .

وكان حريصا على أن يكتب إلى الناس وأن يكتبوا إليه منسوبا إلى أبى سفيان ، وكتب إلى عائشة رضوان الله عليها كتابا بدأه :

« من زياد بن أبى سفيان » .

فردت عليه : « من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد »

ومن رسائله التى جاوز فيها حد الأدب ، وتدلى إلى درجة سافلة من من الشتم ، رسالة [١] كتبها إلى الحسن بن على رضى الله عنه ، لأنه خاطبه ولم ينسبه إلى أبى سفيان ، وقدم نفسه عليه . فكتب إليه زياد :

« من زياد بن أبى سفيان إلى الحسن بن فاطمة . أما بعد . فقد أتانى كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلى . . . . الخ . فلما ورد الكتاب على الحسن عليه السلام قرأه وتبسم ، وكتب بذلك إلى معاوية ، وبعث كتاب زياد معه إلى الشام ، وكتب ردا على زياد :

« من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمية »

« أما بعد فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الولد للفراش وللعاهر الحجَر ، والسلام » .

وقد أنصف الحسن إذ نسب نفسه إلى أمه ، ففضلها ومنزلتها وشرفها تسمو بكل من ينتسب إليها ، ولا يقارن بها مثل أم زياد إلا عند مقارنة الأضداد . وقد تكفل معاوية فى رده على زياد ببيان هذه المقارنة فقال له: « وأما كتابك إلى الحسن باسمه واسم أمه ، ولا تنسبه إلى أبيه ، فان الحسن، ويحك ! من لايرمى به الرجوان [٢] ، وإلى أى أم وكلته لا أم لك !

---

(١) سبقت هذه الرسالة ص ٩٦

(٢) مثنى رجا كعصا ، والرجوان جانبا البئر من أعلاها إلى أسفلها والمراد من لا يستهزأ به ولا يستهان .

أما علمت أنها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذاك أفخر له لو كنت تعلمه وتعقله .

وربما حمل بطش زياد وشدته على ضعة نسبه ، فى عصر علا فيه شأن الأنساب ، والتفاخر بالآباء ، والذى أشعره بهذا الضعف وقواه فيه هو معاوية ، كى يستلحقه بنسبه ، فيستعين بدهائه وكفايته على أمور دنياه وتوطيد ملكه ، وقد أثارت هذه المسألة كثيرا من الجدل حوله وحول أمه. وكان يؤلمه أن يكون للناس آباء ولا أب له ، وأن يكون نسبه موضع غمز وطعن . فجمع أنساب القبائل فى كتاب ، ودفعه إلى ابنه . ليستعين به على رد المطاعن إذا هوجم . ولم يظهر لهذا الكتاب خبر غير ما أخبر به ابن النديم . فاذا صح هذا كان زياد أول من ألف فى الأنساب .

وقد تذكر له أخبار فى حرصه على الفصاحة وتألمه إذا سمع لحنا . وهذا طبيعى من عربى فصيح مثل زياد تؤذى سمعه العجمة ، وينفر طبعه من اللحن .

وكان له شأن مع بعض الشعراء ، إذ كانت هذه الناحية ناحية نفذوا منها إلى زياد فأكثروا من الطعن فيه ، وفى أولاده من بعده . وليزيد بن مفرغ الحميرى شىء من هذه المطاعن فى سمية أو فى ذريتها .

وكان الفرزدق يخشاه ، وهجر البصرة لما طلبه ، وفر منه إلى سعيد بن العاص وهو وال على المدينة لمعاوية وقال :

ألا من مبلغ عنى زيادا ... مغلغلة يخب بها البريد
بأنى قد فررت إلى سعيد ... ولا يسطاع مايحمى سعيد
فررت إليه من ليث هزبر ... تفادى عن فريسته الأسود

وفى شعر الفرزدق شهادة صادقة لزياد ، فانه كان ليث العراق ، سطا فيه بمن شذ عن سلطانه وبطش بالخارجين على الولاء لمعاوية ، أو على القانون العام .

كما كان له شعراء يمدحونه فيعطيهم ، ويغفر لهم خطاياهم ، ومنهم حارثة ابن بدر الغدانى ، من تميم ، وكان قابلا لرأيه محتملا لما يعلمه من تناوله الشراب (١).

وكانت إمارته واسعة تشمل العراق وما وراءه من بلاد المسلمين فى الشرق . ولكنه أراد المزيد ، فكتب إلى معاوية :

« إنى قد ضبطت لك العراق بيمينى ، وبقيت شمالى فارغة » : يعرض له بالحجاز . فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فرفع يده إلى السماء وقال : « اللهم اكفنا شمال زياد » . فأصابه جرح فيها فقتله . ومن هذا نرى مبلغ اعتزازه بكفايته فى تثبيت الأمن وحمل الناس على الطاعة والخضوع للنظام . فالعراق التى كانت ثائرة على معاوية ، وكانت ثائرة على القانون ، وأسرف زياد فى الشدة على أهلها ، وعلى الشيعة فيها حتى ضرب المثل بالأمن والقسوة فيها أيامه ، لم يصرف من جهده فيها إلا النصف ، وضبطها بيمينه وبقيت شماله فارغة . ومات سنة ٥٣ هـ ، فرثاه مسكين الدارمى فقال :

رأيت زيادة الأسلام ولت جهارا حين ودعنا زياد

فأنكر عليه الفرزدق هذا الرثاء وقال :

أمسكين أبكى الله عينك ، إنما جرى فى ضلال دمعها فتحدرا
بكيت على علج بميسان كافر (٢) كسكسرى على عداته أو كقيصرا
أقول له لما أتانى نعيه به لا بظبى بالصريمة أعفرا (٣)

وقال حارثة بن بدر يرثيه :

صلى الإله على قبر وطهره عند الثوية يسفى فوقه المور
زفت إليه قريش نعش سيدها فثم كل التقى والبر مقبور

(١) أغانى جـ ٢ ص ٥
(٢) العلج : الاعجمى ، ميسان : قرية بين واسط والبصرة
(٣) الصريمة : الرمل الكثير ، الأعفر لونه كلون التراب

ثم يقول له :

فالحمد زادك لم تلحقك باثرة وأنت فى صالح الأقوام مذكور

لو خلد الخير والاسلام ذا كرم إذاً لخلدك الاسلام والخير

قالوا إنه كان يتشبه بعمر بن الخطاب فى شدته ، ولكن أين الثريا وأين الثرى !.

أما أدبه ، وخطابته خاصة ، فهذه شهادة الشعبي له، وهي: « ماسمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن، إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء ، إلا زيادا فانه كلما أكثر كان أجود كلاما . »

وما زالت خطبته « البتراء » من أجود وأقوى ماجرى به لسان خطيب على منبر .

بنو مروان

(١)

أبوهم مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، كان الحكم كاتباً لعثمان بن عفان رضى الله عنه وكان مروان كاتباً له أيضاً بعد موت الحكم ، وربما كان اتصالهما بعثمان سبباً من أسباب الفتنة الكبرى التي ثارت فى الأمصار ، وأدت إلى قتل عثمان . فقد أخذ عليه المسلمون أنه رد الحكم إلى المدينة . بعد أن نفاه منها رسول الله ﷺ ، وأبى صاحباه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أن يرداه ، ولم يقبلوا جميعاً شفاعة عثمان فيه . ومات الحكم ، فكان ابنه مروان سبباً مباشراً فى قتل عثمان ، بما نسب إليه من كتاب أرسله إلى عامل مصر ، يأمره فيه بقتل الثوار الذين كانوا قدموا المدينة ، خارجين على عثمان . فأخذوا الكتاب وعادوا به إلى عثمان ، وأخبروه أنهم ضبطوه مع رسوله مختوما بخاتمه ، فحلف لهم أنه لا يعلم من أمره شيئاً ، فاتهموا مروان ، وسألوا عثمان أن يسلمه إليهم ، فأبى خوفا عليه من القتل .

ولا نسمع عن مروان بعد ذلك إلا فى أيام معاوية واليا له على المدينة ، أو وافداً عليه فى الشام .. وأكثر ما نسمع عنه فى هذا العهد شديد الصلة بالأدب ؛ فإنا نسمع به فى مجالس معاوية يخاصم ابن عباس ، فيجيبه حبر قريش بما يدمغه [١] ويسائل الحسن بن على فى مجلس معاوية ، فيرد عليه الحسن بما يخزيه [٢] ويخزى بنى أمية معه ، ونسمع به خطيباً فى مجلس معاوية ، غاضباً ثائراً ، لما عزله عن المدينة ، إذ اعتقد فيه التقصير والكراهة لبيعة يزيد [٣] . وغضب معاوية منه يومئذ غضبا شديداً ، ولكنه كظم غيظه . وقد أشرنا إلى موقفه من هذه البيعة ، وما كان بينه وبين عبد الرحمن

---

(١) جمهرة خطب العرب للاستاذ صفوت ص ٩٤ — ٩٥

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ١١٥

(٣) جمهرة المصدر الاول ص ٢٣٤

ابن أبي بكر بسببها . فله ذكر فى المحاورات والأجوبة ، وله ذكر فى الرسائل ، وكان له ذكر مع الشعراء ؛ فإن الفرزدق وفد على المدينة هاربا من زياد فمدح سعيد بن العاص فقال فيه :

ترى الغر الجحاجح من قريش إذا ما الخطب فى الحدثان غالا
وقوفاً ينظرون إلى سعيـــد كأنهمو يرون به هـــلالا

فكرهها منه مروان وقال : لم يرض إلا أن جعلهم قياما ينظرون إلى سعيد ، هلا جعلهم ينظرون إليه وهم قعود ! ثم عزل سعيد وولى مروان ، فتحين الفرصة حتى قال الفرزدق شعراً يروى به حادثة من حوادث فسوقه ، فأخرجه عن المدينة فخرج منها يريد اليمن . وقيل إن مروان لما أخرجه من المدينة أرسل إليه من يبلغه عنه :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس
ودع المدينة إنهـــا محظورة والحق بمكة أو ببيت المقدس

ولكنه أراد إكرامه فى الطريق ، فكتب معه إلى بعض عماله بين مكة والمدينة بمائتى دينار له ، فارتاب فى كتاب مروان وعاد إليه فقال :

مروان إن مطيتى معقولة ترجو الحباء وربها لم ييأس
وأتيتنى بصحيفة مختومة يخشى على بها حباء النقرس (١)
ألق الصحيفة يا فرزدق لا تكن نكدا كمثل صحيفة المتلمس

ورمى بها إلى مروان فضحك وقال : ويحك إنك أمى لا تقرأ ، فاذهب بها إلى من يقرؤها . فلما قرئت له وجد فيها جائزة ، فعاد بها إلى مروان فختمها له . وليس يهمنا كثيرا ما يبدو فى هذه القصة من روح تجعلها أقرب إلى المزاح منها إلى الجد ، فلعل مروان أخرجه إرضاء لشعور الناس ، ثم خشى لسانه فاسترضاه بهذه النقود . ونكتفى بدلالتها على صلة مروان بالشعراء

وسمعنا به فى وقعة الحرة فى أيام يزيد ، فإنه كان شيخ بنى أمية

(١) ص ٢٢٥ (٢) يخشى على الهلاك والعاهة

بالمدينة ، وقد حصروا فى داره حتى خرجوا منها ، على ألا يدلوا جند الشام على مواطن الضعف فى المدينة . ولم يفوا بعهدهم .

وكادت الخلافة تخرج من بنى أمية إلى عبد الله بن الزبير بعد موت معاوية الثانى سنة ٦٤ هـ ، لولا رجال من أنصار بنى أمية منهم ، حسان بن مالك ابن بحدل الكلبى ، وكان على فلسطين والأردن ، ومنهم روح بن زنباع . وقد أبوا أن ينتقل الملك من الشام إلى الحجاز ، وفكروا فى عمرو بن سعيد الأشدق ، وفى خالد بن يزيد بن معاوية ، ثم عدلوا عنهما إلى مروان بن الحكم ، فقالوا له : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر . فقبل ، وبويع له فى الشام ، وجمع الجيوش لحرب ابن الزبير وأعوانه . وكان هؤلاء أعوانا لبنى أمية من قبل ، ومن أهم المعارك التى انتصر فيها معركة « مرج راهط » ، انتصر على الضحاك بن قيس فى المحرم سنة ٦٥ هـ ، وقتل فيها من قيس مقتلة عظيمة ، ثم سار إلى مصر ففتحها وبايعه أهلها .

وقال زفر بن الحارث الكلابى وكان مواليا لابن الزبير « فى مرج راهط » :

أرينى سلاحى لا أبا لك إننى ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب أنه ... مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
فنى العيس منجاة وفى الأرض مهرب ... إذا نحن رفعنا فهن المثانيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهط هى ما هيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط ... لحسان صدعا بينا متنائيـــا

وكان لروح بن زنباع الجذامى ، وعبيد الله بن زياد ، فضل عظيم على مروان فى الوصول إلى الخلافة ، قولا وعملا وتدبيرا . فالذى دعاه إليها عبيد الله ابن زياد ، والذى دبر له إعلانها وقبول الناس لها روح بن زنباع ؛ فإنه قال له : إن معى أربعمائة من جذام ، فأنا آمرهم أن يتقدموا فى المسجد غدا ، وآمر أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك

تنادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت . فيظن الناس أن أمرهم واحد.

واجتمعوا فى الغد ، فقام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قريش وسيدها . والذى نفسى بيده ، لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر ، فقال الجذاميون صدقت . وقام روح ابن زنباع فحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب فبين أن عبد الله بن عمر - على فضله وقدم صحبته - رجل ضعيف ، ولا يصلح الضعيف لأمة محمد ﷺ وأن عبد الله بن الزبير ابن حوارى رسول الله ، وابن أسماء ذات النطاقين ، وأنه صاحب فضل وقدم فى الإسلام ، ولكنه منافق ، خلع خليفتين. وابن المنافق صاحب أمر هذه الأمة ، ثم قال : « وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الاسلام صدع قط إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع . وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذى قاتل على ابن أبى طالب يوم الجمل . وإنا نرى للناس أن يبايعوا للكبير ويستشيروا الصغير » - يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد -

فبايع الناس لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمرو بن سعيد ابن العاص من بعد خالد . ولكن مروان عهد بالأمر لابنه عبد الملك ثم لابنه الثانى عبد العزيز . ومات فى رمضان سنة ٦٥ هـ . فخلفه ابنه عبد الملك .

٢ - عبد الملك

روى عن عامر الشعبي أنه قال : « ماذاكرت أحدا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك ، فإنى ماذاكرته حديثا إلا زادنى فيه ، ولا شعرا إلا زادنى فيه » . وقد تكون هذه الشهادة صادقة ، عظيمة القيمة ، لأن قائلها موضع الثقة ، فهو من سادات التابعين ، وكان قريبا من عبد الملك زمنا طويلا ، فكان مؤدب أولاده ، ووافدا من لدنه إلى ملك الروم .

على أن الأدلة متوافرة على صدقها أيضا ، فان عبد الملك أشهر خلفاء بنى أمية فى الأدب عامة ، وفى حديث الشعر بوجه خاص .

ولكن عبد الملك قد أهمله التاريخ فى شبابه ، لاهتمامه بما هو أهم . فلم يعن الرواة به كثيرا قبل الخلافة التى وليها فى التاسعة والثلاثين من عمره ، ولم يذكروا عنه إلا أنه هو الذى أشار على مسلم بن عقبة أن يدخل المدينة من جهة الحرة ، لما أرسله إليها يزيد بن معاوية . فقد روى أن مسلما لقى رجال بنى أمية بوادى القرى خارجين من المدينة إلى الشام ، بعد أن فك أهل المدينة حصارهم . فدخل عليه عبد الملك ، ثم دخل عليه أبوه من بعده ، فقال مسلم لمروان : إيه ؟ فقال مروان : أليس قد دخل عليك عبد الملك ؟ قال : بلى ، وأى رجل عبد الملك ! قلما كلمت رجلا من رجال قريش شبيها به ! قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتنى .

والذين تحدثوا عنه من الرواة فى شبابه ، يذكرون أنه كان عاقلا حازما أديبا لبيبا . وكان معدودا من فقهاء المدينة ، يقرن بسعيد بن المسيب وعروة ابن الزبير . وروى صاحب العقد قال : قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيا وحزما ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا » (١) . ولعل حرص أبيه على توليته العهد كان بعد نظر منه ، ووضعا للثقة فى موضعها . وعرفه المؤرخون المؤسس الثانى للدولة الأموية . وسموه « أبا الأملاك » .

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٨

حكم عبد الملك حوالى عشرين عاما ، كانت البلاد الاسلامية فى أولها غير مستقرة على خلافة واحدة ، ولا مجمعة على إمام واحد ، فاستطاع عبد الملك أن يجمع أمرها فى يديه ، وأن يخضعها لخليفة دمشق ، وأن يزيد فى أملاكها بلادا أخرى فى الشرق والغرب ، ولم تشغله الجهود التى بذلها فى القضاء على خلافة ابن الزبير ، ولا على ثورات العراق ، ولا على الخوارج ، من أن يترك لتاريخ الأدب حديثا عظيما ، وآثارا فى توجيهه كآثار معاوية أو تزيد . بل إن هذه الجهود التى بذلها لم تستغن عن الأدب ، كما لم يستغن عن الاستعانة برجال الأدب أيضا ، فأعانه الأدب ورجاله على نجاح هذه الجهود .

خطبه :

لا يعنى الرواة إلا بأعظم الخطب ، لأعظم الناس ، فى أعظم المواقف ، وقل أن يعنوا بغير ذلك . فاذا سلمنا بهذا أدركنا بعض السر فى قلة ماروى لنا عن الذين تؤرخ لهم من أعيان الأدباء ، فى عصور الرواية والحفظ ، فان خطيبا كعبد الملك تعد خطبه على الأصابع ، كما عدت خطب معاوية على الأصابع ، إلا أن هذه الخطب أهم ماقال ، لاهتمام الناس بالحوادث التى قيلت فيها ، وتأثرهم بقوة بيانها ، ونجاحها فى تحقيق الغرض منها .

خطبته بعد قتل عمرو بن سعيد :

روى أن أول خطبة مشهورة له هى خطبته بعد قتل عمرو بن سعيد الأشدق قال : « ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غبر (١) منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا (٢) من حسن الاعتبار فتنزل بكم جائحة السطوات (٣) ، وتجوس خلالكم بوادر النقمات (٤) ، وتطأ رقابكم بثقلها

(١) غبر : بقى (٢) جمع غفل بضم فسكون : أى لا تتجردوا منه
(٣) للهلكة المستأصلة (٤) تجوس : تفتش . البوادر : العاجلة

العقوبة، وتتركـكم همدا رفاتا (١)، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا. فإياى من قول قائل، ورشقة جاهل، فانما بينى وبينكم أن أسمع النغوة (٢) فأصمم تصميم الحسام المطرور (٣)، وأصول صيال الحنق الموتور، وإنما هى المصافحة والمكافحة بظبات (٤) السيوف، وأسنة الرماح، والمعاودة لكم بسوء الصباح، فتاب تائب، وهدل (٥) خائب، والتوب مقبول، والاحسان مبذول، لمن عرف رشده، وأبصر حظه، فانظروا لأنفسكم، وأقبلوا على حظوظكم، وليكن أهل الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم. واستديموا النعمة التى ابتدأتكم برغيد عيشها، ونفيس زينتها، فانكم من ذلك بين فضيلتين: عاجل الخفض والدعة، وآجل الجزاء والمثوبة، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغه، وأمدكم بحسن معونته وحفظه. انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم، غير مقطوعة عنكم، ولا مكدرة عليكم».

الظرف الذى قيلت فيه:

هذه خطبة فى أعقاب فتنة كادت تذهب بملك عبد الملك فى أوله، ذلك أن مروان كان وعد عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص بالخلافة. ثم أخذها عبد الملك بعد أبيه، وكانت العراق خارجة عن سلطانهم فبعضها ثائر، ويدين أكثرها بالطاعة لابن الزبير، فلما خرج لقتال مصعب هناك. خالف عليه عمرو بن سعيد هذا، فعاد عبد الملك إليه وحاصر دمشق، ثم صالحه على أن يكون له الأمر من بعده. ولـكنه دعاه يوما فذهب إليه فى جيش، فاحتال عليه عبد الملك، وقتله غدرا بعد هذا الصلح. وفرق فى الناس الدنانير. ثم خرج فخطبهم هذه الخطبة. فى أعقاب هذه الفتنة، وبعد أول غدر حدث فى الاسلام، والجنود متفرقو الأهواء وولاؤهم موزع، وعهدهم بعبد الملك قريب، مع حاجته إليهم لحروبه.

---

(١) الهمد: البالى: الرفات الحطام البالى (٦) أول الخبر قبل التثبت منه

(٣) الشحوذ (٤) جمع ظبة: بضم الظاء: أطرافها

(٥) هدل: ضعف وخار

وفى هذه الظروف كلها خطب عبد الملك هذه الخطبة . وكان موقفه شاقا دقيقا ، ولكنه وزن كل كلة منها بميزان . وساقها لحكمة ، وأوردها كى يثير بها عاطفة . أو يرهب بها نفساً ، أو يفزع بها صدراً ، أو يستميل بها قلباً ، أو يذهب شكا ، أو يفتن طامعا ، أو يغرى آملا .

أما الأهداف الرئيسية التى رمى إليها عبد الملك فهى :

(١) أن ينظر الناس بعين الاعتبار إلى مانزل بغيرهم لئلا يصيبهم ماأصابهم .

(٢) وأن يحذر القوم التفكير فى الفتنة ثانيا ، فوراء هذا أسنة الرماح .

(٣) وأن يعودوا إلى أنس الطاعة ومافيها من نعمة ، فذلك خير من وحشة المعصية وماتجره من بلاء .

فاشتد فى الكلام عن المعنى الأول شدة مرعبة ، فبين ماتجره المعصية من بلاء . وأن حسن الاعتبار هو الذى يعصمهم من هذا البلاء ، وما هذا البلاء ! إنه السطوات المهلكة . والنقم العاجلة ، التى تفتش عنهم فى ديارهم ، لاينجو منها أحد من الخارجين ، وتطأ رقابهم فتتركهم حصيداً خامدين . ولعل الذين سمعوا تلك الجملة ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة ، فتترككم همدا رفاتا ، قد أحسوا بأنفاسهم تختنق من ثقل وطأتها قبل أن تنزل بهم العقوبة أو تحل قريبا من دارهم .

ثم أسرع إلى الحديث عن العقاب بلا تحقيق ، والتهديد بأن يبطش بلا تثبت . فلما أظهر ماعنده لأهل المعصية ، والذين لايعتبرون ، والذين يخوضون فى الباطل ، ويتحدثون عن الفتن ، أو يذكر اسمهم فيها ، وأحس أنه أدرك غايته من التهديد والوعيد ، لم يترك الناس فى يأس من عفوه . ولم يفقدهم الأمل فى بره وخيره ، فخفف من حدته ، ودعا إلى الطاعة ، ففى ظلها الأمن والدعة ، والعيش الرغيد ، وانتقل من ظلمة اليأس إلى نور الأمل والرجاء ، فأخبرهم أن التوب مقبول . وأن الاحسان مبذول . وأن دوام نعمته التى ابتدأهم برغيد عيشها ممكن بالولاء والطاعة ، ثم دعا الله أن يحفظهم من فتنة الشيطان : ودعاهم أن ينهضوا لقبض أعطياتهم كاملة هنيئة .

وقد تخير لكل معنى ألفاظه وجمله . فكانت الشدة والعنف ، ورهبة التراكيب فى التهديد ، ثم اللين والسهولة والسماحة فى الاغراء والوعد ، وقد جسم النقم العاجلة ، فجعلها متحركة تفتش عنهم فى خلال ديارهم ، وجعل العقوبة الثقيلة تطأ رقابهم ، وصور لهم ماينتظرهم بهذه الصورة الثقيلة تصويرا مفزعا .

واستعان بالسجع أو اتزان الفواصل ، فكان زخرفه اللفظى قويا يصل بموسيقاه إلى القلوب فى حالى التهديد والإغراء ولعله ابتدأ بالتهديد والإعذار إليهم ، كى لايظنوا به ضعفا أو خوفا ، وليذهلهم عن أنفسهم إذ يكشف لهم عما ينتظرهم إن لم يعتبروا ، ثم كشف عن ناحية أخرى من نفسه يعلمونها ، هى العطاء والاحسان : فدعاهم أن يستديموا نعمته التى عرفوا رغد عيشها ، ونفيس زينتها .

فاذا كانت هذه الخطبة قد لمست أوتار القلوب فأفزعتها فى أولها وطمأنتها فى آخرها . ولعبت بها فى الحالين فأسلمت زمامها لقوة البيان فذلك شأن الخطيب العظيم ، وكذلك كان عبد الملك .

خطبته بعد قتل مصعب

وهناك خطبة أخرى مشهورة له ، وهى التى قالها بعد مقتل مصعب فى العراق سنة ٧١ هـ . وقد كان هذا الظرف أخف ، ولعل نفس عبد الملك كانت أكثر هدوءاً ، إذ أنه قد نجح فى القضاء على قوة ابن الزبير فى العراق ولم يبق أمامه إلا الحجاز . وقد مهد له مصعب الأمر فى العراق بقضائه على فتنة المختار سنة ٦٧ هـ . وكانت جيوشه قد قضت على كثير من الشيعة الذين سموا أنفسهم التوابين ، وذلك فى «عين الوردة» سنة ٦٥ هـ .

أما أمر هذه الخطبة وما سبقها من خروج عبد الملك فجدير بأن نثبته هنا لأنه من صميم الأدب الذى يتعلق بعبد الملك .

جاء فى الأمالى (١) : « أن عبد الملك بن مروان ـ رحمه الله ـ كان يوجه إلى مصعب جيشا بعد جيش فيهزمون ، فلما طال ذلك عليه واشتد غمه أمر الناس فعسكروا ، ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما أراد الركوب قامت إليه أم يزيد ابنه ـ وهى عاتكة بنت يزيد بن معاوية ـ فقالت : يا أمير المؤمنين ، لو أقمت وبعثت إليه لكان الرأى . فقال ما إلى ذلك من سبيل ، فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب ، فلما يئست منه رجعت ، فبكت وبكى حشمها معها ، فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك فقال : وأنت أيضا ممن يبكى ! قاتل الله كثيرا ! كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه ... حصان (٢) عليها نظم در يزينها
نهته ، فلما لم تر النهى عاقه ... بكت ، فبكى مما شجاها قطينها (٣)

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج :

ولما قتل مصعب، دخل عبد الملك الكوفة فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى محمد ﷺ ، ثم قال :

أيها الناس إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا الحرب وزبناها (٤) فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهى أمنا . أيها الناس ، فاستقيموا على سبل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية (٥) وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرا ، ولن نزداد بعد الاعذار إليكم ، والحجة عليكم إلا عقوبة ، فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

من يصل نارى بلا ذنب ولا ترة ... يصل بنار كريم غير غدار (٦)
أنا النذير لكم منى مجاهرة ... كى لا ألام على نهى وإنذار (٧)

---

(١) ج ١ ص ١٣ (٢) حصان : عفيفة (٣) قطينها : خدمها (٤) زبن : بلاغ الزاى وسكون الباء الدفع (٥) المهلكة : الموقعة فى الردى (٦) من يتعرض نفسه لحرارة نارى وليس مذنبا ولا ثأر لى عنده يجدنى كريما وفيا (٧) على ترك نهى .

فإن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا (١) أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار
لترجعُن أحاديثاً ملعّـــنة (٢) لهوَ المقيم ولهو المدلج السارى (٣)
من كان فى نفسه حوجاء يطلبها عندى فإنى له رهن باصحار (٤)
أقيم عَوجته إن كان ذا عوج كما يقوم قدحَ النبعة البارى (٥)
وصاحب الوتر ليس الدهرَ مدركه عندى وإنى لدراك بأوتار

هذا عبد الملك يخطب فى العراق بعد مقتل مصعب . ولم يبق خارجا عليه إلا الحجاز . وهو بلد غير ذى زرع، إذا حوصر استسلم ، وابن الزبير فيه غير محبوب ، حبس محمد بن الحنفية وآل البيت ، وأغضب منه الخوارج والشيعة وأهل العراق . وعبد الملك يعرف هذا كله ، ويعرف قوته وقوة رجاله وقواده ، وولاءهم له فلا عجب أن تكون نفسه أكثر هدوءا واطمئناناً ، وأن تكون خطبته هذه أكثر لينا وسهولة من خطبته بعد قتل عمرو الأشدق ، ولكنها لم تخل من الحزم والعزم ، والوعد والوعيد . فالحرب صعبة مرة . والسلم أمن ومسرة . ولكن صعوبة الحرب ومرارتها لا تخيفه ولا تزعجه ، فقد جربها وألفها كما تألف الأم ابنها ، والأبناء أمهاتهم ، ولعلها حبيبة إليه كما يكون الحب المتبادل بين الأم وأولادها ، فاذا حذرهم فلأنه حريص على أمنهم وراحتهم ، وإذا بيّن لهم مزايا السلام فذلك لخيرهم لا لخيره . وبهذا يستطيع جذب القلوب إلى السلام وينفرها من الحرب . وإذا كان يريد أن يتخلى عما يحب من الحرب فلأنهم أحب إليه ، وهو يريد أن يدفع عنهم صعوبتها وبؤسها ، ويبعد عنهم مرارتها وعلقمها . فليعملوا على تحقيق هذه الغاية . وليجتنبوا الأهواء المهلكة ، ولا يطلبوا منه مالا يقومون به ، وإذا أرادوا أن يكون كأبى بكر

---

(١) فاعرفوا واعلموا . (٢) يلعنكم من يتحدث بأحاديثكم . (٣) المدلج السارى : الماشى ليلا . (٤) من كان له عندى حاجة فانى أبرز له إلى الصحراء ولا استتر منه . (٥) القدح : قطعة خشب يعمل منها سهم . والنبع شجر متين تعمل منه السهام والاقواس ، والبارى الذى يبريها .

وعمر ، فليعملوا أعمال المسلمين فى عهد أبى بكر وعمر ، ثم يحذرهم ، فى ختام خطبته وإن يعودوا بعد .

وتعجبك فى عبد الملك ألفاظه التى تحمل معانيها قوية إلى السامع ، وتشعره بهذه المعانى فيحس بها إحساساً ماديا : وذلك فى جعله الحرب « مرة » ، وفى بيان صلته بالحرب ، بأنها أمهم وهم أبناؤها ، وفى الحديث عن الدافع للعراقيين إلى الخروج أنه « الأهواء » ، لا العقول ولا أوامر الدين .

ثم أسلوبه الجميل بسجعه الطبيعى ، والمقابلات التى تكسب الكلام جمالا غير مجلوب ، وتوازن الفواصل ، والجناس بين : « مرة » ، و « مسرة » ، « فعرفناها وألفناها » . ثم كثرة الأوامر التى تشعر بعزة السلطان ، ويزيدها العدل والصواب عزة وقوة .

والشعر فى موضعه من أقوى وأدق وأوفى مايمكن أن يكون فى مثل هذا الموقف . وقد يكون لخطبة كهذه من التأثير ماتقصر عنه معركة .

وبعد فان للأدب القوى تأثيراً فى النفوس أقوى وأكبر من أن نبينه فى سطور ، وشعور الناس بهذا التأثير القوى يختلف وقد يعز على البيان والايضاح ، وما المحاولة التى سبقت إلا بيان لجانب أو جوانب قليلة منه . وبقى له بعد ذلك سيطرته وسلطانه وفعله فى العواطف ، ولعبه بالأهواء .

رسائله :

كثرت رسائل عبد الملك ، بينه وبين قواده وولاته فى الميادين وفى الأمصار ، توجيها لهم إلى سياسة يتبعونها ، أو إشارة إلى خطل رأى منهم ليتجنبوه ، أو أمراً لهم بمنازلة عدو أو استبدالا لقائد بآخر ، أو بيانا لرضا أو سخط منه عليهم ، بسبب نجاح سياستهم أو فشلها ، وحسن خطتهم أو إخفاقها . وأكثر هذه الرسائل ليست من الرسائل التى تستدعى الوقوف عندها طويلا . ولا يهتم بها تاريخ الأدب إلا لأنها تمثل فترة من فترات الكتابة مرت بها فى تطورها :

لكن هناك من رسائل عبد الملك عدداً قليلا فى موضوعات أثارت انفعاله ونفسه ، وذكرته بالله واليوم الآخر . وأغضبته لله ورسوله، فكتب منفعلا فجاءت كتابته قوية ، غريبة عن النوع الذى ألفناه منه فى ضبط أمور الدولة وتصريف شئونها . من ذلك كتابه إلى الحجاج فى شأن أنس ابن مالك ، خادم رسول الله ﷺ . فقد أساء جواره ، وأهانه وشتمه ، وشتم الأنصار ، وسماهم الأشرار ، فكتب أنس بذلك إلى عبد الملك : وهذا هو الظرف الذى كتب عبد الملك فيه هذه الرسالة :

قال إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر : بعث إلى عبد الملك فى ساعة لم يكن يبعث إلى فى مثلها ، فدخلت عليه وهو أشد مايكون غيظاً وحنقا. فقال: ياإسماعيل ، ما أشد على أن تقول الرعية : ضعف أمير المؤمنين ، وضاق ذرعه فى رجل من أصحاب النبى ﷺ ، لايقبل له حسنة ، ولايتجاوز له عن سيئة : فقلت ، وما ذاك ياأمير المؤمنين ؟ قال : أنس بن مالك ، خادم رسول الله ، كتب إلى يذكر أن الحجاج قد أضر به وأساء جواره ! وقد كتبت فى ذلك كتابين ، كتاباً إلى أنس بن مالك ، والآخر إلى الحجاج ، فاقبضهما ، ثم اخرج على البريد ، فاذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك فادفع له كتابى ، وقل له : اشتد على أمير المؤمنين ماكان من الحجاج إليك ! ولن يأتى إليك أمر تكرهه إن شاء الله . ثم ائت الحجاج فادفع له كتابه ، وقل له : قد اغتررت بأمير المؤمنين غرة لاأظنه يخطئك شرها ! ثم افهم مايتكلم به ومايكون منه ، حتى تفهمنى إياه اذا قدمت على إن شاء الله .

فخرج اسماعيل هذا الى العراق ، وبدأ بأنس . وأبلغه رسالته وخوفه الحجاج وأفهمه أنه من الخير أن يذهب إليه يصالحه : فقبل أنس . ثم ذهب اسماعيل إلى الحجاج بكتاب عبد الملك اليه ، فجعل يقرؤه ، وجبينه يعرق فيمسحه بيمينه . ثم قال لاسماعيل . اركب بنا الى أنس . فقال له : لاتفعل ، فانى سأتلطف له حتى يكون هو الذى يأتيك : وكان كتاب عبد الملك الى الحجاج:

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عبد الملك بن مروان، الى الحجاج ابن يوسف

« أما بعد ، فإنك عبد طمت (١) بك الأمور فطغيت ، وعلوت فيها حتى جزت قدرك ، وعدوت طورك ، وايم الله . . . لأغمزنك كبعض غمزات الليوث الثعالب ، ولأركضنك ركضة تدخل منها فى وجارك . . . » ثم عيره بآبائه وعملهم ودناءتهم ثم قال : « وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، جرأة منك على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غِيَرِه ونقاته وسطواته على من خالف سبيله ، وعمد الى غير محجته ، ونزل عند سخطته » .

ثم قال، بعد أن سب الحجاج بما شاء من ذكر معايبه الجسمية، « وايم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرما ، وانتهكت له عرضا فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث اليك من يسحبك ظهراً لبطن، حتى ينتهى بك الى أنس بن مالك ، فيحكم فيك بما أحب . ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك ، ولكن لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

ولسنا فى حاجة الى التعليق على هذا الكتاب ، فقد أذهل الحجاج وأذهب صوابه ، ولولا تدبير اسماعيل بن عبد الله لاشتد كربه وحيرته . وقد انتهى الأمر باعتذار الحجاج إلى أنس رضى الله عنه ،وترضاه حتى رضى وكتب برضاه وقبول عذره الى عبد الملك . ولم يزل الحجاج له معظما هائبا حتى مات ، رضى الله عنه .

الرسائل الموجزة :

وأكثر رسائله كان موجزا على عادة الناس فى ذلك العصر ، وقد لايتجاوز بعضها سطراً واحداً . ومن أمثلة ذلك أن الحجاج كان يكره آل المهلب ويخشى يزيد بن المهلب ويود عزله ، فكتب الى عبد الملك يذكر له ولاء آل المهلب لابن الزبير ، وأنه لاوفاء لهم ، ويشير عليه بعزل يزيد من خراسان .فكتب إليه عبد الملك :

(١) علت .

« انى لاأرى نقصا بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير ، بل أراه وفاء منهم لهم ، وان وفاءهم لهم يدعوهم الى الوفاء لى » .

فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم ، فكتب إليه عبد الملك :

« قد أكثرت فى يزيد وآل المهلب ، فسم لى رجلا يصلح لخراسان»ففعل.

سبب الإيجاز :

وسبب هذا الإيجاز أنهم كانوا يكتفون بالإشارة عن العبارةويستغنون بالتلميح عن التصريح ، ويؤثرون مايكفى على الفضول والزيادة،وذلك لذكائهم ، ولأن الكتابة لم تصبح صناعة بعد ، ولم يكن هؤلاء من المتخصصين فيها ، وكانوا أمراء سادة ولايليق بهم إلا مثل هذه الرسائل التى تشبه الأوامر ، فى إيجازها ، ووجوب طاعتها وتنفيذها بلا مراجعة ولااستفسار . وقد يصل بعض هذه الرسائل إلى درجة الألغاز فلا يراجع الوالى خليفته ، ومن ذلك أن كتب الحجاج إلى عبد الملك يعظم أمر قطرى بن الفجاءة المازنى فكتب إليه عبد الملك :

« أما بعد ، فانى أحمـــد إليك السيف . وأوصيك بما أوصى به البكرى زيدا » .

فلم يفهم الحجاج ماعناه عبد الملك ، على ماهو عليه من رواية ومعرفة بالأخبار. وأعلن أن من أخبر الأمير بما أوصى به البكرى زيدا فله عشرة آلاف درهم. فقال رجل للحاجب أنا أخبره . فأدخله عليه ، فقال له : ماقال البكرى لزيد؟قال : قال لابن عمه زيد ـ والشعر لموسى بن جابر الحنفى ـ :

أقول لزيد لاتترتر [١] فانهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلى
فان وضعوا حربآفضعها وإن أبوا فشُب وقود الحرب بالحطب الجزل
فان عضت الحرب الضروس بنابها فعرضة نار الحرب مثلك أو مثلى

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين ، عرضة نار الحرب مثلي أو مثله . وصدق البكرى !

(١) الترترة : كثرة الكلام .

وفى هذا الشعر دليل لما قلناه ، وقد أشار إليه عبد الملك ولم يصرح اعتماداً على ثقافة الحجاج - وكان من النادر أن تخونه - فهو شعر جامع للنصيحة التى يريدها عبد الملك ، وواف بالغرض ، وفيه دعوة إلى الفعل وقلة الكلام ، وأن يهادنهم ماهادنوه ، ويعد للحرب وقودها ماحاربوه ، وأن يبذل كل ما يستطيع لأنه المقصود هو وخليفته أولا .

الشعر فى الرسائل :

وينتقل الحديث بنا إلى رسائل أخرى كان الشعر عمادها ، فان ابن الأشعث لما خلع عبد الملك ، بسبب شدة الحجاج ، كتب إلى الحجاج بهذا الخلع ، وجعل فى طى كتابه كتاباً إلى عبد الملك ، فأرسله الحجاج إليه ، وطلب منه مددا ليحارب به ابن الأشعث . وكان كتابه إلى عبد الملك الأبيات الأربعة الآتية - وهى لشاعر اسمه الحارث بن وعلة الجرمى :

سائل مجاور جرم هل جنيت لهم ... حرباً تزيل بين الجيرة الخلط (١)
وهل سموت بجرار له لجب ... جم الصواهل بين الجم والفرط (٢)
وهل تركت نساء الحى ضاحية ... فى ساحة الدار يستوقدن بالغبط (٣)

وتحتها بيت آخر على غير الروى . وهو :

قتل الملوك وصار تحت لوائه ... شجر العرا وعراعر الأقوام (٤)

فكتب عبد الملك رداً إلى الحجاج . وكتب فى طيه جواباً لابن الأشعث شعراً وهو :

فما بال من أسعى لأجبر عظمه ... حفاظاً (٥) وينوى من سفاهته كسرى
أظن خطوب الدهر بينى وبينهم ... ستحملهم منى على مركب وعر

---

(١) الخلط بضمتين : جمع خليط وهم القوم الذين أمرهم واحد .
(٢) الجرار : الجيش : اللجب : الصياح والاصوات العالية المختلطة . جم الصواهل : كثير الخيل الصاهلة . الجم والفرط : موضعان
(٣) الضاحية : البارزة للشمس : الغبط : بضمتين : جمع غبيط ، وهو الرحل
(٤) العرا : نبت . عراعر : جمع عرعرة بضم العينين : رؤوس الاقوام . والبيت لهلهل بن ربيعة
(٥) محافظة عليه

وإنى وإياهم كمن نبه القطا ولولم تنبه باتت الطير لاتسرى
أناةً وحلماً . وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر (١)

واستبطأ ابنه مسلمة فى مسيره إلى الروم ، فكتب إليه :

لمن الظعائن سيرهن (٢)ترحُّف سير السفين إذا تقاعس تجدف !

فلما قرأ مسلمة كتابه رد عليه :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم ٣

فنحن الآن أمام ظاهرة أخرى غير الايجاز ـ فى رسائل عبد الملك خاصة ،ورسائل العصر الأموى عامة ـ وهى ،الاعتماد على الشعر ،أو الاستشهاد به والاقتباس منه .

وسبب ذلك أن الكتابة لم تكن صناعة ولاغاية ، ولم يكونوا يقصدون إظهار مقدرة إنشائية ، وإنما كانوا يعتبرون البيان وسيلة وأداة للتفاهم ، يقتصرون منه على ماينقل المعنى ، ويفى بالمقصود . كما تقدم ، فاذا وجدوا فى كلام غيرهم ـ وبخاصة الشعر ـ مايؤدى غرضهم استعاروه مقتبسين أو مستشهدين . ويرون فى هذه الاستعارة مايرفع من قدر رسائلهم وخطبهم ، لدلالة استخدام الشعر والانتفاع به ،على الحفظ والرواية ، وحضور البديهة ، وسعة الثقافة . وحسن الأدب ، وتمام العلم بآثار القوم وأخبارهم ، ومازالت نظرتهم إلى الشعر نظرة إكبار . وما زالوا يتواصون بروايته وحفظه وتعليمه لأبنائهم ، وقد سبقت نصيحة معاوية وأخيه عتبة ، بتعلم الشعر . وقال عبد الملك لمؤدب أولاده : «روهم الشعر يمجدوا وينجدوا» . فلا غرو أن يؤثروا الشعر ما وفى بحاجتهم ، وأن يقتبسوا منه مايصلح للمقام . ولهم فى هذا مايدل على الاجادة العظيمة . وقد رأينا ختام خطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب ، ورأينا رسالة ابن الأشعث إليه ، ورسالته إلى ابن الأشعث . ورسالته إلى الحجاج

(١) الضرع : الذليل المستكين الغمر : كشمس وقفل وسبب من لم يجرب الامور
(٢) ترحف : مشى بطىء تقاعس : تتأخر . تجدف تسير بالجداف
(٣) ترمرم : هم بالكلام ولم يفعل

مشيراً الى ماقاله موسى بن جابر الحنفى ، ونستطيع أن نقدر الآن صلاح هذه الاقتباسات وحسن وقعها فى موضعها كما نما قيلت لهذا الموقف الجديد ، وأكثر ما كان الاقتباس من الشعر فى الرسائل والخطب السياسية .

الاقتباس من القرآن والحديث .

وكان لعبد الملك وغيره اقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف واستشهاد بهما ، وكانوا يفعلون ذلك فى خطب الوعظ ، وفى المجادلات التى تستند إلى الدين ، وفى حالات الرجوع إلى الله بالخطاب ، وهكذا ، وإنما كانوا يقتبسون أو يستشهدون ليزدان كلامهم . ويسمو أسلوبهم ، وتقوى حجتهم ويضعف خصمهم . ويتركوا فى نفوس السامعين تأثيرا أدبيا أقوى ، ويحركوا قلوبهم إلى درجة أعلى ، وهم قوم عرب يقدرون هذا الأسلوب القرآنى المعجز ، فاذا أضيف إليه ماله من صبغة دينية تضافرت الناحيتان على أخذه بمجامع القلوب ، والسيطرة على النفوس . فاذا سيق هـــذا فى معرض الاحتجاج كان أقرب إلى التسليم له ، والرضا بحكمه .

على أن هذا الاستشهاد فى مكان الاستدلال قد يثير معارضات قوية ، تدفع الحجة بالحجة . وتفسر الآية بما يخالف تفسير الخصوم ، أو تسوق آية أخرى تستدل بها على وجهة نظرها ، والناس أمام هذا البيان القوى متوزعو العواطف والأهواء ، تميل بهم الفصاحة ، وتحركهم البلاغة ، وتذهلهم قوة البيان ، وحسن الاقتباس أو الاستشهاد .

ووراء هذا الاتصال الدائم بالقرآن فيه كثير من توجيه النظر إليه والتفكير فى آياته البينات ، والاستعانة بهديه وأسلوبه وحجته عند الحاجة . فتعلو أساليب هؤلاء ، ويزداد أدبهم قدرا وعلوا .

وفى رسائل هذا العصر وخطبه وبخاصة أكابر الأدباء كالحسن والحسين ومعاوية وابن عباس ، وابن الزبير وعبدالملك وعمر بن عبد العزيز — كثير من ذلك ، أما الحسن البصرى فما أكثر ما زان كلامه بالقرآن والحديث ، لأن

طبيعة أدبه الوعظى القصصى كانت تجعله دائم الصلة بهما ، شديد الإيمان بتأثيرهما .

عبد الملك والشعر السياسى .

كان عبد الملك حريصا على رواية الشعر . وكان حريصا كذلك على أن ينتفع به ما استطاع ، فرسم به سياسته فى العراق بعد قتل مصعب إذ استشهد فى آخر خطبته بأبيات قيس بن رفاعة ، وأوصى الحجاج أن تكون سياسته مع الخوارج مستمدة من الشعر الذى أوصى به البكرى زيدا :

« ولما أراد نقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد . استعان بشعر نابغة بنى شيبان على تأييد هذه السياسة .

كما جارى روح الأمويين عامة فى الاستعانة بالشعراء ليكونوا فى خدمة دولتهم يمدحون سياستهم ، ويذكرون مآثرهم . ويهجون أعداءهم . وأجزلوا عطاءهم ، وغضوا النظر عن عيوبهم ، وتجاوزوا لهم عن سيئاتهم ، وكان الأخطل أقرب هؤلاء إلى عبد الملك على نصرانيته ، وبعد نسبه من الخليفة .

والسبب فى ذلك أن الشعر كان أشهر أنواع الأدب ، وأحبها إلى نفوس العرب ، وأسيرها فى الآفاق ، وأسهلها فى التعلق بأذهان الرواة ؛ فاذا جرى بمدح أو هجاء ، أو تحدث عن سياسة أو مذهب ، كان سريع الانتقال فى البلاد ، سريع التأثير فى النفوس . عظيم الفائدة فى خدمة أنصاره ، شديد الضرر على أعدائه ؛ فحرص الأمويون عامة ـ كما حرص منافسوهم وأعداؤهم ـ على تقريب الشعراء . واتخاذ الشعر لسانا يعبر عن آرائهم أو يحبب الناس فى أخلاقهم ، أو يبغض أعداءهم إلى الجمهور . وكأنه الصحف الحزبية فى زماننا هذا تتحدث عن مبادئ الحزب ، وتشيد برجاله وأعماله ، وتغض من قدر المنافسين له . وتحرض على الطاعنين فيه .

نقده للشعر .

على أن عبد الملك كان يقدر الشعر لذاته . وينقده نقد الأديب ، ويحكم

له أو عليه بحسب موضوعه ، أو معانيه ، أو صورته الشكلية ، وإن لم يمت إلى السياسة بسبب .

فقد أوصى مؤدب ولده ، إذا رواهم شعرا ألا يرويهم الا مثل قول العجير السلولى : (١)

يبين الجار حين يبين عنى ولم تأنس إلى كلاب جارى
وتظعن جارتى من جنب بيتى ولم تستر بستر من جدار
وتأمن أن أطالع حين آتى عليها وهى واضعة الخمار (٢)
كذلك هدى آبائى قديما توارثه النجار عن النجار (٣)
فهدى هديهم وهم افتلونى كما افتلى العتيق من المهارى (٤)

وذلك لما فيه من رعاية لحقوق الجار . والعفة عن محارمه .

وقال يوما ، وعنده عدة من أهل بيته وولده ، ليقل كل منكم أحسن شعر سمع به . فذكروا لامرئ القيس وطرفة والأعشى ، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا ، فقال عبد الملك : أشعرهم والله الذى يقول : (٥)

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم
يحاول رغمى ، لايحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به الرغم

إلى آخر القصيدة ، ويبدو واضحاً أن موضوعها هو الذى أعجب عبد الملك لما فيها من إحسان الى ذوى الأرحام ، وعفو عن سيئاتهم ، وسعى دائب لخيرهم وعزهم ، حتى لان جانبهم . وصفا ودهم .

وقال : مايسرنى أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى ، إلا عروة بن الورد (٦) ، لقوله :

وانى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى انائك واحد (٧)

---

(١) أغانى ج ١١ ص ١٥٢ (٢) بلا خمار وهو غطاء وجه المرأة
(٣) النجار : الأصل (٤) افتلاه : جربه . المهارى . الابل
(٥) أغانى ج ١٠ ص ١٥٨ (٦) أغانى ج ٣ ص ٧٤
(٧) عافى : الأول بمعنى : بقية الطعام فيه . والثانية بمعنى : طالب المعروف .

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى بجسمي مس الحق ، والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

ولا يسره ألا يلده غير عروة اذا لم يلده آباؤه إلا لما في هذه الأبيات من كرم وايثار وتفريق للمال في الاخوان ولو كانت به خصاصة .

ومن الشعر مايعجبه موضوعه ولاتعجبه معانيه ، فيعترض على المعنى ويثير حوله نقداً . وقد يأتي بعد ذلك بالقول الصائب فيرضى الناس بحكمه : اعترض مرة على قول نصيب (١) :

أهيم بدعد ماحييت وان أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

ووافقه الجالسون عنده على أن البيت معيب . وظاهر من القصة أن الطعن كان منصباً على الشطر الثاني من البيت . فان الحر الكريم يأبى أن يختار لصاحبته خليلا بعده . وقال عبد الملك لجلسائه: لوكان اليكم كيف كنتم قائلين ؟ قال رجل منهم : كنت أقول :

أهيم بدعد ماحييت وان أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى !

قال عبد الملك : «ماقلت والله أسوأ مما قاله» فقيل : كيف كنت قائلا في ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال كنت أقول :

أهيم بدعد ماحييت فان أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى .

قالوا : «مت والله أشعر الثلاثة يا أمير المؤمنين .وهذا صحيح اذا نظرنا الى شرف المعنى وتمام الكرم والنخوة . ولكن المعانى الثلاثة منقودة . وأحسن منها جميعاً أن يسأل الله لها صلاح الحال وأن يرعاها من بعده . أما عبد الملك فقد دعا عليها ، لكنه على كل حال أشرف الثلاثة . وان كانت الرواية الثانية رقيقة .

ومدحه ابن قيس الرقيات فقال : (٢)

---

(١) الكامل ج ١ ص ١٢٢ (٢) أغانى ج ٤ ص ١٠٧

إن الأغر الذى أبوه أبو العـاصى عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : يابن قيس ، تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من اللـه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا.

إن ابن قيس الرقيات مدح آل الزبير وهجا بنى أمية . وطلبه عبد الملك ليقتله ، وشفع فيه عبد الله بن جعفر فقبل شفاعته ، وروى عبد الملك هذا المدح ، فرأى فى مدحه لمصعب بالتدين معنى أسمى من مدحه له بنضارة الجبين واعتدال التاج ، الذى هو مظهر الملك والكبرياء ، وزينة الحياة الدنيا .

وأبى على الشعراء معانيهم المتداولة إذ قال لهم (١) : « يامعشر الشعراء ، تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر ، ومرة بالجبل الأوعر ، ومرة بالبحر الأجاج . ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم فى بنى هاشم .

نهاركمو مكابدة وصوم وليلكمو صلاة واقتراء

فقد أراد أن يمدحه الشعراء بأنه يقضى ليله ونهاره فى طاعة الله كما يفعل بنو هاشم . وهنا نرى لعبد الملك حملة قوية على الشعراء فى معانيهم القديمة ؛ تضمنها حديثه التهكمى عن وجه الشبه ، وهو البخر فى الأسد ، والوعورة فى الجبل ، والملوحة وكراهة المذاق فى البحر . وما أراد الشعراء إلا شجاعة الأسد ، ووقار الجبل ، وكرم البحر .

وروى له مثل هذا القول (٢) يعيب على الشعراء أن يشبهوه بالأسد ، وبالبازى ، وبالصقر ؛ ويدعوهم أن يقولوا فيه كما قال كعب الأشقرى فى المهلب وولده ، إذ مدحهم بالشجاعة وعلو القدر ، والثبات ، وهداية الناس ،

---

(١) أغانى حـ ٢١ ص ٦٠ (٢) أغانى حـ ١٣ ص ٥٦

ورأى فى هذا المدح معانى أجمل من التشبيه المألوف بالأسد وبالبحر الخ .

وحكم لشاعر اسمه شبيب بأنه أكرم وصفا لنفسه من الأخطل إذ أعجبه فى شعره التمدح بالبشاشة للجليس ، وبالجود وبالشجاعة واللين لذوى القربى ، والشدة على الأعداء . وأعجب بالمدح الخالص [1] عندما غنته جارية بشعر الأقيشر فى المدح وقال لها : هذا المدح لاعلى طمع ولا فرق . وأشعر الناس الأقيشر .

وأبى على جرير توجيه الخطاب إليه فى شعره :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

فقال له : بل فؤادك ، لا أم لك ، . وأبى أن يكون خاضعا لمشيئته لما قال وهو يهاجى الأخطل :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكمو إلى قطينا

فقال : مازاد ابن اللخناء على أن جعلنى شرطيا . أما والله لوقال «لوشاء» لسقتهم إليه . وأنشده ابن قيس الرقيات فقال :

أنت ابن معتلج البطا ح كديها وكدائها [2]
ولبطن عائشة التى فضلت أروم نسائها

فلم يعجبه أن يذكر « بطن » أمه عائشة ، فى الشعر . وأنشد هذا الشاعر عبد الملك مرة أخرى : [3]

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعننى وقرعن مروتيه
وجبينى جب السنام ولم يتركن ريشا فى مناكبيه

فاعترض على الشاعر لأنه خنث فى قوافيه . فقال الشاعر مدافعاً : إنه يقتدى بكلام الله تعالى : « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه »

---

(١) أغانى ١٠ ص ٨٢ (٢) كدى : بضم الكاف . جبل بأسفل مكة . كداء بفتح الكاف . جبل بأعلى مكة .
(٣) تاريخ النقد ص ٣٧ للمرحوم طه ابراهيم .

والفرق واضح بين القرآن فى النغم وفى الروح ، وبين قوافى ابن قيس الرقيات .

وكم لعبد الملك من مواقف فى نقد الشعر من حيث الموضوعات والمعانى والألفاظ والتراكيب والقوافى ولكنه كان نقداً مبنياً على الذوق ، لا يصل به إلى أن يكون صاحب مذهب فيه . وكفاه أنه أظهر فى هـــذه المواقف ماعنده من ذوق سليم ، وتقدير صحيح للشعر . فمن أراد أن يقصده بشعره فليحرص على التجويد ، وليحذر هذا النقد .

مجالس الشعر عند عبد الملك :

كانت لعبد الملك مجالس أدبية يعنى فيها بالشعر ، يرويه أو يسمعه وينقده ، أو يحكم بين الجالسين عنده إذا اختلفوا فى مسألة من مسائله . من ذلك بيت نصيب السابق إذ أصلحه . ومنها حكمه على شبيب بأنه أشعر من الأخطل . وقد روى أن الشعراء اجتمعوا عنده فقال لهم : أبقى أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا فقال الأخطل : كذبوا ياأمير المؤمنين ، قد بقى من هو أشعر منهم . قال من هو ؟ قال : عمران بن حطان . قال : وكيف صار أشعر منهم ؟ قال : لأنه قال وهو صادق ففاقهم ، فكيف لو كذب كما كذبوا ! (١)

والتقى الأخطل وجرير فى مجلسه لأول مرة (٢) ، وكانا تهاجيا قبل هذا اللقاء ، وعرفه الأخطل وجلس ينظر إليه نظراً شديداً ، فقال له جرير من أنت ؟ فقال : أنا الذى منعت نومك ، وتهضمت (٣) قومك . فقال له جرير : ذلك أشقى لك كائناً من كنت . ثم سأل عبد الملك : من هذا ياأمير المؤمنين — جعلنى الله فداءك — فضحك وقال : هذا الأخطل ياأبا حزرة . فقال جرير للأخطل : لاحياك الله يابن النصرانية . أما منعك نومى فلو نمت عنك لكان خيراً لك ، وأما تهضمك قومى فكيف تهضمهم وأنت ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباء بغضب من الله ، وأدى الجزية عن يد وهو صاغر ! وكيف تتهضم — لا أم لك — قوما فيهم النبوة والخلافة ، وأنت عبد

(١) أغانى ١٦ ص ١٠٠ (٢) أغانى ٧ ص ٦٠ ، ٦٥ (٣) التهضم . الانتقاص

مأمور ، ومحكوم عليه لا حاكم ! ثم أقبل على عبد الملك فقال : إيذن لى يا أمير المؤمنين فى ابن النصرانية . فأبى عبد الملك أن يكون ذلك بحضرته . وخرج جرير مغضباً . فأمر عبد الملك الأخطل أن يخرج وراءه ، وأمر خادما له أن ينظر مايصنعان إذا برز الأخطل لجرير . ودعا جرير بغلام له ، فقدم إليه حصاناً أدهم ، فركبه وهدر والفرس يهتز من تحته ، وتوارى الأخطل بالباب حتى مضى جرير . وعاد الخادم إلى عبد الملك فأخبره . فضحك ، وقال : قاتل الله جريراً ، ما أخفه ! أما والله لو كان النصرانى برز إليه لأكله !

واجتمع عنده ابن أبى ربيعة وكثير وجميل (١) . فقال : أنشدونى أرق ما قلتم فى الغوانى . فأنشدوه ففضل عليهم ابن أبى ربيعة فى العطاء ، إذ أمر له بعشرة آلاف وأمر لكل من صاحبيه بألفين .

وفى أخباره (٢) أيضاً أنه صنع طعاما فأكثر وأطاب ، ودعا إليه الناس فأكلوا . وقال أحدهم . إنه لم ير أكثر منه ولا أطيب . فقال أعرابى كان بين الحاضرين : أما أكثر فلا ، وأما أطيب فقد ـ والله ـ أكلت أطيب منه . فطفقوا يضحكون من قوله . فسأله عبدالملك عن ذلك الطعام ، فأخبره ـ فى خبر طويل ـ أنه صاد يوما أتانا وحشية وشواها ، وأكل جزءا منها ممزوجا بالتمر . فقال عبد الملك : لقد أكلت طعاما طيباً ، فمن أنت ؟ فقال : من أخوالك من عذرة . قال عبد الملك : أولئك فصحاء الناس ، فهل لك علم بالشعر ؟ قال سلنى عما بدا لك ياأمير المؤمنين . قال : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ قال : قول جرير

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وكان جرير فى القوم فرفع رأسه وتطاول لها . ثم سأله عبد الملك عن أفخر بيت قالته العرب . فقال : قول جرير .

(١) ذيل الامالى ص ٦٦ (٢) الأغانى ٧ ص ٥٠

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهمو غضابا

فتحرك جرير . ثم سأله عبد الملك عن أهجى بيت . فأخبره بقول جرير

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فاستشرف لها جرير . ثم سأله عبد الملك عن أغزل بيت . فأنشده بيت جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب . ثم سأله عبد الملك : أى بيت قالته العرب أحسن تشبيهاً . قال : قول جرير :

سرى نحوهم ليل كأن نجومه قناديل فيهن الذبال المفتل

فقال جرير : جائزتى للعذرى ياأمير المؤمنين . فقال له عبد الملك : وله مثلها من بيت المال . ولك جائزتك ياجرير لاتنتقص منها شيئاً . وكانت جائزة جرير أربعة آلاف درهم ، وتوابعها من الحملان والكسوة ، فخرج العذرى وفى يده ثمانية آلاف درهم ، وفى الأخرى رزمة ثياب .

ودخل عليه كثير وعنده الأخطل فأنشده . فقال للأخطل : كيف ترى . فقال : حجازى مجوع مقرور . دعنى أضغمه (١) ياأمير المؤمنين . فقال كثير : من هذا ياأمير المؤمنين ؟ فقال له : هذا الأخطل . فقال له كثير : مهلا ، فهلا ضغمت الذى يقول :

لا تطلبن خئولة فى تغلب فالزنج أكرم منهمو أخوالا

فسكت الأخطل فما أجابه بحرف .

وما كان أكثر هذه المجالس وحديث الشعر فيها والعطاء عند عبد الملك !

وكان للمناظرات والمحاورات والخطب مكانها فى مجالس عبد الملك أيضا نذكر منها ما كان بينه وبين الخوارج (٢) .

روى أن عبد الملك أتى برجل من الخوارج فبحثه ، فرأى منه ما شاء

(١) أعضه . (٢) الكامل ح ٣ ص ١٢٩ .

فهما وعلماً ، ثم بحثه فرأى ماشاء إربا ودهيا (١) ، فرغب فيه ،واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصراً محققاً ، فزاد فى الاستدعاء . فقال له : «لتغنك الأولى عن الثانية . وقد قلت فسمعت ، فاسمع أقل» . فسمع له عبد الملك ، فجعل يبسط له من قول الخوارج ، ويزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك : «لقد كاد يوقع فى خاطرى ان الجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ماثبت الله على من الحجة ، وقرر فى قلبى من الحق ، فقلت له : «لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطنى الله فى الدنيا ، ومكن لنا فيها ؛ وأراك لست تجيب بالقول . والله لأقتلنك إن لم تطع» .

وبينا هما كذلك دخل على عبد الملك أحد أبنائه يبكى لضرب المؤدب إياه ، فشق ذلك على عبد الملك،فأقبل عليه الخارجى فقال له :«دعه يبك ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها» . فأعجب هذا القول عبد الملك فقال له متعجبا : «أما يشغلك ماأنت فيه عن هذا ؟ فقال : ماينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء» . فأمر عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال يعتذر إليه : «لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتى ما حبستك» . ثم قال عبد الملك : «من شككنى ووهمنى حتى مالت بى عصمة الله ، فغير بعيد أن يستهوى من بعدى» . ثم يقول أبو العباس : «وكان عبد الملك من الرأى والعلم بموضع» .

بينه وبين خالد بن يزيد :

ودخل عبد الله بن يزيد بن معاوية (٢) على أخيه خالد فقال : لقد هممت اليوم بقتل الوليد بن عبد الملك .فقال له خالد: «بئس ماهممت به فى ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين !» قال: «إنه لقى خيلى فنفرها وتلاعب

(١) الارب : الدهاء والعقل . الدهى : جودة الرأى والادب
(٢) ٢١٩ خطب صفوت

بها . فقال له خالد : أنا أكفيكه إن شاء الله ، ودخل على عبد الملك، وعنده الوليد، فأخبره بالذى كان . فنكس عبدالملك رأسه ، وقرع الأرض بقضيب فى يده ، ثم رفع رأسه إليه فقال : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » فقال له خالد : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » .فعيره عبد الملك بأن أخاه عبد الله يلحن ، فعيره خالد بأن ابنه الوليد لحان أيضاً . فقال عبد الملك : إن يكن الوليد لحانا فأخوه سليمان . فقال خالد : وإن يكن عبد الله لحانا فأخوه خالد . واشترك الوليد فى الجدل فقال لخالد : أتكلمنى ولست فى العير ولا فى النفير! [1] فرد عليه :سيد العير جدى أبو سفيان ، وسيد النفير جدى عتبة بن ربيعة . ولكن لو قلت حبيلات وغنيمات [2] والطائف لقلنا صدقت . ورحم الله عثمان .

الوفادة الأدبية إلى عبد الملك :

كان الشعراء يفدون عليه لمدحه أو للاعتذار إليه . وهم يرجون الغنى والتقرب منه ، أو يوفدهم إليه ولاته فى الأمصار تكريماً لهم ، وتقربا إليه كما يتقربون بالهدايا النفيسة ، وإيثاراً له بهؤلاء الشعراء ، وخوفا من غضبه إذا علم أن هؤلاء الولاة خصوا أنفسهم دونه بالفحول منهم ، وأشهر هذه الوفادات عليه ، وفادة جرير من عند الحجاج . فقد أوفده مع ابنه محمد مع عشرة من أهل العراق ووصاه به . فلما وردوا ، استأذن له محمد بن الحجاج على عبد الملك فلم يأذن له ـ وكان لا يسمع من شعراء مضر ، ولا يأذن لهم ،

---

(١) العير : الابل : والاشارة إلى التجارة التى كان أبو سفيان عائداً بها من الشام ، فتصدى لها المسلمون فاستنفر أبو سفيان أهل مكة لحمايتها . ثم نجا بها . لكن قريشا أبت إلا الخروج لحرب الرسول ، واستنفرهم لذلك عتبة ونشأت عنها غزوة بدر

(٢) الحبيلات : جمع حبيلة مثل بثينة . ومعناها الكرمة الصغيرة . والغنيمات : على وزنها الغنم القليلة : والاولى كان يأوى إليها الحكم وهو مطرود من المدينة إلى الطائف ، والثانية كان يرعاها وهو هناك . والمقصود التحقير من شأن آل الحكم

لأنهم كانوا زبيرية ـ فأعلمه أن الحجاج يسأله فى أمره . ويقول :إنه لم يكن ممن والى ابن الزبير ، ولا نصره بيده ولا بلسانه . وظل محمد يشفع له حتى أذن له فدخل . فاستأذن فى الإنشاد . فقال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج :

من سد مطلع النفاق عليكمو   أم من يصول كصولة الحجاج

وروى له شعره فى الحجاج ، ولم يأذن له فى الإنشاد وأخرجه بشر . فلما كان بعد ثلاث شفع محمد لجرير . فقال له عبد الملك : لا تنشدنى إلا فى الحجاج . فإنما أنت للحجاج خاصة . وأبى أن يسمع منه غير ذلك . فلما أزف الرحيل قال جرير لمحمد : إن رحلت عن أمير المؤمنين ولم يسمع منى ، ولم آخذ له جائزة ، سقطت آخر الدهر . ولست بارحا بابه أو يأذن لى فى الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الإذن له ، . فدخل محمد على عبد الملك فقبل يده ورجله ، فأذن لجرير أن يدخل ،ولم يأذن له فى الإنشاد .ولكن جريراً اندفع فأنشده قصيدته الحائية فى مدحه . فلما بدأ بقوله :

أتصحو أم فؤادك غير صاح

كره عبد الملك منه توجيه الخطاب إليه ، وقال له : « بل فؤادك أنت لا أم لك ! » . واستمر فى الإنشاد حتى قال :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

فتبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن ، وما زلنا كذلك . ثم قال عن ابن الزبير :

دعوت الملحدين أبا خبيب   جماحا ، هل شفيت من الجماح

فلما قال عن زوجته :

تعزت أم حزرة ثم قالت   رأيت الموردين ذوى لقاح [1]

تعلل ، وهى ساغبة ، بنيها   بأنفاس من الشبم القراح [2]

---

(١) اللقاح : الإبل العشار

(٢) الشبم :العذب البارد : القراح، بفتح القاف :الصافى

قال عبد الملك : « هل ترويها مائة لقحة ؟ فقال : إن لم يروها ذلك فلا أرواها الله ! فهل إليها ـ جعلنى الله فداء أمير المؤمنين ـ من سبيل ؟» فأمر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء . وكانت بين يديه جامات من ذهب . فقال له جرير : ياأمير المؤمنين ، تأذن لى بواحدة منهن تكون محلبا . فضحك ، وقذف إليه بواحدة منهن ، وقال : « خذها ، لا نفعتك ! » فقال « بلى . كل ما أخذته منك ينفعنى إن شاء الله » . ويزيد صاحب ذيل الأمالى [1] على ذلك أن محمداً كتب إلى أبيه بالحديث كله ، فلما قدموا على الحجاج . قال لجرير : أما والله لولا أن يبلغ أمير المؤمنين فيجد على ، لأعطيتك مثلها . ولكن هذه خمسون راحلة وأحمالها حنطة ، تأتى بها أهلك فتميرهم [2] . فقبضها جرير وانصرف .

وكان أعشى ربيعة ممن دافع عن أهل المصرين ـ البصرة والكوفة ـ بعد فتنة ابن الأشعث وانتصار الحجاج عليه فى دير الجماجم [3] . فقال يعتذر إليه : « قد والله اجتهدوا جميعا فى قتالك ، فأبى الله إلا نصرك ، وذلك أنهم جزعوا وصبرت ، وكفروا وشكرت ، وغفرت إذ قدرت ، فوسعهم عفو الله وعفوك ، فنجوا ، فلولا ذلك لبادوا وهلكوا » فسر الحجاج بكلامه وقال له جميلا . وقال : « تهيأ للوفادة إلى أمير المؤمنين حتى يسمع هذا منك » .

استشهاده بالشعر :

لاتكاد تذكر حادثة فى تاريخ عبد الملك إلا وله فيها استشهاد بالشعر ، أو إشارة إليه . وذلك أنه كان راوية للحديث والقديم منه ، يعرف كيف يصيب موضع الاستشهاد ، ويختار منه ماينا سب المواقف المختلفة . ولو فرغ لرواية الشعر لما قصر عن واحد من أكابر الرواة .

أرسل إليه الحجاج يخبره بقتل عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، مع رجل

(١) ص ٤٢ (٢) تطعمهم (٣) أغانى ١٦ ص ١٥٦

يقال له عرار بن عمرو بن شاس الأسدى ، وكان أسود دميما(١) . فجعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوقيعة إلا أنبأه به عرار ، فى أصح لفظ ، وأشبع قول ، وأجزأ اختصار ، فسقاه من الخبر ، وملأ أذنه صوابا ، وعبد الملك لا يعرفه ، وقد اقتحمته عينه حيث رآه ، فقال متمثلا .

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد لعمرى عرارا بالهوان فقد ظلم
وإن عرارا إن يكن غير واضح فإنى أحب الجون ذا المنكب العمم

فضحك عرار ضحكا غاظ عبد الملك . فقال له : « مم ضحكت ويحك ! » قال : « أتعرف عرارا يا أمير المؤمنين الذى قيل فيه هذا الشعر ! » قال : « لا » . قال : « أنا والله هو » . فضحك عبد الملك ثم قال : « حظ وافق كلمة » وأحسن جائزته وسرحه .

واستنشد أبا العباس الأعمى مديحه فى مصعب فاستعفاه وقال : يا أمير المؤمنين إنما رثيته لأنه كان صديقى . وقد علمت أن هواى أموى . قال صدقت . ولكن أنشدنى ماقلته ، فأنشده :

رحم الله مصعبا فلقد ما ت كريما ورام أمرا جسيما

فقال عبد الملك : أجل . لقد مات كريما ، ثم تمثل :

ولكنه رام التى لا يرومها من الناس إلا كل حر معمم

واستشهد بأبيات قيس بن رفاعة فى آخر خطبته بعد مقتل مصعب . وأرادت عاتكة زوجته أن تثنى همه وهو خارج لقتال عمرو بن سعيد . فروى بيت كثير . وأرسل إلى ابنه مسلمة رسالة بيتا من الشعر ، فرد عليه كذلك . ورد على ابن الأشعث برسالة من الشعر . ولا غرابة فى ذلك كله على مثل عبد الملك .

عطاء الشعراء :

كان عطاؤه للشعراء جزيلا ، ومن أمثلة ذلك أنه أعطى جريرا فى أول وفادة

---

(١) أغانى ١٠ ص ٦١ والكامل ١ ص ١٨٥

عليه ولم يكن راضياً عنه — مائة ناقة برعاتها وأعطاه جامة من ذهب . وأعطى كعبا الأشقرى عشرة آلاف درهم لما أوفده إليه الحجاج(١) . وما كان أكثر عطاءه للأخطل ! . ومدحه أعشى ربيعة فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وعشرة تخوت ثياب ، وعشر فرائض من الابل وأقطعه ألف جريب (٢) .

وجاءه شاعر من ضنة يمدحه، فأعطاه ألف دينار ، ومدحه فى العام القابل فأعطاه مثلها . ومدحه فى العام الثالث فأعطاه ثلاثة آلاف دينار (٣) وغير هذا كثير .

وكان يوصى أبناءه بإكرامهم : روى أنه حج ذات عام فلقى أبا العباس الأعمى ، شاعر بنى أمية ، فأقسم على كل من حضر من بنى أمية وأحلافهم ومواليهم إلا كسا أبا العباس ، ففعلوا حتى امتلأت داره ملابس . وأمر له عبد الملك بمائة ألف درهم .

أثر الشعر فى نفسه :

كان للشعر أثر كأثر السحر فى نفس عبد الملك : يطربه ، ويذهب غيظ قلبه ، ويعيد إلى نفسه سكينتها بعد أن يشتد بها القلق ، وكان يرهب الشعر الساثر ، ويحرص على أن يكون الشعر شريكا له فى أفراحه . وأن يكون هادياً له إلى مكارم الأخلاق .

ذهب إليه الأخطل بقصيدته الرائية :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوًى فى صرفها غِيَر

وأخبره أنه قضى سنة فى قولها فما بلغ ما أراد ، ثم أنشدها ، فجعل عبد الملك يتطاول لها، ويطرب لمعانى المدح فيها. فلما فرغ منها . قال له: يا أخطل، أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ! . قال : أكتفى بقول أمير المؤمنين .

(١) أغانى ١٣ ص ٥٦ (٢) أغانى ١٦ ص ١٥٥ (٣) أمالى ٢ ص ٢٨٣

وطرب وذهب غيظه لما سمع قول جرير .

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقال : نعم ، كذلك نحن ، وما زلنا كذلك !

وكان عبد الله بن الحجاج شاعرا فاتكا شجاعا معدودا من فرسان مضر ذوى البأس والنجدة ، خرج عليه مع عمرو بن سعيد ، ثم مع نجدة بن عامر ثم مع ابن الزبير . ثم ذهب إلى عبد الملك متنكراً وأنشده قصيدة عينية طويلة ، لطيفة فى موضوعها . مرتبة فى معانيها ، وكأنها قصة ، وفيها حوار بينه وبين عبد الملك ، فلما قال له :

أدنو لترحمنى وتجبر فاقتى فأراك تدفعنى ، فأين المدفع

تبسم عبد الملك وقال له : إلى النار . ثم أنشده :

ضاقت ثياب الملبسين وفضلهم عنى ، فألبسنى ؛ فثوبك أوسع

قال ابن الحجاج : مازلت أتعرف منه كل ما أكره حتى أنشدته هذا البيت . فرمى إلى رداءه وقال : البسه ، لا لبست ! .

وكتب إلى الحجاج : أن ابعث إلى رجلا يصلح للدين والدنيا ، أتخذه سميراً وجليسا وخليا . فقال : ماله ؛ إلا عامر الشعبى ، فبعث به إليه ، فلما دخل عليه وجده قد كبا ، مهتما ، فقال مابال أمير المؤمنين ! قال ذكرت قول زهير :

كأنى وقد جاوزت سبعين حجة خلعت بها عنى عذار لجامى

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُرمى وليس برامى

فلو أننى أرمى بنبل رأيتها ولكننى أرمى بغير سهام

على الراحتين تارة وعلى العصا أنوء ثلاثا ، بعدهن قيامى

فقال له الشعبى ليس كذلك ياأمير المؤمنين . ولكن كما قال لبيد (١) ، وقد بلغ سبعين حجة

(١) أدرك لبيد الاسلام ، وقالوا إنه لم يرو له إلا بحيث واحد فى الاسلام ، واختلف فهذا البيت ، فمتى قال هذه الابيات ؟

كأنى وقد جاوزت سبعين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا

وأخبره بما قاله لبيد لما بلغ سبعاً وسبعين. ثم تسعين، ثم عشراً ومائة سنة: ثم ثلاثين ومائة. وحضرته الوفاة فى هذه السن، فقال:

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فقوما فقولا بالذى تعلمانه ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وقولا: هو المرء الذى لا صديقه أضاع، ولا خان الخليل ولا غدر

إلى سنة، ثم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

قال الشعبي، فلقد رأيت السرور فى وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها.

وأنشده أرطاة بن سهية (١):

رأيت المرء تأكله الليالى كأكل الأرض ساقطة الحديد

وأعلم أنها ستكر حتى توفى نذرها بأبى الوليد

فارتاع عبد الملك، ثم قال: بل توفى نذرها بك. مالى ولك! فقال: لا ترع يا أمير المؤمنين، فإنما عنيت نفسى وكان أرطاة يكنى أبا الوليد — فسكن عبد الملك، ثم استعبر باكيا وقال: أما والله على ذلك لتلمن بى!

وكان يخاف الشعر السائر (٢): قال لامية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: مالك ولحرثان بن عمرو حيث يقول فيك:

إذا هتف العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد

فقال: «يا أمير المؤمنين، وجب عليه حدفاقته». فقال: «فهلا درأت عنه بالشبهات!». فقال: «كان الحد أبين، وكان رغمه على أهون». فقال عبد الملك: «يابنى أمية، أحسابكم أنسابكم، لا تعرضوها للهجاء، وإياكم وما سار به الشعر، فإنه باق مابقى الدهر».

وتزوج حفيده عبد العزيز بن الوليد أم حكيم زينب بنت عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، وكانت من أجمل نساء قريش، فلما عقد النكاح بينهما

---

(١) أغانى ١١ ص ١٢٥ (٢) أمالى ج٢ ص ١٥٧.

فى مجلس عبد الملك ، أمر بإدخال الشعراء للتهنئة ، وأعطاهم عطاء جزيلا . وقال جرير :

جمع الأمير إليه أكرم حرة ... فى كل ماحال من الأحوال
حكمية علت الروابى كلها ... بمفاخر الأعمام والأخوال
وإذا النساء تفاخرت ببعولة ... فخرتهمو بالسيد المفضال
عبد العزيز ، ومن يكلف نفسه ... أخلاقه ، يلبث بأكسف بال
هنأتكم بمودة ونصيحة ... وصدقت فى نفسى لكم ومقالى
فلتهنك النعم التى خولتها ... ياخير مأمول وأفضل وال

فزاد ذلك من سرور عبد الملك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

نفسيته من تاريخه الأدبى :

لعل أظهر صفة يدل عليها تاريخ عبد الملك الأدبى الانصاف لأوليائه وأعدائه على السواء . فقد أنصف أنس بن مالك لما كتب إليه يستجير به من الحجاج ، وأنصف أهل الحجاز لما أحس بثقل وطأة الحجاج عليهم فى حديث بينه وبين ابراهيم بن محمد بن طلحة [1] ، وأنصف مصعب بن الزبير ميتا لما اتهمه بعض الناس عنده بأنه كان يشرب الخمر ، فرد عليهم بقوله : إنه لو عرف أن شرب الماء يفسد مروءته ماشربه .

أنصف المهلب وآله من الحجاج ومن بشر بن مروان ، وحمى عروة بن الزبير من الحجاج لما طالبه بإرساله إليه .

وكان يؤثر رضا العامة ولو بعزل الخاصة . فحاول أن يترضى أهل العراق بعزل الحجاج . كما كان حذرا فطنا لما أراد صاحب الروم أن يوغر صدره على الشعبى كى يقتله .

ولولا السياسة لما غدر بعمرو بن سعيد بعد الأمان ، ولا حاول خلع عبد العزيز من ولاية العهد ، ولولاها لكان علما من أعلام التابعين لا خليفة من خلفاء الأمويين .

٣ ـ الوليد بن عبد الملك

لعل شهرته فى التاريخ أعظم من شهرته فى الأدب ، فكانت خلافته غرة فى جبين الأمويين للأعمال العظيمة التى قام بها وللأخلاق الكريمة التى كان عليها ، وللفتوح الواسعة التى فتحها :

ورث عن أبيه مملكة هادئة، فصرف جهده إلى الغزو الخارجى، والاصلاح الداخلى . وأشهر ماضم إلى البلاد الاسلامية فى أيامه بلاد الأندلس ،على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد . وتم فى عهده فتح بلاد السند ، على يد محمد بن القاسم الثقفى . وسارت جيوش قتيبة بن مسلم إلى فتح بلاد الصين . وأصلح الطرق وحفر الآبار فى البلدان .

وفى أيامه نقلت دواوين الخراج فى الشام ومصر إلى العربية الأولى على يد سليمان بن سعد والثانية على يد ابن يربوع الفزارى ، بعد أن نقل ديوان العراق إلى العربية فى عهد الحجاج على يد صالح بن عبد الرحمن .

وعد من حسناته أنه استعان بعمر بن عبد العزيز فولاه المدينة سنة ٨٧ هـ وكان فى الخامسة والعشرين من عمره، فأعاد فى حكمها سيرة السلف الصالح .

وأشهر أعمال الوليد بناء المسجدين العظيمين : المسجد النبوى فى المدينة، والمسجد الأموى فى دمشق . ويروى عنه فى احترام العلماء أنه لما ذهب إلى المدينة لزيارة المسجد النبوى بعد تمامه، أخرج الحرس كل من فى المسجد إلا سعيد بن المسيب، فأبى أن يخرج قبل الوقت الذى تعود الخروج فيه ، أو أن يغير المكان الذى كان يجلس فيه ، وأبى أن يسلم على أمير المؤمنين لما أمروه بذلك . فلما لم يجب لهم طلبا حاول عمر بن عبد العزيز ألا تقع عين الوليد عليه وهو يطوف بالمسجد ، لكن الوليد نظر إلى القبلة فرأى الشيخ سعيد بن المسيب، فسأل عنه . فقال عمر بن عبد العزيز للوليد : ياأمير المؤمنين، لو علم الشيخ مكانك لقام للتسليم عليك ، ولكنه ضعيف البصر ، فقال الوليد : قد علمت حاله، ونحن نأتيه فنسلم عليه . ثم أقبل حتى وقف عليه وقال

له : «كيف أنت أيها الشيخ» ؟ فلم يتحرك سعيد ولم يقم[١] ، ورد عليه : «بخير والحمد لله ، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله» ؟ قال الوليد : خير والحمد لله ، ثم انصرف وهو يقول لعمر : هذا بقية الناس .

أما الخطابة فلم يكن الوليد من فرسانها . وقالوا إنه كان يخطب جالسا ، وعابه خالد بن يزيد بأنه كان يلحن ، وقال أبوه : أضربنا فى الوليد حبنا له فلم نلزمه البادية [٢] . ولكن لحنه كان معدودا

ولكنه كان أديبا خطيبا راعيا للشعر ، راعيا للأدب . وأشهر من اتصل به ومدحه من الشعراء عدى بن الرقاع فحماه من جرير : كان ابن الرقاع فى مجلسه يوما ودخل جرير فقال له : أتعرفه ؟ قال لا . فمن هو ؟ قال : هذا ابن الرقاع . قال : فشر الثياب الرقاع . فممن هو ؟ قال من عاملة . فقال جرير : هى التى يقول الله فيها : « عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية » . وفى بعض روايات الأغانى أن الوليد غاظه ذلك من جرير . فقال والله ليركبنك ! شاعرنا ومادحنا ، والرائى لأمواتنا ، تقول له هذه المقالة ! فقام إليه عمر بن الوليد فشفع له :

وغاظه من ابن الرقاع أنه مدح واليا عزله بقوله :

فما عزلوك مسبوقا ولكن إلى الخيرات سباقا جوادا

فجىء به إليه فقال له : أتمدح رجلا قد فعلت به ما فعلت ! فقال يا أمير المؤمنين : إنه كان إلى محسنا ، ولى مؤثراً ، وبى برآ ، فنى أى وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم ؟ فقال الوليد . صدقت وكرمت . وعفا عنهما .

واستدعى ابن سريج من الحجاز ليغنيه [٣] فلما دخل عليه قال له : « لقد بلغنى عنك ما حملنى على الوفادة بك : من كثرة أدبك ، وجودة اختيارك مع ظرف لسانك ، وحلاوة مجلسك . فقال : جعلت فداءك يا أمير المؤمنين . تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . فقال الوليد : إنى لأرجو ألا تكون أنت ذاك . ثم أذن له فغناه بشعر الأحوص فى مدحه . فلما فرغ قال له :

(١) خضرى ٥٧٣ (٢) عقد ج ٢ ص ١٨ (٣) أغانى ١ ص ٢٩٧

أحسنت والله وأحسن الأحوص . على بالأحوص . ثم غناه ابن سريج بشعر ابن الرقاع فى مدحه ،ومنه :

هو الذى جمع الرحمن أمته ... على يديه وكانوا قبله شيعا
عذنا بذى العرش أن نحيا ونفقده ... وأن نكون لراع بعده تبعا
إن الوليد أمير المؤمنين ، له ... ملك ، عليه أعان الله فارتفعا

ثم غناه بشعر آخر من القصيدة الدالية المشهورة لابن الرقاع وأولها :

عرف الديار توهما فاعتادها ... من بعد ما شمل البلى أبلادها

وفيها يقول فى مدحه :

أولا ترى أن البرية كلها ... ألقت خزائمها إليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاكها ... من أمة إصلاحها ورشادها

فلما فرغ من غنائه أشار الوليد إلى بعض الخدم فغطوه بالخلع، ووضعوا بين يديه كيسا من الدنانير ، وبدرا من الدراهم . ثم قال له الوليد : يا مولى بنى نوفل. لقد أوتيت أمرا جليلا . فقال ابن سريج :«يا أمير المؤمنين : لقد آتاك الله أمرا عظيما ، وشرفا عاليا ، وعزا بسط يدك فيه فلم يقبضه عنك ، ولا يفعل إن شاء الله . فأدام الله لك ماولاك ، وحفظك فيما استرعاك ، فإنك أهل لما أعطاك . ولا نزعه منك إذ رآك له موضعا . قال : يانوفلى وخطيب أيضا ! فقال : «عنك نطقت ، وبلسانك تكلمت ، وبعزك بينت» .

ومدحه الأحوص وابن الرقاع بقصائد وأخذ الجميع جوائز سنية .

وأراد أن يسير على سنة أبيه (١) فيستعين بالشعر على خلع أخيه سليمان، والبيعة لابنه عبد العزيز ، ودس فى ذلك إلى القواد والشعراء ، وقال جرير يحض الناس على بيعته (٢)

إلى عبد العزيز سمت عيون الـــرعية إذ تخيرت الرعاء
إليه دعت دواعيه إذا ما ... عماد الملك خرت والسماء
وقال أولو الحكومة من قريش ... علينا البيع إذ بلغ الغلاء

(١) ص ٨٥ من هذا الكتاب (٢) نقائض من ٣٥١ ج ١

رأوا عبد العزيز ولى عهد وماظلموا بذاك ولا أساءوا

ثم قال :

فزحلفها بأزفلها إليه [1] أمير المؤمنين إذا تشاء
فإن الناس قد مدوا إليه أكفهمو وقد برح الخفاء
ولو قد بايعوك ولى عهد لقام الوزن واعتدل البناء

وكانت منزلة الشعر فى الأمة عندئذ عظيمة ، وكان يرجى من منزلة جرير وشيوع قوله فى الناس، أن يهيء الأذهان، ويحول القلوب ، ويؤيد رأى الوليد ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن، ومات الوليد قبل أن تتم البيعة .

ولا يذكر الوليد بن عبد الملك إلا ذكرت زوجته « أم البنين » بنت عمه عبد العزيز أيضا لجمالها ، وتغزل ابن قيس الرقيات فيها ، وقصة وضاح اليمن معها .

أما ابن قيس الرقيات فكان ناصرا لآل الزبير على قومها من بنى أمية . فابتدع طريقة فى العبث بهم هى الغزل بنسائهم غزلا يغضبهم، ويثير غيرتهم ، على ألا يؤذى هؤلاء النسوة ، ولا يعرض لهن بما يسوءهن . فلما تغزل بأم البنين حرص على أن يتلطف فى غزله . فزعم أنه ما كان بينه وبينها إلا أحلام نائم . ومن ذلك أبياته فيها من قصيدة يمدح فيها مصعبا :

فدع هذا ولكن حاجة قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى يقر بها مقربها
أتتنى فى المنام فقلت هذا حين أعقبها

ثم ذكر فى هذه القصة المتخيلة شيئا عما كان بينه وبينها فى المنام فقال :

فكانت ليلة فى النو م نسمرها ونلعبها
فأيقظنا منادٍ فى صلاة الصبح يرقبها
فكان الطيف من جنية لم يدر مذهبها
يؤرقنا إذا نمنا ويبعد عنك مسربها

(١) زحلفها — ادفعها ، بأزفلها — بأجمعها

لكن عبد الملك أهدر دمه، ولم يشفع له إلا عبد الله بن جعفر عند أم البنين، فكانت شفيعا له عند عمها عبد الملك .

وقد يكون من العسير التوفيق بين هذه الأغراض المتباينة فى قصيدة واحدة . وكيف ترضى أم البنين ويغضب أهلها ؟ لكن النساء كن حريصات على هذا الغزل يدعون إليه الشعراء ، ويحملن إليهم الجوائز من أجل ذلك. واستطاع ابن قيس الرقيات أن يوفق بين هذه الأغراض كلها . وسمى هذا النوع من الغزل « الغزل الهجائى »

أما وضاح اليمن فشخصية اختلف فى وجودها واسمها ومدى صلتها بالخليفة. وفى تاريخه فى الأغانى أنه تغزل فى أم البنين ، وغضب الوليد عليه فقتله، وتحدثت القصة الموضوعة التى تدور حوله أنه كان يصل إليها فى القصر على غير علم من الوليد ، فلما علم بذلك ذهب إليها يوما فوجدها قد أخفته فى صندوق ، فاستوهبها هذا الصندوق فوهبته له ، فحمله مغلقا كما هو وأمر بحفر ودعا بالصندوق وقال : كأنه يخاطبه: إنه بلغنا شىء إن كان حقا فقد كفناك ودفناك ، ودفنا ذكرك ، وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر . وإن كان باطلا فإنا دفنا الخشب ، وما أهون ذلك ! ثم قذف به فى البئر ، وهيل عليه التراب وسويت الأرض . وما رؤى بعد ذلك لوضاح اليمن أثر فى الدنيا . ومارأت أم البنين لذلك أثرا فى وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما .

وليس أدعى إلى الاستهزاء بهذه القصة ومخترعيها من روح الضعف والاستخذاء والتبلد التى تناسب من وضعوها ، فكيف يعقل من الوليد كل هذا الصبر والثبات والرزانة والحلم والوقار فى ذهابه إليها ، وعدم ذكر كلمة تسوءها عندها، كأنه عدم النخوة والحمية والغيرة ! ، وكأن حب الاستطلاع — وهو غريزة — قد مات فى نفسه ، فلم يفكر أن يفتح الصندوق ولا أن يعرف ما بداخله . وختام هذه السخافة والهذيان أن أم البنين لم تر أى أثر يدل على تغير الوليد ، حتى فرق الموت بينهما ! ويكفينا أبو الفرج

الأصفهانى مئونة ذلك كله فيقول . إن رجلا من زنادقة الشعوبية وقع بينه وبين رجل من ذرية الوليد نخار فى أيام بنى العباس ، خرجا فيه إلى أغلظ المسابة ، فوضع الشعوبى هذه القصة . أما أصلها المحتمل فيشير إلى شدة الوليد ورغبته فى الفتك بوضاح ، وأن ابنه عبد العزيز أراد منه أن يسلك طريق معاوية فى موقفه مع أبى دهبل الجمحى الذى شبب بابنته (١) ، فيحسن إليه ويكرمه ليستحى ويكف ويكذب نفسه . ولكنه أبى ، وأورد وضاحا موارد التلف والهلاك .

---

(١) فى صفحة ٨٨ من هذا الكتاب أن عبد الرحمن بن حسان هو الذى تغزل فى رملة بنت معاوية

٤ ـ عبد العزيز بن مروان

أراد نصيب أن يمدح عبد العزيز بن مروان فعرض شعره على الناس فلما اعترفوا له بالجودة ، وأنه أهل لمدح الملوك ، خرج إلى مصر لمدح عبدالعزيز وأراد الدخول عليه . فكان ينحى عن مجلس الوجوه ولا يؤذن له، فاحتال حتى كلم أحد المقربين من عبد العزيز وأخبره أنه شاعر من أهل الحجاز جاء يمدح الأمير ويرجو معروفه . فقال له : أنشدنى . يقول نصيب « فأنشدته فأعجبه شعرى . فقال : ويحك ! أهذا شعرك . فاياك أن تنتحل . فإن الأمير راوية عالم بالشعر ، وعنده رواة . فلا تفضحنى ونفسك » . فلما كان من الغد نوه باسمى عند عبد العزيز فدخلت فسلمت . فصعد فى بصره وصوب ، ثم قال : « أنت شاعر ! ويلك ! قلت : نعم ، أيها الأمير قال : فأنشدنى فأنشدته فأعجبه شعرى » ، واستأذن أيمن بن خريم فأذن له . ولما اطمأن قال له : « ياأيمن كم ترى ثمن هذا العبد ! فنظر إلى فقال : والله لنعم الغادى فى أثر المخاض ، هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار ، قال : فإن له شعرا وفصاحة . فقال أيمن لنصيب : أتقول الشعر ؟ قال : نعم . قال قيمته ثلاثون دينارا . قال : ياأيمن : أرفعه وتخفضه أنت ! قال لكونه أحمق أيها الأمير ! مالهذا وللشعر ! أمثل هذا يقول الشعر ! أو يحسن شعراً ! فقال : « أنشده يانصيب » ، فأنشدته . فقال له عبد العزيز : كيف تسمع ياأيمن ! قال شعر أسود . هو أشعر أهل جلدته . قال : هو والله أشعر منك . قال : أمنى أيها الأمير ! قال إى والله ، منك ! . قال والله أيها الأمير إنك لملول طرف قال : كذبت والله ما أنا كذلك . ولو كنت كذلك ماصبرت عليك . تنازعنى التحية ، وتؤاكلنى الطعام ، وتتكىء على وسائدى وفرشى ، وبك مابك ! — يعنى وضحا كان بأيمن — قال : ائذن لى أخرج إلى بشر بالعراق ، واحملنى على البريد » . ففعل .

هذه قصة من قصص الأغانى اللطيفة الجيدة السياق ، يروى فيها خبر نصيب فى أول وفادة له على عبد العزيز بن مروان .

ونخرج من قصة الأغانى هذه بأن الشعراء لم يكونوا يخرجون إلى المدح، ويتجشمون مشقة السفر أياما وليالى، إلا إذا وثقوا من شعرهم ، وعرضوه على أهل البصيرة والذوق. وكانوا يفعلون ذلك لما يعرفون عن أمرائهم من ذوق وتقدير للأدب الجيد، وأنهم يجزون به من طيب الجزاء . وأنهم كانوا يستمتعون بالشعر الجديد يسمعونه ،أو بالشعر القديم يروى لهم أو يروونه . وهذا عبد العزيز « راوية عالم بالشعر وعنده رواة » يقصده كثير ونصيب من الحجاز ويقصده أيمن بن خريم من العراق، ويقدمه فى مجالسه ، ويخصه بكثير من العطف والاحسان ، ولا يرضى أيمن أن يكون له منافس فى مجالس عبد العزيز ، ويغيظه أن يقدم عليه شاعرا آخر — ولو كان هذا الشاعر حرا لهان الخطب على أيمن . ولكنه عبد لا يصلح إلا لرعى المخاض — ثم يغضب ويغادر البلاد كلها، أما عبد العزيز فيقدر أدب هذا العبد قدرا ذاتيا ، ويفضله على الأحرار لجودة أدبه . ولا يعبأ بغضبهم ، ولا برحلتهم من عنده، بل يساعدهم على هذا الارتحال، اكتفاء بهذا الشاعر الجديد، وتقديرا له . وربما رأى عبد العزيز فى رقه سببا من أسباب تقديمه يحمله على الاخلاص وعدم التقلب فى الولاء . وليس هذا العبد من الموالى الفرس الذين تطاولوا وتقلبوا فى ولائهم . إنه حبشى. وليس لهذا النوع من الموالى عصبية أو سلطان يحملهم على التردد كموالى الفرس .

وقد كثرت وفادته بعد ذلك عليه . وأعطاه عبد العزيز فأكثر عطاءه . واشتراه فأعتقه ،ووصحبه فى كثير من حالاته . ومدحه نصيب فأحسن المديح فيه . وكان نصيب عند حسن ظنه فوفى له حيا ، ورثاه ميتا بما أبكى عبد الملك ،وأبكى عمر بن عبد العزيز .

ورأيت شاعراً آخر يمدح عبد العزيز بن مروان ، ويفد عليه بمصر ويطيل المقام عنده : هو أمية بن أبي عائذ(١) ، فيكرمه عبد العزيز ، ويأنس به ثم يتشوق أمية إلى أهله فيصله عبد العزيز ويأذن له . كما وفد عليه جرير ومدحه وأخذ جوائزه .

ظل عبد العزيز واليا على مصر لأبيه ولأخيه عبد الملك إحدى وعشرين سنة ، وبنى مدينة حلوان ، وكتب وخطب ، وجلس للشعراء ، وفاضت يداه بالعطاء ، ولكن بعد الشقة بينه وبين منابع الرواية والشعر فى العراق والحجاز ، حرمنا كثيرا مما كان له من آثار . ونرى مما بقى من تاريخه أنه كان حسن الظن بموسى بن نصير فاتح الأندلس ، وأنه حمل أخاه عبد الملك على أن يوليه خمد ولايته ، وكانت بينهما رسائل بشأنه .

وبقى واليا على مصر حتى مات سنة ٨٤ هـ فرثاه نصيب وأكثر من رثائه . ودخل يوما على عبد الملك فقال له : أنشدنى بعض ما رثيت به أخى . فأنشده قوله :

عرفت وجربت الأمور ، فما أرى ... كماض تلاه الغابر المتأخر
ولكن أهل الفضل من أهل نعمتى ... يمرون أسلافا أمامى وأغبر
فإن أبكه أعذر ، وإن أغلب الأسى ... بصبر فثلى عند ما اشتد يصبر
وكانت ركابى كلما شئت تنتمى ... إليك ، فتقضى نحبها وهى ضمر
ترى الورد يسرا ، والثواء غنيمة ... لديك ، وتثنى بالرضا حين تصدر

فلما سمع عبد الملك قوله :

فإن أبكه أعذر ، وإن أغلب الأسى ... بصبر فثلى عندما اشتد يصبر

قال له : ويلك ، أنا كنت أحق بهذه الصفة فى أخى منك ! فهلا وصفتنى بها ! وجعل يبكى .

فعبد العزيز خطيب راوية . يرعى الأدباء ويجزى المحسن منهم أحسن الجزاء .

(١) أغانى ج ٢٠ ص ١١٥ (٢) أغانى ج ١ ص ٣٦١

٥ - بشر بن مروان

رغب أيمن بن خريم عن جوار عبد العزيز بن مروان لما فضل عليه نصيباً، فاستأذنه أن يحمله على البريد إلى بشر بالعراق، فأذن له. فقال:

ركبت من المقطم فى جمادى ... إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف ... رأى حقا عليه أن يزيدا
أميرَ المؤمنين أقم ببشر ... عمود الحق إن له عمودا
ودَع بشراً يقومهم ويحدث ... لأهل الزيغ إسلاما جديدا
كأن التاج تاج بنى هرقل ... جلوه لأعظم الأيام عيدا،
على ديباج خدّى وجه بشر ... إذا الألوان خالفت الخدودا

فأعطاه بشر مائة ألف درهم.

شعراء الشيعة ومدح بنى أمية

قد ذهب أيمن إلى عبد العزيز غاضبا من عمه يحيى بن الحكم، ثم كره جوار عبد العزيز، فخرج إلى العراق واستقرت به النوى - ولو إلى حين - عند بشر بن مروان. وكثرت وفادته على عبد الملك وولاته و مدحهم، فكان شاعراً من شعراء بنى أمية: يمدح يحيى هذا، ويمدح عبد العزيز وعبد الملك وبشرا أبناء مروان، ويأخذ جوائزهم جميعاً — وكان يتشيع — ونكاد نرى فى قصته أنه فضل بشرا عليهم. والفرزدق يمدح بشراً، ويمدح عبد الملك، ويمدح سعيد بن العاص، ويمدح غيرهم من بنى أمية، والكميت بن زيد الأسدى يرتجل خطبة عند هشام بن عبد الملك ماسمع بمثلها (١) قط، ويمتدحه بقصيدته الرائية

اليوم صرت إلى أمية والأمور لها مصاير

ويقال إنه قالها ارتجالا. وكثير عزة كان يتشيع أيضا، ولكنه كان دائم الصلة بخلفاء بنى أمية.

---

(١) أغانى ٤٥ ص ١١١

فما مبلغ إيمان هؤلاء الشعراء بمذهبهم؟ . أما الكميت فلا شك فى إيمانه بمذهبه . ولكن هشاما سد عليه المسالك ، وطلبه فى كل مكان ، فرأى أن يعتذر إلى هشام وأن يمدحه ، ليبقى على نفسه ، وأما هؤلاء الذين قدمنا فكان تشيعهم تشيعا قلبيا فقط . وكان شعرهم للتكسب ، أو كانوا يؤثرون السكوت لما كان يستطيعه بنو أمية من عطاء ومنع ، وإزهاق أرواح وقطع ألسن الخ . فلا عجب أن نجد من الشيعة ، ومداح آل الزبير كابن قيس الرقيات واسماعيل بن يسار ، ومن الخوارج كعبد الله بن الحجاج ، من يلجأ إليهم . ومن الخوارج من فر منهم كعمران بن حطان ، ولعله كان أصدقهم إيمانا بمذهبه ، فآثر الاستخفاء على أن يمدح بما لا يعتقد ، وهو القائل :

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدى العباد

كان بشر ممدّحاً . وكان جوادا

قدم عليه «أيمن» بالأبيات السابقة فأعطاه مائة ألف ، ومدحه نصيب بالكوفة ، فأمر له بعشرة آلاف درهم . وكان الحكم بن عبدل الأسدى منقطعا إلى بشر بن مروان ، وكان يأنس به ويحبه ويستطيبه ، وأخرجه معه إلى الكوفة لما وليها . وعرض له ماشغله عنه ، ثم التقيا فقال : «يابن عبدل ، مالك تركتنا وقد كنت لنا زوارا؟» فقال ابن عبدل شعراً يعاتبه فيه ، فوصله وحمله وكساه .

وكان عبد الله بن الزّبير الأسدى من أكثر الشعراء اتصالا به ، مدحه واستعطفه وأخذ جوائزه ، واعتذر إليه : ودخل عليه يوما وعليه ثياب كان بشر قد خلعها عليه . وكان قد بلغ بشرا عنه شىء يكرهه ، فجفاه ، فلما وصل إليه وقف بين يديه ، وجعل يتأمل من حواليه من بنى أمية ، ويجيل بصره فيهم كالمتعجب من جمالهم وهيئتهم . فقال له بشر ، إن نظرك يابن الزبير ليدل أن وراءه قولا . فقال نعم . فقال قل : فقال :

(١) ص ٣٣٤ ج ١ ـ أغانى

كأن بنى أميـــة حول بشر   نجوم وسطها قمر منـــير
هو الفرع المقدم من قريش   إذا أخذت مآخذها الأمور
لقد عمت نوافله فأضحى   غنياً من نوافله الفقير
جبرت مهيضنا وعدلت فينا   فعاش البائس الكل الفقير
فأنت الغيث قد علمت قريش   لنا، والواكف (١) الجون المطير

فأمر له بخمسة آلاف درهم ورضى عنه .

وتعرض يوما لمدحه ، فقال له بشر : هل أبق أسماء بن خارجة منك أو من شعرك أو من ودك شيئا ! لقد نزحت فيه بحرك يابن الزبير . فقال : أصلح الله الأمير : إن أسماء بن خارجة كان للمدح أهلا ، وكانت له عندى أياد كثيرة، وكنت لمعروفه شاكراً ، وأيادى الأمير عندى أجل ، وأملى فيه أعظم ، وإن كان قولى لا يحيط بهـا فى فضل الأمير على أوليائه ما قبل به ميسورهم ، وإن أذن لى فى الإنشاد رجوت أن أوفق للصواب ، فقال هات: فأنشده شعراً مدحه فيه بالكرم والشجاعة والسيادة وغيرها من المعانى المتداولة فى تلك الأيام ، ومدح معه آل مروان ، والشعر فى صفاء ديباجته، وحسن تركيبه ، ورقة أسلوبه شعر جيد حقا : ومنه :

فلا زلت يا بشر بن مروان سيدا   يهل علينا منك طل ووابل
فأنت المصفى يابن مروان والذى   توافت إليه بالعطاء القبائل
يرجون فضل الله عند دعائكم   إذا جمعتكم والحجيج المنازل
ولولا بنو مروان طاشت حلومنا   وكنا فراشا أحرقتها الشعائل

فأمر له بجائزة ، وكساه خلعة ، وأراد أن يوفده على عبد الملك وأمره أن يتهيأ لذلك . وسأله عما سوف يقول عنده، فارتجل قصيدة من وقته . فلما فرغ منها قال بشر لجلسائه : كيف تسمعون ! هذا والله الشعر ، وهذه القدرة عليه! (٢)

---

(١) الواكف : المنهمر ، الجون : الاسود ، وذلك لامتلائه بالماء

(٢) ٤٠ — « — ١٣ أغانى

لم ينته هذا المجلس عند تفضيل بشر لشعر ابن الزبير ، فإن حجارا العجلى من أشراف الكوفة عقب على بشر بقوله : هذا أصلح الله الأمير — أشعر الناس وأحضرهم قولا إذا ، فرد عليه محمد بن عمير بن عطارد راد أوكان عدوا لحجار — : أيها الأمير ، إنه لشاعر ، وأشعر منه الذى يقول :

لبشر بن مروان على كل حالة من الدهر فضل فى الرخاء وفى الجهد

وأبياتا أخرى ، فقال بشر : من يقول هذا ؟ قال الفرزدق — وكان بشر غاضبا عليه — فأبى أن يرضى عنه حتى يأتى اليه بالكوفة ، وكتب إليه محمد بن عمير بن عطارد بذلك ، وغضب ابن الزبير فهجا محمدا هذا ، فدعاه بشر أن يكف عن هجائه ، وشمت به حجار بن أبجر ، ومشت بنو أسد إلى ابن الزبير ، وقالوا له : أو لست تعلم أن الفرزدق أشعر العرب ! قال : بلى ، ولكن محمداً ظلمنى ، وتعرض لى ، ولم أكن لأحلم عنه إذ فعل . فحملوه على هجاء حجار حتى يرضى محمد بن عمير ، فقال يهجوه

سليل النصارى سدت عجلا ، ومن يكن كذلك أهل أن يسود بنى عجل
ألا إنهم كانوا لئاما فسدتهم ومثلك من ساد اللئام بلا عقل

الخ . وتهدده بنو عجل بالقتل ، فسخر منهم بقوله :

وتوعدنى بالقتل منهم عصابة وليس لهم فى العز فرع ولا أصل
وعجل أسود فى الرخاء ، ثعالب إذا التقت الأبطال واختلف النبل

هذه صورة من مجالس بشر وما كان يجرى فيها حول الشعر . وصورة من صلة الشعراء بالأمراء والولاة ، وصورة من أثر الولاة فى الشعر وتوجيههم له ، وصورة من فعل الشعر فى نفوس القبائل ، وصورة من تعصب الأعيان لشعرائهم . ومن تعصب الأمراء على الشعراء إذا أهملوهم أو مدحوا غيرهم . ومن غضب الشعراء إذا عرض لهم أحد بسوء .

« شعر المدح » :

وهذه كلمة أقولها عن هؤلاء الشعراء المادحين : فإن أكثر ما نراه فى مدائحهم معان عامة شائعة أباها عبد الملك ، وأراد منهم أن ينوعوا ويبدعوا ،

وفى كثير من هذه المدائح صنعة قوية . لا إيمان وعاطفة وصدق ، وأرى أن الذين أخلصوا قليلون ، كالأخطل لبنى أمية ، والكميت للشيعة ، وأن الذين مدحوا للرجاء أكثر ممن مدحوا للوفاء ، وأن شعر المدح هذا قد جنى على الشعر العربى جناية كبرى ، إذ صرف همة الشعراء وفنهم ، إلى ناحية فردية ، ودار بهم فى فلك واحد ، وقلد بعضهم بعضا فى المعانى ، وربما زاد العباسيون قليلا ، لكنهم أرادوا التجديد فلم يجدوا إلا المبالغة التى خرجت بهم إلى الغلو المرذول أو الكفر .

الإغراء بين الشعراء وأثره :

وأهم مايذكر به بشر بن مروان فى تاريخ الأدب مسألة لها صلة بالسياسة وبالأدب معا . وهى الإغراء بين الشعراء :

يقول ابن سلام الجمحى[1] « كان سراقة البارقى شاعرا ظريفا تحبه الملوك قدم العراق مع بشر بن مروان ، وكان بشر من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدّحا ، يمدحه جرير والفرزدق والأخطل ، وكثير ، وأعشى بنى شيبان . وكان يغرى بين الشعراء - وهو أغرى بين جرير والأخطل - فحمل سراقة على جرير حتى هجاه » .

وفى ترجمة جرير فى الأغانى[2] أن الحجاج قال لجرير « إيه ياعدو الله ! علام تسب الناس وتشتمهم » فاعتذر إليه جرير بأنه يفعل ذلك دفاعا عن نفسه ، وأخبره خبره مع الشعراء ، حتى جاء إلى سراقة بن مرداس البارقى ، فقال له الحجاج مالك وله ؟ فأجاب جرير : لاشيء ، حمله بشر بن مروان وأكرهه على هجائى ، ثم بعث إلى رسولا وأمرنى أن أجيبه . فسأله الحجاج عما هجاه به فقال :

إن الفرزدق برّزت أعراقه عفوا ، وغودر فى الغبار جرير
ماكنت أولَ مِحمر قعدت به مسعاته ، إن اللئيم عثور[3]

(١) ص ١٠٦ طبقات الشعراء (٢) ج ٧ ص ٤٢
(٣) محمر كمنبر : اللئيم ، المسماة : السعى

هـــذا قضاء البارق وإنه بالميل فى ميزانكم لبصير

ثم سأله عن رده عليه ، فقال : قلت :

يابشر حق لوجهك التبشير هلا غضبت لنا وأنت أمير
بشر أبو مروان إن عاسرته عسر ، وعند يساره ميسور
قد كان حقك أن تقول لبارق يا آل بارق فيم سب جرير

واجتمع الفرزدق وجرير والأخطل عند بشر بن مروان[1] ـ وكان بشر يغرى بين الشعراء ـ فقال للأخطل : احكم بينهما . فاستعفاه بجهده ، فأبى إلا أن يقول . فقال : هذا حكم مشئوم ! ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر . فلم يرض بذلك جرير ، وكان سبب الهجاء بينهما . فقال جرير فى حكومته :

ياذا الغباوة إن بشرا قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان
فدعوا الحكومة لستمو من أهلها إن الحكومة فى بنى شيبان
قتلوا كليبكمو بلقحة جارهم ياخزر تغلب لستمو بهجان[2]

فقال الأخطل يرد على جرير :

ولقد تناسبتم إلى أحسابكم وجعلتمو حكما من السلطان
فاذا كليب لاتساوى دارما حتى يساوى حرزم بأبان
وإذا جعلت أباك فى ميزانهم رجحوا وشال أبوك فى الميزان
وإذا وردت الماء كان لدارم عَفواته وسهولة الأعطان

ثم استطارا فى الهجاء ، ويقول ابن سلام فى هذا الخبر :[3]

« لما بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما ، وتأتينى بخبرهما . فلقيهما ، فاستمع ، ثم أتى أباه فقال : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر . فقال الأخطل : بجرير أشعرهما . »

---

(١) أغانى جـ ٧ ص ٢٦ (٢) اللقحة : الناقة . الخزر : الذين عيونهم ضيقة . الهجان : الكرام (٣) طبقات الشعراء ص ١٥٨

ثم قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان ، فبعث إليه محمد بن عمير ابن عطارد ، بدراهم وحملان وكسوة وخمر . — وبلغني أن الذى بعث بهذا شبة بن عقال المجاشعي وقال للأخطل : فضل شاعرنا عليه وسبّه ، ففضله فى قصيدة نونية طويلة فرد عليه جرير ينقض قصيدته بأخرى من وزنها ورويها . ودخل الأخطل فى صف الشعراء الطويل الذى كان جرير يهاجيه .

ولهذا الإغراء فضله على الأدب ، والرواية ، وأخبار القبائل فى الجاهلية. فقد أحدث ثورة عظيمة فى نفس كل من هؤلاء الشعراء . وبذل كل منهم جهده فى الطعن على صاحبه وتجريحه ، وذكر معايبه ومعايب قومه فى الجاهلية والاسلام . واقتضى ذلك أن يفخر كل منهم بفضائله ، من الشجاعة والكرم ، وحماية الجار ، والعفة ، وغير ذلك . وأن يشيد بقومه ويذكر تاريخهم وما كان فيه من أيام غر ، ومكارم معدودة[1]. وكثر ذلك النوع من الشعر المسمى « النقائض » . وقد حفظ هذا التهاجى كثيرا من تاريخ القبائل التى ينتسب إليها هؤلاء الشعراء . فكان مصدرا من مصادر تاريخ الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها . وزاده شراح هذه النقائض تفصيلا . ولكنه تاريخ متهم ، فيه تحيز الشاعر لقبيلته ، وتحامله على خصومه .

أما السياسة فكانت تقصد بهذا الإغراء أن تشغل الشعراء بعضهم ببعض، وأن تشغل قبائلهم معهم ، وأن تفضل شاعرا على شاعر . وفى هذا تفضيل لقبيلته فيضمن رجال السياسة صرف القبائل عن سياستهم، وتحويل الشعراء عن نقدهم ، وخلق جو من التنافس بينهم فى الولاء للدولة ونصرتها، والطمع فى العطاء والتقدم عند الخلفاء. وفى الأبيات التى سقناها . وفى حرص محمد ابن عمير فى رواية ،أو شبة بن عقال فى رواية أخرى ـ وهما من رهط

(١) أغانى ١٩ في ترجمة الفرزدق أنه قال لأخواله : لقد شرفكم من فخرى أكثر مما فضحكم من هجاء جرير . وقال لهم : والله لما ذكرت من شرفكم وأظهرت من أيامكم أكثر .

الفرزدق ـ على أن يحكم الأخطل لصاحبهما ، تأييد لما نقول .فانظر إلى أى مدى حاولت السياسة أن تؤثر فى الأدب !

كان لبشر ـ على صغر سنه ، وقصر ولايته ـ حديث فى الأدب أكثر من أخيه عبد العزيز ، ولا يرجع ذلك إلى ثقافة بشر الأدبية ، ولا سخائه ، ولا تقديره للأدب .فربما كان عبد العزيز أستاذه فى كل هذا — وقد ربى بشر فى حجره بمصر بعد موت أبيه مروان — وطالت ولايته على مصر .ولم يكن خيرها أقل من خير العراق . لعل السبب متعلق بالبلد الذى كان يحكمه كل منهما . إذ كان بشر يحكم العراق،وشعراؤه كثيرون ، وسكانه عرب ،والوفادة إلى الولاة هناك ميسورة . أما مصر فكانت الرحلة إليها شاقة ، وشعراؤها وافدون عليها ، وكانت الأمور فيها مستقرة ، فكانت الحاجة إلى الشعر السياسى فيها قليلة ، ولم يكن بالوالى حاجة إلى إغراء الشعراء بعضهم ببعض كما كانت الحاجة فى العراق . ولا نكاد نذكر من الشعر فى أيام عبد العزيز بمصر إلا شعر المدح وهو قليل .

٦ - الحجاج (١)

لعل الحجاج بن يوسف الثقفى أبرز شخصية فى ولاة الدولة الأموية جميعا ، وذلك للعبقرية الخطابية التى امتاز بها من بين الولاة ، ولكثرة الثورات التى تغلب عليها ، والشعراء الذين اتصل بهم ، والمواقف الأدبية التى وقفها مهاجما أو مدافعا ، والأسلوب الشعرى الذى امتاز به فى خطابته ، من كثرة الاستشهاد بالشعر ، وقوة الحجج الخطابية والمنطقية ، تبريرا لسياسته العنيفة فى البلاد التى حكمها ، ومع الرجال الذين كانوا يعملون له ، ومع الأعيان واخص منهم الصحابة والتابعين ، ولاختلاف الناس فى أمره بعد موته ، ولشخصيته المزدوجة التى يصورها تاريخ الأدب عنيفة قاسية فى بعض المواقف ، طائعة منيبة إلى الله فى مواقف أخرى .

وقد اعتمد عليه عبد الملك فى تأديب جنود متخاذلين يعتمدون على صلة رئيسهم روح بن زنباع بالخليفة ، فكان الحجاج القائد الذى ألزمهم الطاعة وأخرجهم راغمين لحرب زفر بن الحارث فى شمال العراق ، ولحرب الخوارج مع المهلب . (٢)

وكان ابن الزبير خليفة تخضع له أكثر البلاد الاسلامية ، ويتخذ من البلد الحرام مقرا لخلافته . فلم يجد عبد الملك إلا الحجاج يرمى به فى هذا الموقف الحرج ، ويخرجه لمحاربة هذا الصحابى الجليل ، والخليفة القوى ، العائذ بالبلد الحرام . فذهب إلى أبعد حد فى محاربته حتى انتصر عليه ، وأخضع الحجاز لعبد الملك . وكانت خطبته بعد قتله لابن الزبير من أقوى الخطب التى ظهرت فيها مقدرته البيانية مع ضعف مركزه . فقد خطب فى الناس بعد أن هاجم مكة ، ورمى الكعبة ، وقتل ابن الزبير وصلبه سنة ٧٣ هـ فقال :

« ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله ، ولو كان شىء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته

---

(١) للمؤلف كتاب خاص استوفى فيه الحديث عن الحجاج : اسمه (سيف بنى مروان)

(٢) سيف بنى مروان ص ١٠

وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة »

لقد ظهر فى أولها بمظهر المنصف ، كى يسترضى مكة الثائرة التى ارتجت بالبكاء لمقتل ابن الزبير ، فاعترف أنه كان من أحبار هذه الأمة، فلما رغب فى الخلافة تغيرت حالته ، فأصبحت رغبته هذه « منازعة » لأصحاب الحق ، وهم الأمويون ، وخلعا لطاعة الله ، وفى هذا مافيه من تقبيح هذا الخروج ، ثم ذهب إلى أبعد من هذا فى تصويب عمله . فسمى ابن الزبير عاصيا ، فلا حرج على من يعاقبه ولو كان عائذا بالبيت الحرام ، وله فى قصة آدم عليه السلام خير أسوة . فالله قد خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وجعل له الجنة سكنا . ولم تمنعه هذه المكانة العالية من أن يؤخذ بذنبه ، فلما عصى هو وحواء ، وذاقا الشجرة ، بدت لهما سوءاتهما، وأخرجهما الله من جنته .

والحجاج فى خطبته هذه لبق إلى أبعد حدود اللباقة ، وعلى الأخص فى اختيار هذه القصة الدينية ليبرر بها عمله، ولتكون حجته مسلمة ، وموقفه من ابن الزبير لا حرج فيه .

ثم نقله عبد الملك إلى العراق سنة ٧٥ هـ ، والفتن قائمة فيها على قدم وساق فالخروج على الولاة مستمر ، والخوارج يهددون العراق ولا يجدون من يحمى بلاده منهم ، والناس متخاذلون عن الخروج لحرب هؤلاء الأعداء ، فتخيره عبد الملك ورماهم به ، فذهب وفى نفسه مافيها، من شر يضمره لأولئك العصاة، ومن حزم يقطع به دابر الفتنة . دخل العراق فى عدد قليل ، ولكنه كان كبير القلب ، ثابت الجنان ، كأنه من عزيمته وشجاعته فى جيش . وسار من الحجاز إلى الكوفة فى اثنى عشر راكبا على النجائب ، فدخل مسجدها فى منظر تمثيلى محير مخيف . فقد اعتم بعمامة غطى بها أكثر وجهه ، وتقلد سيفا، وتنكب قوسا ، وصعد المنبر ، ومكث ساعة لا يتكلم ، فظنه الناس هو ومن معه من الخوارج ، وعرف بعضهم أنه الحجاج الذى أرهب الحجاز وأخضعها . فلما ثارت نفوسهم واشتدت حيرتهم وقلقهم، وأرادوا أن يحصبوه

وهو على المنبر ،وتطلعوا إلى ما وراء هذا الصمت حسر اللثام عن وجهه ، ثم تكلم فقال .

« يا أهل العراق إنى لأرى رءوساقد أينعت وحان قطافها . وإنى لصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ! »

بدأ الحجاج سياسته فى العراق بهذا الوعيد ، وبمثل هذه الصور الشعرية أتم خطبته العنيفة ، مركزا كل حديثه عن نفسه ، فعل الواثق من قدرته ، المعتز بشخصيته ، وألقى بعبارات التهديد والوعيد فى هذا الأسلوب التصويرى وكأنه يصورلهم جحيما ينتظرهم ، وعذابا أليما يعده لهم ، وإنه على ذلك قدير، وكان يقتبس أبياتا من الشعر كأنها هدير الابل ، أو صليل السيوف ، حتى إذا فرغ من وعيده وإنذاره كانوا جميعا رهن إشارته ، وإلا فالسيف من ورائهم .

ومكث فى العراق بقية أيام عبد الملك وأكثر أيام الوليد حتى مات سنة ٩٥ هـ ، بعد أن أطلقت الأحداث لسانه بالخطب الخالدة وبعض الرسائل القوية .

ومما يتميز به أدبه كثرة حديثه عن نفسه ، وهو دليل الاعتزاز بها كما تقدم ، ثم روح الشعر الظاهرة فى هذه الصور البيانية التى ملأ بها خطبه السياسية والدينيه ، كقوله فى خطبة يهدد أهل البصرة .

«إنى أنذر ثم لا أنظر ، وأحذر ثم لا أعذر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق (١) ولا تكم ، ومن استرخى لببه (٢) ساء أدبه . إن الحزم والعزم سلبانى سوطى ، وابدلانى به سيفى » .

وقوله فى أهل الكوفة .

« يا أهل الكوفة . إن الفتنة تلقح بالنجوى ، وتنتج بالشكوى ، وتحصد بالسيف . أما والله إن أبغضتمونى لا تضرونى ، وإن أحببتمونى لاتنفعونى، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ولا المستريح الى مودتكم » .

---

(١) الترنيق : الضعف . (٢) اللبب حبل يشديه الرجل الى صدر الدابة .

ثم هذه الجمل القصيرة الموسيقية الألفاظ التى تكاد تكون مطردة فى رسائله وخطبه ، وحسن الاستشهاد بالقرآن الكريم أو تضمينه واقتباسه، وبالشعر كأنه قائله ، ليؤدى معنى فى ثنايا أقواله . أو يرهب به سامعه ، أو يثنى عليه ؛ ثم تدفقه وانهمار عباراته بلا تكلف ولا ضعف ، ثم دلالة عباراته على صدق معانيه وقوة تأثره .

ولا تكاد تجد له قولا هادئا متواضعا إلا فى حديثه إلى الخليفة ، أو خطبه الوعظية ، أو فى جند الشام الذين كانوا يجيشونه مددا من الخليفة .

أما أثره فى الأدب بعد هذه الخطب والرسائل فكان كثيراً . فقد أثار عليه كثيراً من الشعراء عابوه وذموه . وأرهب كثيراً منهم فخافوه واعتذروا إليه . وأحسن إلى كثير منهم فمدحوه وأثنوا عليه خيراً . وأثار بينهم غيرة وحسداً فهاجى بعضهم بعضا . وسجن بعضهم فانطلقت ألسنتهم بمر الشكوى من سجونه . وكانت سياسته العنيفة سببا فى خروج ابن الأشعث، ومطرف ابن المغيرة ، وشبيب الحرورى . فأداروا خطبهم حول سياسته فوصفوها بما استطاعوا من ذم قوى . وظفر ببعض الخارجين عليه فجاد لهم ،وانطلقت ألسنتهم بكل جواب بليغ ، أواعتذار مؤثر، أو صراحة بديعة .

وما زال الحجاج مضرب المثل فى الخطابة وعلما من أعلامها على الرغم من قلة ما حفظه التاريخ من آثاره . وكانت هذه الخطب مثالا لمن أراد حذوا يحتذيه فى الإيجاز والقوة،والإبداع فى التصوير وحسن الاستشهاد والاقتباس. وما زالت خطبته حين ولى العراق، وخطبته بعد دير الجماجم ، من أقوى ما جرى به لسان خطيب على منبر فى الإرهاب والوعيد .

٧ — سليمان بن عبد الملك

هذا الذى كان أبوه يباهى به خالد بن يزيد فى الفصاحة ، ولنا به عهد فى الكلام عن أخيه الوليد وعن الحجاج ، لما أراد أخوه خلعه من ولاية العهد،وساعده الحجاج على ذلك ، وقال جرير شعراً يدعو فيه إلى البيعة لعبد العزيز ابن الوليد . وقد حفظ سليمان فى نفسه ضغينة على كل من ساعدوا الوليد،وأضمر الشر لهم ، فلما مات أخوه أخذ الذين مالئوه أخذ عزيز مقتدر ، فآذى آل الحجاج ، وأخذ منهم محمد بن القاسم الثقفى ، الذى نشر الاسلام على جميع بلادالسند ، فقيده وحمله إلى العراق، فقال محمدمتمثلا:

أضاعونى وأىّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وبكى أهل السند على فراقه . ولما بلغ العراق حبس بمدينة واسط. فقال متحسراً على ما أصابه :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهنَ الحديد مكبلا مغلولا
فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قِرن قد تركت قتيلا

وأصاب قتيبة بن مسلم الباهلى مثل ما أصاب محمد بن القاسم من غضب سليمان ، ولكنه ثار بخراسان وخلع سليمان فثار به بعض الكارهين له ، أو الطامعين فى مكانته، فقتلوه هو وإخوته وأكثر بنيه . وقال رجل من هجم خراسان : « يامعشر العرب قتلتم قتيبة ! والله لو كان منا فمات فينا جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا » . وكانوا يسمونه هناك ملك العجم.

وأصاب موسى بن نصير فاتح الأندلس من الحبس والارهاق مالم يحتمله. ومما حمده الناس لسليمان أنه عزل كثيرا من عمال العسف والجور الذين عينهم الحجاج .

ولعل أكثر أدبه وأقواه ، ما كانت له صلة بحالات الغضب التى كانت

تعتريه قبل أن يلى الخلافة ، من ذلك غضبه بسبب إهمال الحجاج لرجائه وشفاعته ، فكتب إليه يوعده ويتهدده .

« وأيم الله لئن أمكننى الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجعلنك شريداً فى الجبال تلوذ بأطراف الشمال ، ولأعلقن الرومية الحمراء بثدييها (١) . علم الله ذلك منى وقضى لى به على ، فقدما غرتك العافية ، وانتحيت أعراض الرجال ، فإنك قدرت فبذخت ، وظفرت فعديت ، فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك ، إن كانت بى وبك مدة أتعلق بها ، وإن تكن الأخرى فأرجو أن تئول إلى مذلة ذليلة ، وخزية طويلة ، ويجعل مصيرك فى الآخرة شر مصير ، والسلام » .

وقد كانت « الأخرى » فمات الحجاج فى عهد الوليد . أما رده على كتاب سليمان فقد امتلأ بدهاء الحجاج وعنفه ، وكاد يوقع بسليمان عند أخيه الوليد حينما أشار إلى رغبته فى الخلافة وحرصه عليها . ويروى أنه كتب إليه :

« إنما أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت فى ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت محوتك ، وإن شئت أثبتك » .

واصطفى يزيد بن المهلب ، من أجواد العرب وخير القواد ، بعدما أجاره من الحجاج فى عهد أخيه فى قصة طويلة لطيفة رواها الطبرى وابن خلكان .

وكان حريصا على ما يقال عنه من الشعر . وقد روى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى عامله بالأردن أن يبعث إليه بعدى بن الرقاع مغلولة يداه إلى عنقه . فلما جاء إليه ألقى بين يديه إلقاء لا روح فيه ، فتركه حتى ارتد إليه روحه ، ثم قال له : أنت أهل لما نزل بك . ألست القائل فى الوليد :

معاذ ربى أن نبقى ونفقده   وأن نكون لراع بعده تبعاً

فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما هكذا قلت . وإنما قلت :

معاذ ربى أن نبقى ونفقدهم   وأن نكون لراع بعدهم تبعا

---

(١) يريد بها زينب بنت يوسف أخت الحجاج

ومثل هذا الشعر الذى يتصل بالسياسة يثير سليمان وغير سليمان .

فغاظه البيت على الرواية الأولى ؛ ولعل الرواية الثانية قد أعجبته فعفا عن ابن الرقاع إعجاباً بحسن تخلصه ، وأمر له بصلة .

وكان الشعر يثيره أيضاً ويحمله على الشدة . فقد أغراه الفرزدق بخالد ابن عبد الله القسرى واليه على مكة لأنه ضرب رأس الحجبة لما أبى أن يفتح له باب الكعبة قال الفرزدق :

سلوا خالدا ـ لا أكرم الله خالدا ... متى وليت قسر قريشا تدينها !
أقبل رسول الله أم ذاك بعده ... فتلك قريش قد أغث سمينها
رجوناهداه لاهدى الله خالدا ـ ... فما أمه بالأم يهدى جنينها

فحمى سليمان من الشعر ، وأمر بقطع يد خالد ، وكان عنده يزيد بن المهلب فما زال به يفديه ويقبل يده ، حتى أمر بضربه مائة سوط ، وعفا عن قطع يمينه .

وكان يرغب أن يمدحه الشعراء ويعطى على ذلك ، فمن أبى حرمه :

اجتمع عنده نصيب والفرزدق[1] فاستنشد الفرزدق وهو يرى أنه سيمدحه ، فأنشده يفتخر :

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يركبون الريح وهى تلفهم ... على شعب الأكوار من كل جانب
إذا استوضحوا نارا يقولون ليتها ... ـ وقد خصرت أيديهم ـ نار غالب

فغاظ سليمان ، وكلح فى وجهه ، وقال لنصيب : قم فأنشد مولاك ويلك ! فقام نصيب فأنشده قوله :

أقول لركب قافلين لقيتهم ... قفاذات أوشال ومولاك قارب[2]
قفوا خبرونى عن سليمان إننى ... لمعروفه من أهل ودان طالب
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب
وقالوا عهدناه ، وكل عشية ... بأبوابه من طالبى العرف راكب

(١) أغانى جـ ٦ ص ٣٣٧ (٢) وراء ذات أوشال وهو اسم مكان ، قارب : طالب المعروف .

هو البدر والناس الكواكب حوله ولاتشبه البدرَ المضيء الكواكب

فقال : أعطوا النصيب ، وألحقوا الفرزدق بدار أبيه ، فخرج الفرزدق مغضبا وهو يقول .

وخير الشعر أكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

أما الأمر الجدير بالتفكير فهو موقف جرير منه فى ولاية العهد فقد كان يدعو إلى خلعه ، وإقامة ابن أخيه . وقد رأيت فى ديوانه قصيدة يمدحه فيها ويقول فيه :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدى ، قد وضح السبيل
أجرتَ من المظالم كل نفس وأديت الذى عهد الرسول
صفقت لك بيعة بثبات عهد فوزن العدل أصبح لايميل

ثم يمدحه بعد ذلك بالكرم ، وأنه أراح الناس من مظالم الحجاج وعسف عماله الخ .

ولا أدرى كيف عفا عن جرير واشتد على عدى بن الرقاع ، مع أن بيته فى الدعاء للوليد ، لايساوى شيئا إذا قورن بأبيات جرير فى البيعة لعبد العزيز بن الوليد وخلع سليمان . ربما كان هذا المدح استعطافاً أو تودداً لم يعبأ به سليمان .

وليس لسليمان مايمتاز به على غيره من الخلفاء والولاة من حيث المركز الأدبى . لكن حسنته التى يضاعف الله أجره بها ، هى استخلافه الرجل العادل الصالح ، عمر بن عبد العزيز .

٨ - هشام بن عبد الملك

رابع الخلفاء من أولاد عبد الملك ، ومن أشهر الخلفاء الأمويين وأبعدهم أثرا فى السياسة والأدب .

ولا نريد أن نطيل فى صفات الخلفاء الأدبية، وهى التى طبعت مدرسة معاوية بطابعها ، من فصاحة وعناية بالأدب ، ورواية للقديم والحديث من الشعر والأخبار ، ومن تقديم شعراء المدح ، واستخدام الشعر فى السياسة الخ ، فقد كان هشام عظيم القدر فى ذلك كله ، وأخباره فى هذا مشهورة، ولكنا نريد أن نقف قليلا عند مسائل تميز بها هشام وعصره : أما أولى هذه المسائل فهى ماسجله الأدب من نزاع بينه وبين ولى العهد ، الوليد ابن أخيه يزيد، فقد كانا مختلفين فى الأخلاق والدين . أما هشام فكان فيه حزم عبد الملك ، كما كان حليما عفيفا ، غير متهم فى دينه ، وأما الوليد فكان خليعا سكيرا ، يؤثر مجالس اللهو والشراب ، فكره هشام منه ذلك ، وأراد أن يخلعه ، ويجعل العهد لابنه مسلمة ، وأراده على ذلك فأبى . فجعل يذكر تهتكه وإدمانه الشراب . وولاه الحج ليظهر ذلك منه بالحرمين ، ويرى الناس هذا الفسوق فلا يغضبوا لخلعه ، وكان ذلك سببا فى الجفاء والقطيعة بينهما ، وحرمه هشام عطاءه وبره ، ودعا الناس إلى بيعة ابنه مسلمة ، فأجابه عدد كثير منهم ، وكتب إلى الوليد :

« ما تدع شيئا من المنكر إلا أتيته وارتكبته ، غير متحاش ولا مستتر . فليت شعرى ما دينك ! أعلى الإسلام أنت أم لا ؟ » .

فكتب إليه الوليد .

يأيهـــا السائل عن ديننا ... نحن على دين أبى شاكر
نشربها صـــرفا وممزوجة ... بالسخن أحيـانا وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة — وكان يكنى أبا شاكر، وكان صديقا لابن عمه الوليد — وقال له : « يعيرنى بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة ! فالزم

الأدب، واحضر الصلوات » . وولاه الموسم سنة ١١٧ هـ فأظهر النسك والوقار والدين ، وقسم بمكة والمدينة أموالا، فقال رجل من موالى أهل المدينة :

يأيها السائل عن ديننـــا نحن على دين أبى شاكر
الواهب البُزل بأرسانها ليس بزنديق ولا كافر

ولكن مسلمة مات قبل أبيه ، وبقيت ولاية العهد للوليد بن يزيد . والرسائل بينهما من السهل الممتنع ، وسط بين الطول والايجاز ، يلوم فيها هشام ابن أخيه ويعيبه فى جمل قصيرة ، وفقرات متساوية أو متقاربة ، وفيها تبرير لغضبه عليه .

أما الأمر الثانى فهو العصبيات، وما كان لتسامحه من أثر فى قوتها واضطرامها وبخاصة فى بلاد المشرق . وشغل الأدب بالنزاع القبلى أكثر من أى عهد مضى . فقد ولى خالدا القسرى زمنا طويلا على العراق ، وكان من اليمن ، فأساء إلى مضر كثيرا من الاساءات ، وولى على خراسان أخاه أسد بن عبد الله ، وكان شديد العصبية كأخيه خالد ، فساعدت هـذه الظروف على أن يشغل العرب أدبهم وخطابتهم وكتابتهم بالحديث عن هذه العصبيات وآثارها . ورأى دعاة العباسيين فى هذا الخلاف فرصة لنشر دعوتهم فى بلاد المشرق، التى شغل فيها العرب بالمنازعات الخاصة . ومن خير ما يصور الخطر الناجم عن هـذا النزاع أبيات مشهورة كتبها نصر بن سيار والى خراسان لهشام :

أرى خلل الرماد وميض جمر فيوشك أن يكون لها ضرام[1]
فإن النـــار بالعودين تُذكى وإن الحرب أولهـــا كلام
فإن لم تطفئوها تجن حـــربا مشمِّرة يشيب لها الغـــلام

ولعل حلمه على الشيعة قد ساعد الكميت على أن يكثر من التشيع ولا يخاف ، ولولا وقيعة خالد القسرى (٢) والى العراق به، لما غضب عليه هشام .

(١) عقد جـ ٣ ص ١٩٦ (٢) أغانى جـ ١٥ ص ١١٦

التسامح مع الشيعة :

وحج هشام فى سنة من السنين ـ وكان الفرزدق يحج فى تلك السنة ـ فرأى عليا زين العابدين بن الحسين رضى الله عنه فى غمار الناس فى الطواف(١)، فقال : من هذا الشاب الذى تبرق أسرّة وجهه كأنه مرآة صينية ، تتراءى فيها عذارى الحى وجوهها ؟ فقالوا : هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم ، فقال الفرزدق القصيدة المشهورة .

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خـــير عباد الله كلهمو هـــذا التقى النقى الطاهر العلم

فغضب على الفرزدق لما فى هذا الشعر من تفضيل صريح لبنى هاشم ، يمثلهم على زين العابدين ، وفى هذا الجمع العظيم الوافد من كل فج. وخاف أثر هذه القصيدة لو أنشدها الحجيج قومهم إذا رجعوا إليهم ، فحبسه بين مكة والمدينة ، فقال الفرزدق :

أيحبسنى بين المدينة والتى إليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلب رأساً له لم يكن رأس سيد وعينا له حولاء باد عيوبها

فلما بلغ شعره هشاما أطلقه . جرياً على عادته فى الحلم والعفو .

وحج فلقيه بعض ذرية عثمان بن عفان فقال له : « إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين (٢) ، وينصر خليفته المظلوم ، ولم يزالوا يلعنون فى المواطن الصالحة أبا تراب ، فأمير المؤمنين ينبغى له أن يلعنه » ، فشق على هشام ، وثقل عليه كلامه ، ثم قال : « ما قدمنا لشتم أحد ولا للعنه ، إنما قدمنا حجاجا ! »

ولعل هذا الحلم الذى جرأ عليه خالدا القسرى ، ويسر على القبائل التناحر والخصام ، هو الذى أخرج عليه زيد بن على بالكوفة فى ولاية يوسف بن عمر الثقفى . وقتل زيد سنة ١٢١ هـ ودفنه أصحابه سراً ، ولكن

(١) أغانى جـ ١٩ ص ٤٠ (٢) الطبرى جـ ٢ ص ٢٦٦

يوسف عرف قبره فنبشه ، وأمر أن يصلب بالكناسة ، وقطع رأسه وأرسله إلى هشام ، فصلب على باب دمشق . وخرج ابنه يحيى فى أيامه فقتل سنة ١٢٥ هـ . وكان لهذا العمل أثر عظيم فى نفوس أتباعه ، من الشيعة الزيدية ، فكثر رثاؤهم له ، وحديثهم عن مذهبه السياسى ، وتطور هذا المذهب فشغل السياسة وتاريخ المذاهب كما شغل الأدب ، وما زال إلى الآن فى بلاد اليمن دستوراً للحكم وأصلا للعقيدة . وينبوعا من ينابيع الأدب التى نهل منها كثير من الشعراء والكتاب فى تلك البلاد .

أما حرصه على الأدب والأخبار فهذا مثال يدلنا على مبلغه : خطر له بيت من الشعر فلم يعرف قائله ، فأرسل إلى يوسف بن عمر واليه على العراق ، أن يرسل إليه حمادا الراوية مكرما ، فجاء إلى هشام فأذن له ، ثم قال : أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قال لا : قال بعثت إليك لبيت خطر ببالى لم أدر من قاله ، فقال وما هو يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

فدعوا بالصّبوح يوما فجاءت قينة فى يمينها إبريق

فأخبره أن قائله عدى بن زيد ، وأنشده القصيدة ، فطرب ، وقضى حاجاته ، ووصله بمائة ألف درهم .

وهجاه الشعراء بالحوَل كما رأينا فى بيت الفرزدق . وقيل إن ولى العهد كان يكثر ذكر هذا الحوَل . وقد يخطىء بعض الناس فيذكر عنه ما يؤذى هشاما ، فيغضب عليه : روى فى ذلك أن الشعراء وفدوا عليه [1] ، وفيهم أبو النجم الراجز ، فطلب منهم أن يصفوا إبلا كأنه ينظر إليها ، فأنشدوه وأنشده أبو النجم :

الحمد لله الوهوب المجزل حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال :

« وهى على الأفق كعين . . . » وأراد أن يقول « الأحول » فتذكر الخليفة ، فأسقط فى يده ، فأمره أن يتمه ، فأتمه وأتم القصيدة ، فأمر الخليفة أن يخرج من عنده مذموما مدحوراً ، وألا يدخل عليه بعد ذلك ، وظل

(١) أغانى جـ ٩ ص ٧٥

بعيداً من عطفه وبره حتى استدعاه بعد زمن لما اشتاق إلى حديثه ، فجيء به ، فحدثه وأضحكه ، وأخذ جائزته .

الكتابة الإنشائية فى عهده

وأهم حديث عن الأدب فى عهد هشام هو حديث الكتابة فى عصره : كان الخلفاء قبله يكتبون بداهة فى لغة تشبه الحديث أحيانا ، والخطابة أحيانا ، ويميلون إلى الإيجاز ، ويرتجلون إذ يكتبون أو يملون . وكان لهم من ملكات البيان عندهم عون كبير على أن تكون رسائلهم فصيحة نقية .

فلما كثرت أعمالهم ، وظهرت حضارتهم ، وظهر من المتعلمين من يستطيع حمل أعبائها عنهم ، عهدوا بها — أو بأكثرها — إلى طائفة من هؤلاء المتعلمين استخدموهم لهذا الغرض ، وأجروا عليهم الأرزاق .

وبدأت تدخل دورا جديدا من الناحية الفنية ، إذ أصبحت صناعة ، واشتغل بها قوم وقفوا أنفسهم عليها من العرب ومن غير العرب ، وأعدوا أنفسهم لذلك ، بدراسة الكتاب الكريم والحديث وأخبار العرب ، وبحفظ الخطب والأشعار ، والحكم والأمثال . واستعان الموالى منهم بخيال قومهم ، وفنون البيان عندهم ، فتنوعت الرسائل ، وحاول الكتاب أن يجعلوا لكل نوع منها أسلوبا ، وطريقة فى البدء والختام ، وكثرت عبارات التفخيم والدعاء للخلفاء ، وكثر ما يسمى التحميدات : ويقصد بها الثناء على الله ، وشكر آلائه ، ووصفه بما هو أهله ، فى كثير من الجمل . ونوعوا موضوعاتها ، وكتبوا فى موضوعات عامة كتابة فنية . وكان من أثر الموالى فى الكتابة أيضا أن تجنبوا الغريب من الألفاظ ، وآثروا التأنق والزخرف ، وتخيروا الكلمات والعبارات ، فجاءت الكتابة واضحة الفكرة قوية العبارة . وكان لتفرغهم لهذا العمل ، ولتنوع ثقافاتهم بين الفارسية والرومية والقبطية ، أثر فى نهضة الكتابة نهضة عظيمة فى عهد هشام وبعده .

وأشهر الكتاب جميعا فى ذلك العهد رجلان من الموالى ، أولهما أبو العلاء سالم مولى هشام ، وكان يجيد العربية والرومية ـ ونسب إليه أنه نقل شيئا من رسائل أرسطو إلى الاسكندر ـ والثانى أستاذ الكتابة العربية ، عبد الحميد ابن يحيى ، صهر سالم هذا وتلميذه ، وأكثر من استفاد من الاتصال به فى صناعته وفيما ترجمه ، وقد أضاف ما أخذ عن لغته الفارسية . وكان ذكاؤه وحفظه للقرآن واللغة ، وروايته للأدب ، أعوانا له أيضا على أن يصير إماما فى الكتابة ، وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا . . . وهو أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب . فاستعمل الناس ذلك بعده »[1] .

وكان له ولأستاذه فضل فى إيثار الأسلوب الواضح ، ذى الجمل التى ترتبط معانيها ، والأفكار الواضحة والحجج التى تؤيد هذه الأفكار . وظهر استخدام الشعر فى الكتابة من ذلك العهد ، استشهادا به ، واقتباسا منه ، وتضمينا لجمله وعباراته ، كما هو ، أو محوراً قليلا . وربما ضربوا الأمثال ، أو ساقوا الحكم منه ، أو شبهوا كتشبيهاته ، أو تخيلوا مثل تخيلاته ، بلا تكلف ولا معاناة . وكانوا فى ذلك قدوة لمن جاء بعدهم ، حتى غلا الكتاب فى هذه الطريقة بعد القرن الثالث الهجرى .

وأشهر آثار ذلك العهد فى الكتابة منسوب إلى عبد الحميد بن يحيى الكاتب ومنها رسالة كتبها على لسان مولاه مروان بن محمد إلى ولى العهد ، عبد الله ابن مروان حينما وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيبانى ، رأس الخوارج بالجزيرة ، سنة ١٢٧ هـ ، وتربو على ٥٠ صفحة من مثل صفحات هذا الكتاب . ورسالة عبد الحميد ـ أو وصيته ـ إلى الكتاب يرشدهم فيها إلى آداب الصناعة وصون أنفسهم عن النقائص ، ويدعوهم إلى أن يتعاطفوا . وأن يتعاونوا عند الحاجة . ثم رسالته على لسان الخليفة إلى أحد عمال الأمصار يأمره أن يزجر

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٦

أهل مصره عن لعبة الشطرنج ، ويبين لهم معايبها ومضارها (١).

وكان ابن المقفع صديقه ، وتلميذه فى صناعة الكتابة ، وشبيها به فى الأصل وفى الذكاء ، وفى الوفاء ، وفى المقدرة البيانية . ولكن عظمته فى الكتابة ، واتصاله برجال الدولة ، وترجمته لكليلة ودمنة ، كانت فى أيام العباسيين فنسب إلى عصرهم . وإليهما يرجع الفضل العظيم فى رقى الكتابة ووضع أسسها الفنية فى الأدب العربى .

شعر العصبية الفارسية :

لعل خير الأماكن للحديث عن العصبية الفارسية فى الأدب الأموى هو الكلام عن هشام ، وذلك أنه ظهر فى عهده شعر صريح تتجلى فيه هذه العصبية ، ويفتخر قائله بفارسيته ، ويجاهر بتفضيل قومه على العرب . ذلك هو اسماعيل بن يسار النَّسائى .

« يقول أبو الفرج (٢) » وكان اسماعيل شعوبيا ، شديد التعصب للعجم ، وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم ، وله قصيدة بائية يقول فيها :

رب خال متــــوج لى وعم	ماجد مجتدًى كريم النصاب
إنمـا سمى الفوارس بالفر	س مضاهاة رفعة الانساب
فاتركى الفخر يا أمامَ علينـا	واتركى الجور ، وانطقى بالصواب
واسألى ، إن جهلت ، عنا وعنكم	كيف كنا فى سالف الأحقاب
إذ نربى بناتنا ، وتدســـو	ن سفاها بناتكم فى التراب

فقال رجل من آل كثير بن الصلت : إن حاجتنا إلى بناتنا غير حاجتكم ، فأفحمه . وهذا الذى يقوله ابن يسار لم يكن إلا ترديداً للعصبية الفارسية التى بدأت ترفع رأسها فى أواخر عهد الدولة الأموية ، حتى عظم خطرها فى عهد العباسيين . وكان يؤلمهم أن يتعصب العرب عليهم فى عهد بنى أمية ، وأن

(١) تجدها جميعا فى جمهرة الرسائل ج ٢ من ص ٤٢٣ إلى ص ٤٦٥

(٢) أغانى ج ٤ ص ١٢٠

يؤخروهم فى الدولة . وكان يحط من قدر العربى أن تكون أمه أعجمية . وقالوا إن عبد الملك لم يعهد بالخلافة لابنه مسلمة مع فضله — لأن أمه أعجمية . فلما كان عهد هشام علا شأن الأعاجم : لحاجة العرب إليهم أن يشدوا أزرهم فى حروبهم وخلافاتهم ، وبخاصة فى بلاد فارس . ولاستعانة العلويين بهم فى ذلك الوقت ، دعاةً يضعون أسس دولتهم فى خراسان كأبى مسلم ، وسليمان ابن كثير ، ولارتقاء شأنهم بظهور أفاضل التابعين والعلماء منهم ، كالحسن البصري ، وابن سيرين ، ونافع مولى ابن عمر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وربيعة الرأى شيخ الإمام مالك ؛ ولارتفاع شأن أبناء الجوارى فى الدولة كمسلمة بن عبد الملك ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وعلى زين العابدين بن الحسين ، وسالم بن عبد الله . فاجترأ عندئذ شاعر كابن يسار على هذا الفخر ، ودعاه هشام يوما أن ينشده ، وهو يظن أنه سيمدحه ، فأنشده قصيدته التى يفتخر فيها بالعجم . . . حتى انتهى إلى قوله :

إنى ، وجدِّك ، ما عودى بذى خوَر ... عند الحفاظ ، ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ، ومجدى لا يقاس به ... ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب ... من كل قَرم بتاج الملك معموم
جحاجح ســـادة بلج مرازبة ... جُرد عِتاق مساميح مطاعيم (١)
من مثل كسرى وسابورَ الجنود معاً ... والهُرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الردع إن زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون فى حَلق الماذىّ سابغة ... مشى الضراغمة الأسد اللهاميم (٢)
هناك إن تسألى تُنبَى بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم (٣)

فغضب هشام وسبه ، وأمر به فألقى فى بركة حتى كادت نفسه تخرج ،

---

(١) القرم : السيد ، الجحاجح : السادة . الابلج : الطلق الوجه . المرزبان : الرئيس الاجرد : السباق . العتيق : الكريم الاصل . المسماح : الكريم . المطعام : كثير الاطعام (٢) الماذى : الدرع . اللهمم : الجواد السابق (٣) الجرثومة : الاصل

ونفاه إلى الحجاز : قال أبو الفرج : «وكان مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم ، فكان لايزال مضروبا محروما مطرودا» .

وأكبر الظن أنه كان لإسماعيل هذا شركاء فى عصبيته على العرب منهم ابنه ابراهيم (١)، وزياد الأعجم ، وبشار الذى عاش أكثر حياته فى عهد الأمويين .

وخشى عقلاء العرب شر هذه الفتنة على ملكهم ، فقال نصر بن سيار يحذر العرب :

مابالكم تلقحون الحرب بينكمو ... كأن أهل الحجا عن رأيكم عُزُب
وتتركون عدوا قد أظلكمو ... ممن تأشب ، لادين ولا حسب(٢)
قوم يقولون قولا ما سمعت به ... عن النبى ، ولا جاءت به الكتب
من كان يسألنى عن أصل دينهمو ... فإن دينهمو أن تهلك العرب

وامتدت هذه العصبية وشغلت الأدب ، نثرا وشعرا زمنا طويلا فى أيام العباسيين باسم الشُّعوبية.

---

(١) أغانى ج ٤ ص ١٢٦ (٢) تأشب : تجمع

٩ — خالد بن عبد الله القسرى

أشهر ولاة الأمويين فى القرن الثانى الهجرى ، ولى بعض أمور الحجاز للوليد بن عبد الملك، ثم لسليمان ، وولاه هشام العراقين، وظل مقربا عنده زمناً حتى غضب عليه، فأرهقه من أمره عسراً ، وسلط عليه يوسف بن عمر الثقفى فألقاه فى العذاب الشديد ، ولقى منيته فى سجنه سنة ١٢٦هـ فى أول عهد الوليد بن يزيد ، وبأمر منه .

شغلته العصبية لقومه من اليمن فولاهم وعزل غيرهم ، وأكرمهم وأساء إلى مضر ، كما أساء عماله إليهم ، فثارت ثائرة هؤلاء ، وأكثروا من سبه والوقيعة به ، حتى بلغت أقوالهم هشاما فغضب عليه ، وكتب إليه :

« يابن أم خالد ، قد بلغنى أنك تقول : ماولاية العراق لى بشرف ، فيابن اللخناء ، كيف لاتكون إمرة العراق لك شرفاً وأنت من بجيلة القليلة الذليلة! أما والله إنى لأظن أن أول من يأتيك صغير من قريش ، يشد يديك إلى عنقك ! »

ولعل خالدا أفرط فى الدالة على الخلافة، لما طالت ولايته على العراق ، وأخذ سهيل بن حسان النبطى ، مولى هشام ووكيله فى ضياعه بالعراق، فضربه ، فبعث سهيل بقميصه إلى أبيه وفيه آثار الدم ، فأدخله إلى هشام ، فكتب هشام إلى خالد رسالة [1] كأنها صحيفة سوداء لسيئاته ، تناول فيها خالدا بالاهانة والتحقير ، وذكر مساوئه ، وكفرانه للنعمة التى أنعمها عليه هشام بولاية العراق ، وأنه لم يكن أهلا لذلك الاكرام من هشام . وأنا أشبهها برسالة عبد الملك إلى الحجاج لما سخط عليه . وأشبه خالدا بالحجاج فى الظروف ، وإن اختلفت العاقبة .

نسب إليه أنه خطب بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة ، فكان فى هذه الخطبة تلميذاً لزياد أوللحجاج فى الفصاحة والعنف ، والولاء للخليفة، قال :

(١) الكامل جـ ٢ ص ٢٩٨ للمبرد

« يا أيها الناس إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهى التى اختار الله من البلدان فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حجه ، من استطاع إليه سبيلا . أيها الناس ، فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وإياكم والشبهات ، فانى والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته فى الحرم ، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذى جعلها ، فسلموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كيت وكيت ، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغنى أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم،ويقيمون فى بلادكم ، فاياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة ، فانى لا أجد أحداً منهم فى منزل أحد منكم إلا هدمت منزله . فانظروا من تنزلون فى منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة ، فان الفرقة هو البلاء العظيم . »

كانت هذه الخطبة أول عهده بالولايات وفيها صورة واضحة لإيمانه بمبدأ «الحق المقدس» ، ولكنه اتهم من ذلك العهد بالعصبية ، وأنه بلغ منها حد الاحتقار لبئر زمزم ، فكان يسميها «أم الجعلان» . وأنه خطب بمكة فقال . « والله لو أمرنى أمير المؤمنين أن أنقض هذه الكعبة حجراً حجراً لنقضتها » . فكيف يعصى الله فى طاعة الخليفة ! واشتد على الشيبى رأس حجبة الكعبة بغير حق ، إذ أمره أن يفتح له الباب فأبى ، فضربه مائة سوط . وكانت أمه نصرانية فقالوا إنه بنى لها كنيسة بجوار المسجد ، وكان يضرب فيها بالناقوس إذا أذن المؤذن ، وكان من فيها يرفعون أصواتهم بالقراءة إذا قام الخطيب على منبر المسجد .

وقد سجل الأدب كل هذا التاريخ ، والفرزدق أكثر من تعرض لخالد القسرى بالهجاء ، وكأنه كان موكلا به . فإنه لما ضرب رأس حجاب الكعبة ذهب الرجل يشكوه إلى سليمان ، فصادف الفرزدق هناك ، فقال الفرزدق :

سلوا خالدا — لاأكرم الله خالدا — متى وليت قسر قريشا تدينها
أقبل رسول الله أم ذاك بعده — فتلك قريش قد أغث سمينها
رجونا هداه — لاهدى الله خالدا — فما أمه بالأم يهدى جنينها

فأراد سليمان أن يقطع يده ، لولا أن يزيد بن المهلب كان حاضرا — وهو من اليمن ، فما زال بسليمان يفديه ويقبل يده ، حتى أمر بضربه مائة سوط ، وعفا عن قطع يمينه . فقال الفرزدق شعرا يذكر فيه هذه السياط المائة،ويعير خالدا بأمه النصرانية . وحفر خالد نهرا بالعراق — كما فعل الحجاج — فعاب الفرزدق فعله هذا بقوله :

وأهلكت مال الله فى غير حقه على النهر المشئوم غير المبارك

فحبسه خالد ، فقال وهو فى سجنه يستعطف الخليفة :

فأبلغ أمير المؤمنين رسالة فعجل — هداك الله — نزعك خالدا
بنى بيعة فيها الصليب لأمه وهدم من بغض الإله المساجدا

فأرسل هشام إلى خالد يأمره باطلاقه . فلما خرج من سجنه قال فيه :

ألا لعن الرحمن ظهر مطية أتتنا تخطى من بعيد بخالد
وكيف يؤم المسلمين وأمه تدين بأن الله ليس بواحد !

وتعصب شعراء اليمن مع خالد فهجوا مضر ، فرد عليهم الكميت يهجوهم ، فغضب عليه خالد . وروى جارية حسناء قصائده الهاشميات ، وأعدها ليهديها إلى هشام ، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه فى بنى أمية ، وأرسل إليه قصيدته اللامية التى مطلعها :

ألا هل عم فى رأيه متأملُ وهل مدبر بعد الاساءة مقبلُ

وهو يمدح فيها بنى هاشم ويرثى قتلاهم — وما كان هؤلاء القتلى إلا ثائرين فى رأى الخلافة — فلما قرأها هشام أكبرها وعظمت عليه ، فكتب إلى خالد يأمره بقطع لسان الكميت . فأخذه خالد ، ففر من سجنه إلى هشام بالشام، فمدحه،واستجار بقبر ابنه معاوية،فعفا عنه،وأمر له بأربعين ألف درهم : وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته (١).

وروى أن سليمان بن عبد الملك كتب إليه وهو وال على مكة يشتم الحجاج

---

(١) أغانى ١٥ ترجمة الكميت

ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه . فصعد المنبر يوم جمعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن إبليس كان ملكا من الملائكة ، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلا ، وكان الله قد علم من غشه وخبثه ما خفى على ملائكته ، فلما أراد الله فضيحته أمره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه . وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين على ما خفى علينا من غشه وخبثه ، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدى أمير المؤمنين فلعنه ، فالعنوه ، لعنه الله ! »

وقد روى أنه خطب فى الجمعة السابقة ، فذكر الحجاج فحمد طاعته وأثنى عليه خيرا ، وخطب هذه الخطبة فى الجمعة اللاحقة لما جاءه كتاب سليمان بشتم الحجاج . فانظر إلى مطاوعة البيان له فى هذا الولاء المتغير ، وإلى الاعتذار عن هذا التغير بشىء من اللباقة ، المأخوذة من الحجاج نفسه ، فى خطبته بمكة ، بعد مقتل ابن الزبير(١) . وأظهر وجوه هذه اللباقة هو الاستعانة بالدين ، أو بقصة من قصصه ، لتأييد رأيه : وجد الحجاج قد أخذ قصة آدم ، وأجاد الاحتجاج بها على ابن الزبير ، فأخذ طرفا آخر من القصة ، وهو خبث طوية إبليس ، وانخداع الملائكة فى أمره ، فشبه به الحجاج حتى فضحه الخليفة ، وجعل هذا الطرف اعتذارا إلى الناس عن شتمه الحجاج وتغيره فى الولاء له ، لكن الحجاج كان أبين بيانا ، وأقوى برهانا من خالد .

وإذا كان خالد قد أساء إلى تاريخه بهذه العصبية ، فأكبر الظن أنه لم يكن كما يصوره أعداؤه ، ولو كان كذلك ما احتمله هشام هذه السنين الطويلة فى أكبر عمل عنده ، وهو ولاية العراق وما وراءها إلى بلاد الصين .

وماذمه الفرزدق إلا لأنه أبى أن يعطيه ، وقال له : « اذهنى كيف شئت » وما كان الكميت يريد أن يذمه بعد أن قال يمدحه :

---

(١) ص ١٧٩ من هذا الكتاب

لو قيل للجود من حليفك ، ما إن كان إلا إليك ينتسب
أنت أخوه ، وأنت صورته والرأس منه ، وغيرك الذنب

ولكنه اضطر إلى هجاء خالد عرضا ، وهو يرد على شعراء اليمن الذين كانوا يهجون مضر . ومدح جرير خالدا فنقض هجاء الفرزدق له — وجرير من شعراء مضر — وروى التاريخ من صفاته ما يشرف به . فقال عنه ابن خلكان(١) « إنه جلس للشعراء مجالس يستمع فيها إلى مدحهم ويجازيهم عليه » وقال : « وكان خالد معدودا من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، وكان جوادا كثير العطاء » . وخير ما نختم به الحديث عنه خطبة له حث فيها على مكارم الأخلاق . وخص الجود :(٢) « قام على المنبر بواسط فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس ، نافسوا فى المكارم . وسارعوا الى المغانم ، واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكتسبوا بالمطل ذما ، ولا تعتدّوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسن له جزاء وأجزل عليها عطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعمة من الله عليكم ، فلا تملوا النعم فتحولوها نقما . واعلموا أن أفضل المال ما أكسب أجرا ، وأورث ذكرا . ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه حسنا جميلا ، يسر الناظرين . ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوها قبيحا ، تنفر عنه القلوب وتغضى عنه الأبصار »

« أيها الناس ، إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه ، وأعظم الناس عفوا من عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه . ومن لم يطب حرثه لم يزكُ نبته . والأصول عن مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى لكم » .

وهو جميل التصوير للمعروف فى الجزء الأخير من الخطبة ، وبخاصة

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٢ (٢) نهاية الارب ج ٨ ص ٢٠٥

عندما يشبهه برجل ، وكأنه معنى البيت المعروف .

ولم أر كالمعروف ، أما مذاقه فحلو ، وأما وجهه فجميل

كان من خلفاء الأمويين فى القرن الثانى خليفتان عرفا بالشراب واللهو وزادا فيه على يزيد بن معاوية هما يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، وأثر الشراب واللهو فى أدب عصرهما تأثيرا ظاهرا ، فحسن الكلام عنهما معا ، وعن الغناء والأدب بعدهما .

١ — يزيد بن عبد الملك

١٠١ — ١٠٥ هـ

ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فكتب إلى ولاته بالأمصار : « أما بعد . فان عمر كان مغروراً ، غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه فى انكسار الخراج والضريبة ، فاذا أتاكم كتابى هـذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا ، والسلام » .

بعد هذا الخطاب عمد يزيد إلى كل صالح فعله عمر فأفسده ولم يبال بالناس، وأراد أن يقتص من يزيد بن المهلب بما فعل مع آل أبى عقيل «أسرة الحجاج»، فثار عليه ابن المهلب بالعراق ، وخلع عامله عدى بن أرطاة وحبسه ، وسير إليه يزيد أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد ، فقتل ابن المهلب فى معركة سنة ١٠٢ هـ . وولى مسلمة العراق .

وكثرت الخطابة فى المعانى التى تقتضيها هذه الحرب ، بين التأييد ليزيد بن المهلب والتخذيل عنه . وكان الحسن البصرى يخذل عنه ويقول :

« أيها الناس : الزموا رحالكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة ، وطمع فيها يسير ، ليس لأهلها بباق ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض، إنه لم يكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل النية والخيلاء . وليس يسلم منها إلا المجهول الخفى والمعروف التقى ، فمن كان منكم خفياً فليلزم الحق ، وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه ، والله ، بمعرفة الله إياه بالخير ، شرفا ، وكفى له به من الدنيا خلفاً ، ومن كان منكم معروفا شريفاً ، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا — إرادة الله بذلك — فواهاً لهذا ! ما أسعده وأرشده ، وأعظم أجره ، وأهدى سبيله ! فهذا غداً — يعنى يوم القيامة — القرير عينا ، الكريم عند الله مآبا » .

وكان الحسن يدرك مشاركة الخطباء والشعراء والسفهاء فى كل فتنة ، كما كان يقدرها يزيد بن عبد الملك أيضاً ، ويدعو أهل البيان من الشعراء والخطباء إلى مشاركته فى الحملة على آل المهلب بعد قتل يزيد : أما الفرزدق(١) فأبى أن يهجوهم وقال له : « لقد امتدحت بنى المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحداً ، وإنه لقبيح بمثلى أن يكذب نفسه على كبر السن ، فليعفنى أمير المؤمنين ، فأعفاه . وأما كثير فقال « إنى أكره أن أعرض نفسى لشعراء أهل العراق إن هجوت بنى المهلب » . وأما الأحوص فانه هجاهم ، لما كان للخليفة عنده من فضل قريب العهد ، إذ رده من منفاه الذى نفاه إليه سليمان بن عبد الملك بسبب تشبيبه بنساء الأنصار .

وفيما قاله الحسن البصرى ، وماقاله كثير ، بيان لاشتراك الأدب فى هذه الثورات ، واهتمام الرؤساء بمناصرة البيان لهم ، واستجابة أهل البيان لأولئك الرؤساء ، ولاء لهم ، أو طمعاً فى عطائهم ، أو خوفا من أذاهم . أما الرجل الذى لم يكن يخشى فى الله لومة لائم ، وهو الحسن البصرى ، فقد عرض نفسه لخطر العقاب ، إذ قال عنه مروان بن المهلب بعد أن سمع بخطبته السابقة:

« لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى ـ ولم يسمه ـ يثبط الناس . والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه . أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خيرنا ، وأن ننكر مظلمتنا ! أما والله ليكفن عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا سقاط الابل ؛ وعلوج فرات البصرة . . . . . أو لأنحين عليه مبرداً خشنا » .

وعرف الحسن بذلك فلم يعبأ به ، ولم يدع كلامه وطعنه فى آل المهلب . وأما جرير فكان منافقاً متكسبا يمدح اليوم ويذم غداً ، أو أنه كان مادحاً للأمويين . فقال فى مدح يزيد عدداً من القصائد لاتخرج فى معانيها عما مدح به غيره . وقال فى إحدى هذه القصائد يذم آل المهلب ويشمت بهم ، ويمدح أهل الشام :

(١) أغانى ٤ ص ٥٢ .

سربلت سربال ملك غير مبتدع قبل الثلاثين ، إن الخير مؤتنف
تدعو فينصر أهل الشام ، إنهمو قوم أطاعوا ولاة الحق وائتلفوا

ثم قال :

آل المهلب جـــذ الله دابرهم أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف

ولى يزيد فى هذه السن المبكرة ، قبل الثلاثين ، خلافة المسلمين ، ولعل شبابه وملكه أغرياه بالشراب واللهو ، وقضاء الوقت مع القيان . وعرف بحبه لسلامة وحبابة من مغنيات المدينة ، أهديتا إليه لما ولى الخلافة فأقامتا عنده وكلف بهما .

وقيل إنه أراد التوبة والرجوع إلى الله ، فأعاده شعر قاله الأحوص بن محمد إلى ما كان فيه ، وذهب به هذا الشعر إلى النار : روى [1] أن ضميره أو أخاه مسلمة ـ عاتبه على ما أسرف فى الشراب والغناء ، وما أهمل فى شئون الرعية ، فهم بترك الشراب ، وأعرض عن حبابة أياما ، فأرسلت إلى هذا الشاعر الشيطان ، الأحوص ، وقالت له : إن رددته عن رأيه فلك ألف دينار . فدخل الأحوص إلى يزيد فاستأذن فى الإنشاد فأذن له ، فقال :

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدى فمن شاء لامنى ومن شاء آسى فى البكاء وأسعدا
وإنى وإن فُنِّدت فى طلب الغنى لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلا ماتلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

واعترضته حبابة فغنته بهذه الأبيات فى يوم جمعة ، فلما قالت :

« وما العيش إلا ماتلذ وتشتهى »

قال لها : صدقت والله ، وقبح الله من لامنى فيك! ياغلام ، مر مسلمة أن يصلى بالناس . وأقام معها يشرب وتغنيه ، ووهب للأحوص مالا كثيراً .

فهذا يزيد وهذا توجيهه للأدب وتوجيه الأدب له . وسوف نرى فى

(١) أغانى ١٣ ص ١٥١ .

تاريخ ابن عبد العزيز أنه أبى أن يسمع للشعراء أو يعطيهم بسبب أقوالهم غير العفيفة ، ومدحهم الكاذب ، فجاء بعده يزيد فأفسد دينه ، وعرف باللهو ، وحمل إليه المغنون حملا من الحجاز، وقضى خلافته يستمتع بالشراب والغناء. وليس عجباً أن يكون ابنه الوليد شبيهاً به فى اللهو والفسوق ، ثم زاد عليه قول الشعر .

٢ ـ الوليد بن يزيد

عرفه الأدب شاعرا ، وعرفه الدين فاجرا ، وعرفه التاريخ خليفة لاهيا خليعا ، وعرفه أصحابه كريما ظريفا ، فكان له حديث فى الشعر مرضى ، ولأهل الدين عنه حديث سخط وإنكار على مافرط فى جنب الله ، وللتاريخ عنه حديث اللوم على ما أهمل من شئون الرعية ، وكان لأصحابه حديث الإعجاب بظرفه وكرمه ، واسرافه فى اللهو واللذات . وأما تاريخ الأدب فأظهر أحاديثه عنه حول شعره فى الخمر ، وإجادته فى وصفه ، وابتداعه لكثير من المعانى ، ثم ضياع شعره ، وتفرق هذه المعانى فى الشعراء ، حتى عد أستاذا لأبى نواس .

يجمع صاحب الأغانى ذلك فيقول : (١)

« وكان الوليد بن يزيد من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم . وكان فاسقا خليعا ، متهما فى دينه ، مرميا بالزندقة . وشاع ذلك من أمره وظهر ، حتى أنكره الناس فقتل . وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره . ومن الناس من ينفى ذلك عنه وينكره ، ويقول إنه نحله وألصق إليه ، والأغلب الأشهر غير ذلك »

ثم يقول : (٢)

« وللوليد فى ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، سلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه سلخ معانيه كلها ، وجعلها فى شعره ، فكررها فى عدة مواضع منه »

عرف الوليد بأنه شاعر خمر ، وعرف أبوه من قبله بالشراب ولعله ورث حب اللهو عنه ، وعن يزيد بن معاوية جد أبيه ، لكنهما كانا أكثر منه حرصا واستتارا . وربما كان يشرب ليغرق همومه فى الكأس ، وينسى فى لهوه ما كان يلقاه من عمه هشام ، الذى حاول إبعاده عن الخلافة ، وقطع

---

(١) حـ ٦ ص ٩٩ . (٢) أغانى حـ ٦ ص ١٠٧ .

عنه أرزاقه ، وشهر به ، وفرق بينه وبين أصحابه .

ونستطيع أن نقسم أدبه وحياته الفنية قسمين : أحدهما فى خلافة عمه هشام، والثانى حياته فى الخلافة . أما أدبه فى القسم الأول فكان أدبا مكبوتا حزينا ، يتنفس شعره بغيظ نفسه ، وكامن أشجانه ، فيقول لعمه لما أراد خلعه :

كفرت يدا من منعم ، لو شكرتها ... جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبنى جاهدا فى قطيعتى ... ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى
أراك على الباقين تجنى ضغينة ... فياويحهم ، إن مت ، من شر ما تجنى
كأنى بهم يوما وأكثر قولهم : ... أياليت أنا ، حين « ياليت » لا تغنى

ولعلك تلمح بجانب هذه النغمة الحزينة فى البيتين الأولين النظرة الحكيمة التى تعلمها من التجارب فى البيت الثالث والرابع ، والتحذير من الخطر على أبناء الخليفة المتوفى وأنصاره فى عهد الخليفة الجديد ، بسبب سنتهم فى ولاية العهد . وقد تلمح مثل هذه الحكمة والرزانة فى كثير من أقوال الوليد وأفعاله فى عهد عمه هشام .

وقد ضاق صدره بما كان يلقى من عمه فانطلق لسانه بالفخر أحيانا وبهجاء عمه أحيانا ، وبالشكوى من عدم الوفاء أحيانا : خرج يوما من مجلس هشام مغيظا لما أصابه من أذاه ، فقال مفتخراً :

أنا ابن أبى العاصى ، وعثمان والدى ... ومروان جدى ذو الفعال ، وعامر
أنا ابن عظيم القريتين ، وعزها ... ثقيف وفهر والعصاة الأكابر
نبى الهدى خالى ، ومن يك خاله ... نبى الهدى يقهر به من يفاخر

وكتب إليه هشام أن يترك صديقه عبد الصمد بن عبد الأعلى ففعل ، وسأله أن يأذن لابن سهيل فى الخروج إليه فى معتزله ، فأبى، وضرب ابن سهيل ونفاه ، وضرب عياض بن مسلم كاتب الوليد ضرباً مبرحا ، وألبسه المسوح وقيده ، وحبسه ، فغم ذلك الوليد ، فقال : « من يثق بالناس ومن يصنع

لمعروف ! هذا الأحول المشئوم قدمه أبي على ولده وأهل بيته ، وولاه ؛ وهو يصنع بي ماترون ! ولا يعلم أن لي في أحد هوى إلا أضر به ! كتب إلى بأن أخرج عبد الصمد فأخرجته ، وكتبت إليه في أن يأذن لابن سهيل في الخروج إلى ، فضربه وطرده ، وقد علم رأيي فيه . وعرف مكان عياض مني وانقطاعه إلي ، فضربه وحبسه ؛ يضارني بذلك ، اللهم أجرني منه ! ثم قال :

أنا النذير لمسدى نعمة أبدا ... إلى المقاريف لما يخبر الدخلا
إن أنت أكرمتهم ألفيتهم بطروا ... وإن أهنتهم ألفيتهم ذللا
أتشمخون ومنا رأس نعمتكم ... ستعلمون إذا أبصرتمو الدولا
انظر فإن أنت لم تقدر على مثل ... لهم سوى الكلب فاضرب لهم مثلا
بينا يسمنه للصيد صاحبه ... حتى إذا ما استوى من بعد ما هزلا
عدا عليه فلم تضرره عدوته ... ولو أطاق له أكلا لقد أكلا

وفي هذا النثر والشعر مرارة الشكوى ، وألم الحسرة . ونار الغيظ من هشام ، واضحة في كل جملة ، وبخاصة في دعائه الأخير : « اللهم أجرني منه ! » ثم هذه القسوة في ضرب المثل ، لم يجد مثلا إلا كلب السوء يضربه لغدر هشام وبطشه ، مع أن يزيد أباه هو ولي نعمته . وقد قابل الإحسان بالإساءة إلى الوليد .

كان الوليد يجد في هذا الفخر نوعا من التسلي عما أصابه على يد هشام ، وكان عنيداً . يداري عمه إلى مدى ، ويحذر غضبه ، وقد يستعطفه ، ولكنه في استعطافه أبي عزيز ، حتى ليشبه استعطافه أن يكون تهديداً ، ومن نادر شعره قوله لعمه هشام :

فإن تك قد ملت القرب مني ... فسوف ترى مجانبتي وبعدي
وسوف تلوم نفسك إن بقينا ... وتبلو الناس والأحوال بعدي
فتندم في الذي فرطت فيه ... إذا قايست في ذمي وحمدي

وتبقى حياته كذلك طول خلافة عمه هشام ، ويظل وهو ولى العهد مطرودا من رحمة الخليفة ، مغضوبا عليه وعلى أصحابه ، ويظل هو مغاضبا للخليفة ، معتزلا أمور الدولة ، مسرفا فى لهوه وشرابه ، فلم يعرف فى أيام أبيه كيف يدبر أمراً من أمور الدولة ، لأنه كان صغيراً ، ولم يعرف مهام الخلافة ، ولم يضطلع بشىء من أمور المسلمين وهو ولى العهد ، لأن عمه كان غاضباً عليه ، وظل كذلك حتى مات عمه. فما استطاع أن يغير فى نظام حياته شيئا ، ولا أن يقلع عن غوايته ، ظل يشرب ، ويطرب ، ويأنس بالمغنين والجوارى ، ويقضى حياته فى اللهو والطرب ، ولم يتغير شىء من أمره إلا أنه أسرف فى الشراب ، ولم يعد يخشى أحدا .

وكان ارتقاؤه العرش فرصة للشماتة بهشام فى شعره ، فقال فى هجائه ميتـــاً :

هلك الأحول المشئو م فقد أرسل المطر
ولكنا من بعد ذا ك فقد أورق الشجر
فاشكر الله إنه زائد كل من شكر

وتحرر فى معانيه وهو خليفة ، وأدى به ذلك إلى الإبداع فيما كان يعرض له من المعانى التى تدور حول الخمر ، وحسبه أن يكون ـ كما يرى صاحب الأغانى ـ أستاذا لأبى نواس وغير أبى نواس فى وصف الخمر وما يتعلق بها .

وكان إسرافه فى الشراب ، واستدعاؤه المغنين من الحجاز ، وإنشاده الشعر ليغنوه به ، مظهر الخلافة فى أيامه ، ثم أضيف إلى ذلك سوء المعاملة لمن كانوا يناصرون عمه هشاما ، وله فى النوع الأول أخبار كثيرة بعضها غريب عسير التصديق ، وقد قيل إن هـــذا المجون كان أثرا من آثار اختلاط المسلمين بالفرس والروم ، وسريان بعض عادات القوم وعقائدهم إلى المسلمين فى أيامه ، ولكنى أوثر التعليل الأول ، وهو اضطهاد عمه له ، مع استعداد

خاص للهو والمجون . وأشعر أن الظروف التي كان الوليد يصحو فيها ويفيق كانت تنطقه بالقول الرزين . والمنطق الصائب .

وكان فى قلبه مواضع للحب ، فقد روى أنه أحب سلمى بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان(١) وقال فيها شعرا كثيرا ، وغناه ببعض هذا الشعر حكم وعمر الوادى وابن سريج ، وأبو كامل وابن جامع ومالك بن أبي السمح .

وجاوز هذا الحب بشعره إلى وضع الأشعار على لسان سلمى كأنها تراسله . فمن ذلك :

أقرِ منى على الوليد السلاما عدد النجوم ، قل ذا للوليد
حسدا ما حسِدْت أختى عليه ربما بيننا وبين سعيـــد !

وقيل كانت له جارية يقال لها صدوف ، فغاضبها ، ثم لم يطعه قلبه ، فجعل يتسبب لصلحها ، فدخل عليه رجل قرشي من أهل المدينة ، فكلمه فى حاجة وقد عرف خبره ، فبرم به فأنشده :

أعتبت أن عتبت عليك صدوف وعتاب مثلك مثلها تشريف
لا تقعدن تلوم نفسك دائما فيها ، وأنت بحبها مشغوف
إن القطيعة لا يقـــوم لمثلها إلا القوى ، ومن يحب ضعيف
الحب أملك بالفتى من نفسه والذل فيه مسلك مألوف

فضحك لما سمع الشعر ، وجعل ذلك سببا لصلحها ، وأمر بقضاء حوائج القرشي كلها (١) .

وما أشبه هذه القصة بأخرى تروى عن الرشيد (٢) مع إحدى جواريه ـ مارية ـ وقد جرى بينهما عتب ، فطالب يحي البرمكى العباس بن الأحنف الشاعر العباسي الغزل ، فأخبره أن مارية تأبى ـ بعزة دالة المعشوق ـ أن تعتذر ، والرشيد بعز الخلافة وشرف الملك والبيت ، يأبى ذلك ، وأنه حاول إصلاح بينهما فلم ينجح ، وقال له قل شعرا تسهل به على الخليفة هذه القضية ، ودخل يحي إلى الخليفة ، فكتب العباس :

---

(١) أغاني ج ٦ — ص ١١٩ (٢) معاهد التنصيص ج ١ — ص ٢٠

العـــاشقان كلاهما متغضب وكلاهما متوجـــد متجنب
صدت مغاضبة وصد مغاضبا وكلاهما عـــا يعالج متعب
راجـع أحبتك الذين هجرتهم إن المتـــيم قلمـــا يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما دب السلو له فعـــز المطلب

ثم أرسلها اليه . وتحتها هذان البيتان :

لا بد للعـــاشق من وقفة تكون بين الصرم والوصل
حتى اذا الهجر تمـــادى به راجع من يهوى على رغم

فدفع يحيى الرقعة إلى الرشيد ، فقال : والله مارأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا الشعر ! والله لكأنى قصدت بهذا ! فقال يحيى: والله ياأمير المؤمنين وأنت المقصود به ، فقال الرشيد ياغلام هات نعلى . فإنى والله أراجعها على رغم ، وذهب إليها فأخبرها بقصة الأبيات ، فلما سمعتها سرت بها سروراً عظيما ، وأخذ العباس جوائز الخليفة وجاريته ويحيى البرمكى ، وكانت سنية عظيمة .

وقد أصلح الشعر بين كل من الخليفتين وجاريته ، مع مافيه من تكلف وثقل ألفاظ ، فالبيتان الثانى والثالث فى شعر القرشى للوليد متكلفان ، والكلمات « تشريف ، القوى ، ومسلك مألوف » مثلا كلها نابية فى أماكنها غريبة على الشعر وعلى الاستعمال فى ذلك العهد .

وأبيات ابن الأحنف فيها ثقل فى ألفاظها ، وتكرار «التجنب» والغضب أكثر من مرة مملول ، وربما كان للارتجال أثر فى هذا الاضطراب ، ولكن المعنى قد حمل كلا من الوليد والرشيد على نسيان كبريائه ، والخضوع لسلطان الهوى .

وأخبار الوليد فى الأغانى لاتترك له وقتا يتحدث فيه بغير الشعر ، فكان يستطيعه ، ويقول فى الرسائل والخطب . فقيل إنه كتب إلى أهل المدينة بعد خلافته :

ألا أيها الركب المخبون أبلغوا سلامى سكان البلاد فأسمعوا

الغناء والأدب

الغناء والموسيقى قديمان عند العرب فى بواديهم وحواضرهم ، وكان الشعر عندهم ـ كما هو عند غيرهم ـ أكثر فنون الأدب اتصالا بالغناء والموسيقى ، وظلت هـذه الصلة قوية بينهما الى الآن (١) . وحديث اللهو والغناء والشراب ، وما يتصل بذلك من أدب فى عهد الأمويين ، يبتدىء من معاوية ، وقد سبق (٢) أن تحدثنا عن سياسة بنى أمية مع أهل الحجاز ، فقلنا انهم أخروهم عن مراكز الصدارة ، إذ كانوا يخشون منافستهم(٣) لهم فى السلطان وأترفوهم فى الحياة الدنيا ليرضوا عنهم ، وليشغلوهم بهذا الترف والنعيم وما يتبعهما من لهو ومرح . وكان كثير من شباب الحجاز عند ظنهم ، فإن الفراغ والشباب والغنى وكثرة الجوارى والعبيد فى مكة والمدينة وما يجاورهما دعت إلى شيوع الغناء واللهو والشراب ، ومجالسها العامة والخاصة فى الحجاز وكان فى طبيعة أهل الحجاز ظرف وميل الى الدعابة والفكاهة ، وكان أهل الصلاح والتقوى منهم يقابلون بعض هذا اللهو بالسكوت عليه ، أو بالرضا عنه . فقد روى أن عبيد الله بن عمر خرج يوما حاجا فرأى امرأة جميلة تتكلم بكلام رفث فيه ، فأدنى ناقته منها ثم قال : يا أمة الله ، ألست حاجة ؟ أما تخافين الله ! فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسنا ثم قالت : تأمل ياعمى ، فإنى ممن عنى العرجى بقوله :

من اللاء لم يحجُجن يبغين حسبة ولـكن ليقتلن البرىء المغفلا

فقال لها : فإنى أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار ـ ولعل جمالها قد بهره أيضا فسأل الله هذا السؤال ـ وبلغ ذلك سعيد بن المسيب مفتى المدينة فقال : أما والله لو كان من بغضاء أهل العراق لقال لها : اغربى قبحك الله ، ولـكن ظرف عباد الحجاز ! وروى (٤) أن عطاء بن رباح لقى ابن سريج

---

(١) ص ٢٠٥ فى الادب المقارن للمؤلف . (٢) فى ص ٩٩ .
(٣) من ٧٤ — ٨٤ من هذا الـكتاب . (٤) أغانى ـ ١ ص ٢٥٧ .

بذى طُوى ، عند مكة ، فعابه للهوه وغنائه الذى يفتن به الناس ، فاستحلفه ابن سريج بحق الرسول والصحابة أن يسمع منه ، وقال له . ان سمعت منكرا أمرتنى بالإمساك عما أنا فيه . وأنا أقسم بالله ، وبحق هذه البَنية ، لئن أمرتنى بعد استماعك منى ، بالإمساك عما أنا عليه لأفعلن ذلك . فأطمع ذلك عطاء فيه وغناه ابن سريج بشعر جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا   وشَلا بعينك لايزال معينا (١)
غيّضن من عبراتهن ، وقلن لى :   ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمعه عطاء اضطرب اضطرابا شديداً ، ودخلته أريحية ، فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بهذا الشعر ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه سائلا عن حلال أو حرام ، أو خبر من الأخبار ، لايجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر ، حتى صلى المغرب . ولم يعاود ابن سريج بعد هذا ولا تعرض له .

وروى فى أخبار حنين (٢) مغنى الحيرة ، أنه انتقل إلى الحجاز بدعوة من ابن سريج والغَريض ومعبد ، وآثروا — وآثرت معهم سكينة بنت الحسين — أن يكون أول غناء له فى منزلها . وأذنت للناس إذناً عاما لسماعه ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا .

بل إن بعض هؤلاء الصالحين كان يحكم بين المغنين حين يحتكمون اليه ، كما احتكم الغريض وابن سريج الى سكينة ، وغناها كل منهما بشعر العرجى : « عوجى علينا ربة الهودج »

فقالت ، والله ما أفرق بينكما ، وما مثلكما عندى إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان ، لايدرى أى ذلك أحسن .

وكان هناك كثير من الحديث بين الصالحين من الفقهاء والتابعين ، وبين هؤلاء المغنين وشعرائهم ، فيه تسامح أحياناً . وانكار أحيانا ، ولكن هذا

---

(١) الوشل الكثير من الدفع . المعين : الجارى . غيض من دمعه : قلل منه
(٢) أغانى — ٢ ص ٣٥٦

الإنكار لم يمنع أولئك المغنين ، والشعراء العابثين كابن أبي ربيعة بمكة ، والأحوص بالمدينة ، أن يسيروا فى لهوهم وغنائهم ومجالس أنسهم ، كما شاء لهم الهوى والشباب ، وأن تكون هذه المجالس مجالس أدب ونقد أيضاً .

ومن الصالحين الذين كان لهم ذكر فى الغناء عبد الله بن جعفر وكان من الأجواد ، ومن الذين أكرمهم بنو أمية : روى أنه قدم على معاوية وافدا (١) فدخل عليه إنسان . ثم ذهب الى معاوية ، فقال : هذا ابن جعفر يشرب النبيذ ويسمع الغناء ، ويحرك رأسه عليه . فجاء معاوية متغيراً حتى دخل على ابن جعفر ، وعزة الميلاء بين يديه كالشمس طالعة ، يضيء بها البيت ، فغنته على عودها :

تبكلت فؤادك فى المنام خريدة تشفى الضجيع ببارد بسام

وبين يديه عُس . فقال : ماهذا يابن جعفر ؟ قال . أقسمت عليك ياأمير المؤمنين لتشربن منـــه ، فإذا عسل ممزوج بمسك وكافور . قال : هذا طيب . فما هذا الغناء ؟ قال : شعر حسان بن ثابت فى الحارث ابن هشام ، قال : فهل تغنى بغير هذا ؟ قال : نعم ، بالشعر الذى يأتيك به الأعرابى الجافى الأدفر ، القبيح المنظر ، فيشافهك به فتعطيه عليه . وآخذه أنا فأختار محاسنه ورقيق كلامه ، فأعطيه هذه الجارية الحسناء ، اللينة الملمس ، الطيبة الريح ، فترتله بهذا الصوت الحسن . قال : فما تحريك رأسك ؟ قال : أريحية أجدها إذا سمعت الغناء ، لو سئلت عندها لأعطيت ، ولو لقيت لأبليت . »

فقال معاوية : قبح الله قوما عرضوني لك ! ثم خرج ، وأمر له بصلة .

وقد تكون هذه الرواية من ألفاظ ابن جعفر ، وهذا بعيد ، وقد تكون المعانى له . وهذا السبك من عمل الرواة . وسواء أكان هذا أوذاك ، فالذى ورد فى هذه القصة هو :

---

(١) أغانى ـ ٤ ص ٣٥

(١) ارتحال ابن جعفر من الحجاز إلى الشام ، ومعه مغنيته ، وهذا دليل الترف أولا ، والشغف بالغناء ثانيا .

(٠) أن أهل اللهو كانوا مظنة الشراب ، حتى شك معاوية فى ابن جعفر

(٣) أن هؤلاء المغنين والمغنيات من الموالى كانوا يغنون بما يطيب للسادة أن يختاروه من شعر حديث أو قديم .

(٤) أن هذا الغناء كان يزيد الشعر جمالا ، لجمال الصوت ، وجمال الهيئة فيطرب به الكريم . ويعطى إذا سئل ، وتزيد حماسته إذا خاض الغمرات.

وروى عن ابن جعفر (١) أيضا أنه كان مريضا فدخل عليه معاوية ، فوجد عنده جارية فى حجرها عود ، فقال : ماهذا يابن جعفر ! فقال : هذه جارية أرويها رقيق الشعر ، فتزيده حسنا بحسن نغمتها ، قال : فلتقل ، فحركت عودها وغنت ـ وكان معاوية قد خضب ـ

أليس عندك شكر للتى جعلت ما ابيض من قادمات الريش كالحمم

وجددت منك ماقد كان أخلقه ريب الزمان وصرف الدهر والقدم

فحرك معاوية رجله . فقال له ابن جعفر : لم حركت رجلك ياأمير المؤمنين ؟ قال : كل كريم طروب .

أكانت هذه الزيارة بعد السابقة ، وكان ابن جعفر لايزال يذكر إنكار معاوية عليه ؟ على كل فالنص على أن معاوية « كان قد خضب » يدل على لباقة المغنين وحسن اختيارهم للأشعار الملائمة للمواقف ،ولا يصلون إلى ذلك الحد إلا بعد مران وحفظ للأدب ، وحسن اختيار للمناسب منه ، وكذلك كان المغنون فى الحجاز فى هذا العهد .

كان المغنون يعرفون فضلهم على الشعر والشعراء ، وكان الشعراء يرحلون إليهم ليسمعوا هذا الغناء فى أشعارهم ، كما ارتحل جرير (٢) من المدينة إلى مكة ليسمع غناء ابن سريج فى شعره . روى أنه قدم المدينة ، فاحتشد له شباب يطلبون الشعر ومعهم أشعب ، وساءلوه ، وألح عليه أشعب يسأل ، فقال :

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٠ (٢) أغانى ج ١ ص ٢٩٥

والله إنى لأراك أقبحهم وجها، وأراك ألأمهم حسبا، فقد أبرمتنى منذ اليوم. قال: إنى والله أنفعهم وخيرهم لك. فانتبه جرير وقال: قل ويحك! فاندفع أشعب فنادى بلحن ابن سريج:

يا أخت ناجية السلام عليكمو قبل الرحيل وقبل عذل العُذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يومَ الرحيل فعلت مالم أفعل

فطرب جرير وجعل يزحف نحوه حتى ألصق ركبته بركبته، وقال: لعمرى لقد صدقت، إنك لأنفعهم لى، وقد حسنته واجدته وزينته، أحسنت والله! ثم وصله وكساه. فقال بعض الحاضرين لجرير: فكيف لوسمعت واضع هذا الغناء! قال: أو إن له لواضعاً غير هذا؟ فقالوا: نعم ابن سريج بمكة. فمضى جرير إليه ومعه جماعة ممن يرغبون فى طلب الشعر، فلما أتوه وجدوه فى فتية من قريش كأنهم المها، مع ظرف كثير. فرحبوا بهم، وسألوهم حاجتهم، فأخبروهم الخبر. فرحبوا بجرير وأدنوه، وسروا بمكانه، وأعظم ابن سريج موضعه وقال: سل ماتريد، جعلت فداك. قال: أريد أن تغنينى لحناً سمعته بالمدينة أزعجنى إليك. وأخبره به فغناه. فقال جرير: لله دركم ياأهل مكة، ماذا أعطيتم! والله لو أن نازعا نزع إليكم ليقيم بين أظهركم، فيسمع هذا صباح مساء، لكان أعظم الناس حظا ونصيباً، فكيف ومع هذا بيت الله الحرام، ووجوهكم الحسان، ورقة ألسنتكم، وحسن شارتكم، وكثرة فوائدكم!

وفى هذا الخبر أيضا مايشير إلى تقدير المغنين لكبار الشعراء، وإعجاب الناس بظرف أهل الحجاز، ورقة حديثهم، وحسن ملابسهم وهيئتهم. وقد سار الركبان بهذا الشعر وألحانه، كما غناها ابن سريج، من مكة إلى المدينة، وإلى غير المدينة أيضا، بسبب جمال الصوت وعذوبة الألحان.

وربما كانت رواية هذا الشعر فى الحجاز قليلة قبل أن يتغنى به، فلما غناه ابن سريج كان رواته أكثر، والحديث به أعم. فإن أهل ذلك المجالس فى المدينة كانوا يعرفون الشعر ومغنيه وقائله.

وكان ابن سريج هذا ممن يزيدون الشعر جمالا إذا غنوا به ، وكان غيره مثله : يقول أبو نافع الأسود (١) — وكان آخر من بقى من غلمان ابن سريج — إذ أعجزك أن تطرب القرشى فغنه غناء ابن سريج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك ترقصه .

وإذا كان المغنى من نوع ابن سريج، كثير الأدب ، جيد الاختيار، ظريف اللسان ، حلو المجلس ساعد على إذاعة الشعر الجيد ، وساعده أدبه على الاختيار قبل أن يغنى ، وإذا عرف الشعراء ذلك حرصوا على الإجادة لينال شعرهم حظ الاختيار عند مغن أديب كابن سريج .

وروى عنه أنه كان ناقدا (٢) أيضاً . فقد احتكم إليه معبد ومالك بن أبى السمح ، وقد غنيا فى شعر لعبد الرحمن بن حسان ، فغنى معبد :

آب ليلى بهموم وفكر ... من حبيب هاج حزنى ، والسهر
يوم أبصرت غرابا واقعاً ... شرّ ماطار على شر الشجر

وغنى مالك :

وجرت لى ظبية يتبعها ... لين الأظلاف من حور البقر
كلما كفكفت منى عبرة ... فاضت العين بمنهل درر (٣)

فقال كل واحد منهما لصاحبه: أنا أجود صنعة منك . فتنافرا إلى ابن سريج بمكة وغنياه ، فقال لمعبد : أحسنت والله على سوء اختيارك للشعر ! ياويحك ماحملك على أن ضيعت هذه الصنعة الجيدة فى حزن وسهر ، وهموم وفكر ! أربعة ألوان من الحزن فى بيت واحد ! وفى البيت الثانى شران فى مصراع واحد ! واستحسن غناء مالك وأثنى عليه .

وكان من هؤلاء المغنين قوم مجددون ، منهم ابن سريج هذا ، فقالوا إنه نقل العود من الفرس ، وإنه رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة فنقله عنهم . كما نسب إلى أستاذه سعيد بن مسجح أنه نقل غناء

(١) أغانى جزء ١ ص ٢٨٤ (٢) أغانى جزء ١ ص ٢٢٣
(٣) جمع درة بكسر الدال وهى المطر المتتابع

الفرس فى هذا العهد أيضا . وقيل فى أخبار الغريض إنه سمع أصوات رهبان بالليل فى دير لهم فاستحسنها ، فصاغ لحناً على مثالها فى شعر سعيد بن عبد الرحمن بن حسان :

يا أم بكر حبك البادى لاتصرمينى إننى غادى

فما سمع بأحسن منه .

وكان لهؤلاء المغنين شعراء كأنهم ينشدون الشعر من أجلهم . فكانت هناك صداقة بين ابن سريج وابن أبى ربيعة . ولما غنى ابن سريج قصيدة ابن أبى ربيعة التى مطلعها :

نظرت إليها بالمحصب من منى ولى نظرة لولا التحرج ، عارم

وكان ذلك فى موسم الحج ، حبس الناس عن مناسكهم ، واستوقفهم حتى تزاحموا . وأخذ بعض جوائز يزيد بن عبد الملك فاعطاها لابن أبى ربيعة قائل هذا الشعر .

وكانوا يتخيرون من الشعر القديم مايصلح ويجود فيه الغناء ، مع مراعاة المناسبات . وكثر عددهم فى الحجاز كثرة غريبة ، وكانوا أساتذة المغنين الذين جاءوا بعدهم فى عهد العباسيين . وكان الخلفاء والامراء يرحلون اليهم من الشام فيسمعون منهم ويجزلون عطاءهم .

وإذا كان من الخلفاء والولاة من استمع لهم فقد كان هناك آخرون اشتدوا على بعضهم كالحجاج ، وخالد القسرى ، وعثمان بن حيان المرى ، كما اشتد بعض الولاة على الشعراء الغزلين . ومنع الحجاج عمر بن أبى ربيعة أن يقول شعراً فى فاطمة بنت عبد الملك ، لكنه قال ولم يصرح باسمها خوفا منه . غير أن ذلك المنع لم يكن كثيراً . وكثر فى الحجاز ، وبخاصة فى الحواضر ، شعر الغزل والغناء به . وكان بعضه صريحا فى العبث وبخاصة فى أيام الحج . قال بعض الشعراء .

ياحبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللائى يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

أما يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد فقد انصرفا إلى الشراب واللهو، وأكثرا من سماع الغناء، واستقدما المغنين والمغنيات من الحجاز. فعرفت دمشق فى أيامهما سلامة وحبابة. وغنى عمر الوادى، ومالك بن أبى السمح وابن سريج ومعبد، وابن عائشة، وأبو كامل، والغريض. وغيرهم، للوليد بن يزيد، فى أشعاره العابثة اللاهية، وفى أشعار غيره. وأخذوا جوائزه، وتعموا بالقرب من مجالسه. ولكن الحجاز لم ينزل عن تقدمه فى الغناء وشعر الغزل إلا للعراق فى أيام العباسيين.

وروى الأغانى (١) أن بعض القصص قد وضع وضعا لحمل بعض المغنين على الغناء وذلك أن ابن عائشة المغنى كان عنيداً، إذا سئل أن يغنى أبى، فكانوا يحتالون عليه فينشدون الأشعار التى يريدون سماعها منه. وقد يذكرون هذه الاشعار فى ثنايا قصص مخترعة: روى أنه كان فى مجلس، وأراد بعض الحاضرين أن يسمع منه غناءه فى شعر جميل. فقص قصة، ما إن سمعها ابن عائشة حتى اندفع يغنى.

وروى عن يونس الكاتب قال: (٢) كنا يوما متنزهين بالعقيق أنا وجماعة من قريش، فبينما نحن على حالنا إذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام من بنى ليث. فلما رأى جماعتنا جلس إلينا، وكانت الجماعة تعرف سوء خلقه وغضبه إذا سئل أن يغنى، فأقبل بعضهم على بعض يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما من الشعراء. رجاء أن يطرب فيغنى، فلم يجدوا عنده ما أرادوا. فقلت لهم أنا: لقد حدثنى اليوم بعض الأعراب حديثاً يأكل كل الاحاديث، فإن شئتم حدثتكم إياه. قالوا: هات، قلت: حدثنى هذا الرجل أنه مر بناحية الربذة، فاذا صبيان يتغاطسون فى غدير، وإذا شاب

---

(١) د، ص ٢٢٩ (٢) أغانى ٢ ـ ص ٢٣٢

جميل منهوك الجسم ، عليه أثر العلة ، والنحول فى جسمه بيّن ، وهو جالس ينظر إليهم . فسلمت عليه فرد على السلام وقال : من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحمى ، قال ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحا ، قال وأين كان مبيتك ؟ قلت ببنى فلان ، فقال : أوه ! وألقى بنفسه على ظهره ، وتنفس الصعداء تنفسا ظننت إنه قد خرق حجاب قلبه ، ثم قال :

سقى بلدا أمست سليمى تحله ... من المزن مايروى به ويسيم
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه ... يحل به شخص على كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لدىّ ، وإن شط المزار ، نعيم
ومن لامنى فيه حميم وصاحب ... فرُد بغيظ صاحب وحميم

ثم سكن كالمغشى عليه ، فصحت بالصبية ، فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق ، وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعى ... وأنفاسى تزين بالخشوع
ولى عين أضر بها التفانى ... إلى الأجزاع مطلقةَ الدموع
إلى الخلوات يأنس فيك قلبى ... كما أنس الغريب إلى الجميع

فقلت له : ألا أنزل فأساعدك ، أو أكر ، عودى على بدئى ، إلى الحى فى حاجة إن كانت لك حاجة أو رسالة ؟ فقال : جزيت خيرا وصحبتك السلامة ! امض لسبيلك ، فلو أنى علمت أنك تغنى عنى شيئا لكنت موضعا للرغبة ، وحقيقا باسعاف المسألة ، ولكنك أدركتنى فى صبابة من حياتى يسيرة . فانصرفت وأنا لاأراه يمسى ليلته إلا ميتا ، فقال القوم ما أعجب هذا الحديث ! واندفع ابن عائشة فتغنى فى الشعرين جميعا ، وطرب وشرب بقية يومه ، ولم يزل يغنينا إلى أن انصرفنا :

وأقول مع الراوى : ما أعجب هذا الحديث وأظرفه ، وما دعا إلى روايته الا خفته وطرافته ، ودلالته على ما كان للغناء من فضل فى سرد مثل هذا القصص ، وامتلاء مجالسه بكثير من أخبار الأدب الصحيحة والموضوعة . ونحن فى كلتا الحالتين نستمتع بمثل هذا الحديث وهذا الشعر

الذى أذهب شيطان ابن عائشة وهداه ، فطرب به وغناه

ونستطيع أن نبين تأثير الغناء فى الشعر خاصة، والأدب عامة فيما يأتى:

(١) الغناء يوافق الشعر ومافى حكمه ، ويؤثر من الشعر ما كان غزلا ، لأن الشبان أكثر من تهمهم مجالس الغناء ، والحديث عن الغزل يقع من نفوسهم موقعا حسنا ، بل إن من الشيوخ من يؤثر الغزل لأنه يعيد إليهم ذكريات الشباب .

على أن بعض المغنين يختار ـ لظروف ومناسبات خاصة ـ أشعارا غير الغزل ، وذلك كالحماسة ، والوصف ، والمدح ، والرثاء، بل إنهم قد يختارون الهجاء أيضا .

(٢) الغناء يزيد الشعر جمالا ، واجتماع اللحن الجميل ، والصوت الحسن مع الموسيقى الشعرية يجعل الشعر أكثر قبولا . وأيسر حفظا ، ويحمل على الترنم به فيكثر رواته ، ويشيع خبره وقد يكون بعض الشعر مجهولا أو قليل الشهرة . فاذا غنى به المغنون شاع ، وعادت إليه جدته وشبابه

(٣) إذا كثر الغناء بنوع من الشعر ، أو دعت الظروف الى الاهتمام بفن من فنونه فى الغناء ، كشعر الوطنية ، أو الشعر الدينى ، انصرف الشعراء إلى هذا النوع مدفوعين الى ذلك بالروح الشائع ، وقدموا للمغنين مددا من هذه الأشعار يغنون به ، ويردده الناس بعدهم ما بقيت الظروف

(٤) من المغنين من يختار أشعارا يأباها الدين أو الفضيلة أو القانون فتصادره الدولة ، أو يثور عليه القائمون بأمر الأخلاق ، وكثيرا ما منع الرقيب بعض الأغانى ، أو ثار العرف أو الأخلاق فكف المغنون ، وقد يكون المنع للمغانى ، وقد يكون للملحنين . وكان من ذلك مطاردة بعض الأغانى فى شعر الأحوص زمن سليمان بن عبد الملك .

(٥) للغناء وألحانه أثر فى الشعراء . فتراهم يراعون أنغام الغناء فى شعرهم ويختارون من الأبحر ما يسهل تلحينه . وينزلون عند حكم الغناء ، كما ينزلون

عند حكم الموضوعات — صناعة أو طبيعة — والذين يعرفون أصول الغناء والموسيقى من الشعراء أكثر حرصا على ذلك .

(٦) قد يستخدم الغناء وسيلة إلى الإيحاء للناس بمعانى الأدب ، لقربه من النفوس ، وسهولة وصوله إلى القلوب . فترى من يريد إصلاحا ، أو إفسادا ، أو بلوغ مأرب ، يوحى عن طريق الشعر الملحن بما يريد أن يوحى ، وسرعان مايصادف هذا الشعر هوى فى النفوس .

(٧) قد يكون فى مجالس الغناء أو بعدها حديث عن الشعر المغنى ، نقدا له أو تفسيرا ، أو رواية خبر يتعلق به ، أو إشارة إلى حوادث أو شخصيات وردت فيه ، وتصبح مجالس الغناء باعثا على الحديث فى الأدب والأخبار والنقد وغير ذلك .

عمر بن عبد العـــزيز

صفر ٩٩ رجب سنة ١٠١ هـ

رجل آتاه الله الملك والحكمة ، فأحسن كما أحسن الله إليه ، وأسبغ عليه العز والنعمة ، فأدى حقوق الله عليه ، وبلغ أعلى مراتب الدنيا فطلب بها رضوان الله فى الآخرة ، وأحيا مادرس من أمور الدين ، حتى عد من الراشدين ، وأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، فكان من خيرة التابعين بإحسان . ووهب الله له حكما وألحقه بالصالحين ، وجعل له لسان صدق فى الآخرين .

كان عمر حاكما على المدينة فى خلافة ابن عمه الوليد بن عبد الملك ، فأعاد سيرة السلف الصالح فى ولايته . وولى خلافة المسلمين بعد سليمان بن عبد الملك ، فاتخذ القرآن إماما وهاديا ، فأحيا ما أحياه وأمات ما أماته ، وحمل نفسه والناس على الطريق القويم ، واستعان بالله ، وبالصالحين من عباد الله ، على إقامة العدل بين الرعية ، فأمن الناس على دمائهم وأموالهم ، بعد أن أبيحت قبله الأموال والدماء ، كما شاءت السياسة وشاءت الأهواء .

كان ابن عبد العزيز بعيدا عن كبرياء الملوك ، متخلقا بأخلاق الله ، شديدا فى الحق ، عنيفا على الظالمين ، ولكنه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما .

روى أنه لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره ، سمع للأرض رجة ، فقال ماهذه ؟ فقيل : هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قربت إليك لتركبها . وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة . فقال : تنح عنى . مالى ولك ! إنما أنا رجل من المسلمين ! فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فقال :

« أيها الناس : إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وانى خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم » ؟ .

فصاح الناس صيحة واحدة : « قد اخترناك ياأمير المؤمنين ، ورضينا بك » فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعا ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ وقال (١) :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عزوجل خلف . واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم ، يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات . وإن من لايذكر من آبائه ، فيما بينه وبين آدم عليه السلام ، أباً حيا لمعرق فى الموت . وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عزوجل ، ولا فى نبيها ﷺ . وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لاأعطى أحداً باطلا ، ولاأمنع أحداً حقاً . إنى لست بخازن ، ولكنى أضع حيث أمرت . »

أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاة تجترون مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم . ألا لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق . من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعونى ماأطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا واستغفر الله العظيم لى ولكم » .

هذا دستوره الذى وضعه لنفسه يدل على أنه كان يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وأنه كان يذكر الموت وما بعده ، ويسير فى الرعية سيرة الخائف من الله ، حتى عد فريداً فى خلفاء بنى أمية . وألحقه المؤرخون بجده الفاروق .

آثاره فى الأدب :

أما أدبه فهذا مثاله ، وهو طراز غير الذى ألفناه فى السابقين واللاحقين من هؤلاء الخلفاء . كانت نفسه الطيبة مسيطرة على لسانه ، وكان دينه القيم

(١) هذه حوالى خمس روايات لأول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وردت فى كتب متفرقة وجمعها الاستاذ صفوت فى جمهرة خطب العرب جـ ٣ من ص ١٨٩ إلى ص ١٩٢ . وهذه من أطولها .

مسيطرا عليهما ، فلم يكن يجرى لسانه أو قلمه إلا بأمر بمعروف أو نهى عن منكر . ولم يؤثر عنه فى أدبه أو صلته بالأدباء إلا ما كان متأثرا بالدين . فكان أدبه الخاص — فى خطبه ورسائله — حتى الديوانية — رجوعا بأمور الدولة إلى أصول الدين ، وتأثرا بتعاليمه وأساليبه .

وكانت له مواعظ دينية ، وأقوال فى الزهد ، وجدل فى الدين مع الخوارج ومع بعض المتكلمين فى القدر وغيره من المسائل الدينية ، وكانت له دعوات إلى الدين ، ودعا ملوك السند فأسلموا . وكان معينه القرآن والحديث وأفعال الصحابة ، مع حسن استعمال العقل فى اختيار الأمثلة والبراهين التى يسوقها تأييدا لدعوته ، أو تقوية لحجته .

كتب إليه عدى بن أرطاة والى البصرة يقول :

« أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين — فإن قِبَلى أناسا من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالا عظيما ، لست أرجو استخراجه من أيديهم إلا أن أمسهم بشىء من العذاب . فإن رأى أمير المؤمنين أصلحه الله — أن يأذن لى فى ذلك أفعل »

فأجابه عمر :

« أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب بشر ، كأنى لك جُنّة من عذاب الله ، وكأن رضاى عنك ينجيك من سخط الله عز وجل ! فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقر لك بشىء فخذه بما أقر به . ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله ، وايم الله ، لأن يلقوا الله عز وجل بخياناتهم أحب إلى من أن ألقى الله بدمائهم ، والسلام »

فى هذه الرسالة ، كما فى غيرها من الرسائل ، يمزج عمر الدين بسياسة الدولة ، لا يكتب كتابة سياسية محضة ، ولا وعظا دينيا خالصا ، ولا رسائل ديوانية ، بل يجمع ذلك كله بعضه إلى بعض ، ويبغى الأغراض الثلاثة فى هذه الرسائل الموجزة ، فابتداء رده على ابن أرطاة خوف من الله ، وأنه لا تملك نفس

لنفس شيئا ، ولاتغنى عنها من عذاب الله شيئا ، ويتسع ذلك القاعدة القانونية الواردة فى الأثر : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » .

ولما كان الدين معينه الصافى الذى يأخذ منه آدابه وفضائله وأخلاقه ، كان طبيعيا أن يكثر من الاقتباس والاستشهاد والتضمين من القرآن والحديث وآثار الراشدين .

خطب يوما فقال : « أيها الناس . لاتستصغروا الذنوب ، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » .

وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم عامله بخراسان :

« أما بعد . فكن عبداً ناصحاً لله فى عباده ، ولاتأخذك فى الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئا من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق ، فإن الله لاتخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهباً ، فإنه لاملجأ من الله إلا إليه »

أسلوب القرآن والحديث واضح فى هذا ، وروح التعليل للأوامر واضحة أيضا فى هذه الجمل المسبوقة بالفاءات ، وما أشبه هذه الجمل بالحجج والبراهين على ما سبقها .

وقد كان سيدنا عمر بن عبد العزيز - مما نرى فى أدبه - منطقى التفكير يذكر الحكم وسببه ، والرأى والبرهان عليه . وكان سريع القضاء فيما يعرض عليه من الأمور ، واضحا قوياً فيما يصدره من الأوامر . كتب إليه أحد عماله يقول .

« إنا أتينا بساحرة فألقيناها فى الماء ، فطفت على الماء ، فما ترى فيها ؟ »

فرد عليه عمر ، ولعله كان يسخر منه فى الجملة الأولى : « لسنا من الماء فى شىء ! إن قامت عليها بينة ، وإلا فخل سبيلها . »

وقد ساعد هذا الروح الدينى على ظهور كثير من أهل الصلاح والتقوى على

مسرح السياسة ، فاشتركوا فى إدارة الدولة اشتراكا فعليا إلا من أبى ، واشترك بعضهم فى وضع أسس سياسية مصدرها الدين . وعدت من الأدب الرفيع الجديد كذلك . وهذا الحسن البصرى فى كتابه إلى عمر يذكر كل مايجب أن يتصف به الإمام العادل واليك الكتاب :

وصف الإمام العادل : للحسن البصرى :

« اعلم ياأمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف ـ والإمام العدل ياأمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ـ والامام العدل ياأمير المؤمنين كالأب الحان على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته — والامام العدل ياأمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته — والامام العدل ياأمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم والامام العدل ياأمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده — والامام العدل ياأمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلاتكن ياأمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله واعلم ياأمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ! واذكر ياأمير المؤمنين الموت ومابعده . وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك

عليه ، فتزود له ، ولما بعده من الفزع الأكبر - واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك فى قعره فريداً وحيدا ، فتزود له مايصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه - واذكر ياأمير المؤمنين إذا بُعثر مافى القبور ، وحُصِّل مافى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن ياأمير المؤمنين وأنت فى مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لاتحكم ياأمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولاتسلك بهم سبيل الظالمين ، ولاتسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لايرقبون فى مؤمن إلاً ولاذمة ، فتبوء بأوزارك . وأوزارا مع أوزارك ، وتحمل أثقالك . وأثقالا مع أثقالك ، ولايغرنك الذين يتنعمون بمافيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . لاتنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنَت الوجوه للحى القيوم . إنى ياأمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظتى مابلغه أولو النُّهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه . يسقيه الأدوية الكريهة . لمايرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

هذه رسالة الحسن إليه . يبين له صفة الحاكم المثالى ، أو الامام العادل فى الرعية ، ومايجب عليه من رعايتهم . وحدب عليهم ، وإخلاص لله فى أمورهم . وخوف من يوم القيامة عند التصرف فى أموالهم . . الخ . ولو أن فيلسوفا أخلاقيا تخير حاكما لمدينة فاضلة مااختار إلا ماوصفه الحسن البصرى حاكما ، يصلح حياتها ويجعلها نعيما .

ونكتفى بقراءة هذا الوصف لنرى منه أدبا آخر ومدرسة أخرى لابن عبد العزيز والحسن البصرى ، وطاوس ، وسالم ابن عبد الله بن عمر وابن سيرين . وغيرهم من رجال الورع والتقوى والزهد . عمادها فى أدبها

القرآن والدين ، تقتبس منهما الأسلوب وتختار منهما الموضوعات، وتبشر بهما وتنذر، وتدعو إليهما . وتحاول أن تصرف الناس عما يخالفهما . ولو أردت أن ترجع أكثر ماورد للحسن البصرى عما بعد الموت فى هـــذه الرسالة ، إلى القرآن الكريم ، لما تخلف له إلا القليل. كما كانت طريقة أولئك الصالحين الذين تقدمت أسماؤهم

وتشير هذه الرسالة فى وصف الامام العادل ، إلى فكرة فى الخلافة لم نألفها منذ عهد الراشدين . فالخليفة فى هذه الرسالة ملجأ للناس، وكأنه الراعى الشفيق ، أو الأب الحانى ، أو الأم الرفيقة ، وهو وصى اليتامى وخازن المساكين ، وكأنه فيهم بمنزلة القلب من الجسد يصلح بصلاحه ويفسد بفساده. وهو أولى الناس باتباع أوامر الله ، وحمل غيره عليها . فليكن أحرص الناس على الحدود ، وعلى تذكر الموت قبل حلول الأجل ، وليعمل عملا صالحا يرجو به ثواب الله فى الدار الآخرة

كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ، أولا بفكرة الخلافة من معنى الحق المقدس (١) إلى فكرة أخرى ، هى أن الخليفة خادم الأمة ، عليه أعباء عظيمة ، ومسئوليات أعظم أمام الله . وعبر الأدب عن هذه النظرة تعبيرا جميلا ، ونظر الشعر فى عهده هذه النظرة واستمد الشعراء معانى مدحه من صلاحه وحسن سيرته ، فقال كثير : (٢)

وليت ، فلم تشتم عليا، ولم تخف ... بريا ، ولم تقبل إشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذى ... أتيت ، فأمسى راضيا كل مسلم

وقال له جرير قولا حقا : (٣)

أنت المبارك والمهدى سيرته ... تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور

وشبهه بجده الفاروق فى قوله :

أشبهت من عمر الفاروق سيرته ... سن الفرائض وائتمت به الأمم

وهذه نظرة إلى الخليفة تماثلها كثيرا عبد الملك، وكان الشعراء يقعون على

(١) صفحة ١٠٦ (٢) عقد ١ صفحة ٢٠٤ (٣) ديوان جرير صفحة ٢٧٥

هذه المعانى الدينية وهم يمدحون آل الزبير أو بنى هاشم فيتمنى عبد الملك أن يمدح بمثلها . (١)

ولكن الشعراء كانوا ينظرون إلى الخلفاء الأمويين نظرهم إلى الملوك الذين لا سلطان لأحد عليهم ، ولا قول لأحد بعد قولهم . وهذا ابن قيس الرقيات يقول :

ما نقموا من بنى أميـــة إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب

ويقول ابن الرقاع فى الوليد .

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

الشعر عنده

وكان لسيدنا عمر بن عبد العزيز موقف من الشعراء أثر فيهم وفى شعرهم، على رغم الزمن القصير الذى عاشه . ذلك أنه لم يكن فى حاجة إلى الشعراء يستغلهم استغلالا سياسيا ، لأنه كان رجلا يخشى الله أشد خشية ، وكان لا يعبأ بمدح الناس ولا ذمهم ، وكان يستوحى الدين فى سياسته ، ويسترشد بالصالحين من التابعين ، ويستعين بأهل العفاف والتقوى ، « فأمسى راضيا كل مسلم» كما قال عنه كثير ، اللهم إلا الشعراء الذين حرمهم ،والظالمين الذين أخذ منهم ما استولوا عليه غصبا ، ورده إلى أصحابه .

ويهمنا موقفه مع الشعراء الذين وفدوا عليه ، يرجون خيره وعطاءه فلم يعطهم على مدحه إلا من ماله . فاذا أعطاهم من بيت المال فلفقرهم لا لشعرهم ، وتلك حال لا تشجع الشعراء على الرحلة إليه ، وانفاق الليالى والشهور فى تحبير المدائح فيه ، ولا بذل الجهد فى صوغ المعانى التى تليق بمقام الخلافة . فالرجل لم يكن يريد هذا ، والشعراء لاخير لهم فى هذا . بقى الذين أعجبوا بأعماله العظيمة فمدحوه مـــدحا خالصا لا يريدون منه جزاء ولا شكورا .

(١) ص ١٤٨ من هذا الكتاب

لما ولى الخلافة وفد عليه الشعراء كما كانوا يفدون على الخلفاء قبله . فأقاموا ببابه أياما لا يأذن لهم بالدخول ، وهذه مقدمة لا تبشر بخير ، حتى قدم عدى بن أرطاة عليه ، وكانت له عنده مكانة ، فقال جرير (١) .

يا أيهـــا الرجل المزجى مطيته   هذا زمانك ، إنى قد مضى زمنى
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيَه   أنى لدى الباب كالمصفود فى قَرَن
وحش المكانة من أهلى ومن ولدى   نائى المحلة عن دارى وعن وطنى

فلما دخل على عمر قال له : يا أمير المؤمنين ، إن الشعراء ببابك ، وأقوالهم باقية ، وسنانهم مسنونة . قال : يا عدى . مالى وللشعراء ! فأخبره أن النبي ﷺ سمع المدح وأعطى عليه ، وفيه أسوة لكل مسلم . قال : صدقت . فن بالباب منهم ؟ قال ابن عمك عمر بن أبى ربيعة . قال : لاقرب الله قرابته ولاحيا وجهه ! أليس هو القائل .

ألا ليت أنى يوم حانت منيتى   شممت الذى مابين عينيك والفم
وليت طَهورى كان ريقك كله   وليت حَنوطى من مُشاشك والدم
وياليت سلمى فى القبور ضجيعتى   هنالك أو فى جنة أو جهنم

فليته والله تمنى لقاءها فى الدنيا ، ويعمل عملا صالحا . والله لا دخل على أبدا (٢) . ثم سأله عمن بالباب غيره ، فذكره جميلا ، فروى له عمر أبياتا من الشعر ، وقال : اعزب به فوالله لا دخل على أبدا . وكذلك كثير ، والأحوص ، والفرزدق ، والأخطل ، حتى ذكر له جريرا . فقال : أليس هو القائل :

لولا مراقبة العيون أريننا   مُقَل المها وسوالف الآرام
هل ينهينك أن قتلن مرقشا   أو مافعلن بعروة بن حزام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى   والعيش بعد أولئك الايام

---

(١) العقد جـ ١ عند ص ٣٠٥ (٢) عمه عبد الملك أعطى ابن ربيعة خمسة أضعاف الجائزة التى أخذها غيره من الوافدين معه بسبب البيت الأخير ص ١٠١ من هذا الكتاب .

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام (١)

فان كان ولا بد فهذا . فأذن له ، فدخل وهو يقول :

إن الذى بعث النبى محمدا جعل الخلافة فى إمام عادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه حتى ارعوى وأقام ميل المائل
والله أنزل فى القرآن فريضة لابن السبيل وللفقير العائل
إنى لأرجو منك خيراً عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل

فلما مثل بين يديه قال: اتق الله ياجرير ، ولا تقل إلا حقا فأنشأ يقول : (٢)

كم باليمامة من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدك تكفى فقد والده كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به خبلا من الجن أومساً من البشر
خليفة الله ماذا تأمرن بنا لسنا إليكم ، ولا فى دار منتظر
مازلت بعدك فى هم يؤرقنى قد طال فى الحى إصعادى ومنحدرى
لاينفع الحاضر المجهود بادينا ولايعود لنا باد على حضر
إنا لنرجو إذا ماالغيث أخلفنا من الخليفة مانرجو من المطر
أتى الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فقال : ياجرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وماأملك إلا ثلثمائة ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله . ياغلام . أعطه المائة الباقية ، فقال : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلى . ثم خرج ، فقالوا له : ماوراءك ؟ قال : مايسوءكم : خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء وإنى عنه لراض . ثم أنشأ يقول :

(١) سكينة بنت الحسين عابت البيت الاخير على جرير وقالت : أى وقت للزيارة خير من هذا ! .

(٢) أغانى ص ٥٤ : خبر هذه الزيارة مع اختلاف قليل فى الحوادث، وترتيب الابيات فى الديوان مخالف للعقد والاغانى .

رأيت رُقى الشيطان لاتستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

ويروى أن جريرا لقى فى عودته دكينا الراجز ذاهبا إليه .فقال له جرير: عوِّل عليه فى مال ابن السبيل . ويروى كذلك أن دُكينا لم يجد سبيلا إلى عمر فمدحه بأعلى صوته ، فأمر له عمر بشىء من ماله الخاص . وذهب إليه كثير والأحوص فلم يجدا سبيلا إلى الوصول إليه حتى استأذن لهما مسلمة بن عبد الملك بعد أربعة أشهر . فأذن لهما مع العامة . فلما دخلا سلما ، وقال كثير : يا أمير المؤمنين ، طال الثواء ، وقلت الفائدة ، وتحدث بحفائك إيابنا وفود العرب . قال : يا كثير ، إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، أفى واحد من هؤلاء أنت ؟ قلت : بلى ، ابن السبيل منقطع به وأنا صاحبك ، . ثم استأذنه فى الانشاد فقال له : لا تقل إلا حقا فمدحه بأنه أبطل سنة الأمويين فى سب على - وكان كثير يتشيع - وأنه قد أمن الناس فرهى عنه المسلمون وأنه أعرض عن الدنيا وزينتها ثم قال له :

ومالك ، إذ كنت الخليفة ، مانع سوى الله من مال رعيت ودرهم
تركت الذى يفنى وإن كان رونقا وآثرت ما يبقى برأى مصمم
وأضررت بالفانى ، وشمرت للذى أمامك فى يوم من الشر مظلم
سما لك هم فى الفؤاد مؤرق بلغت به أعلى المعالى بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها مناد ينادى من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين ظلمتنى لأخذ لدينار ولا أخذ درهم

وأذن للأحوص فأنشده قصيدة فيها كلام عن الشعر والجزاء عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهى تقدم نصيب ، فلم يأذن له فى الانشاد ، وأمره بالغزو ، وأعطى كثيرا ثلثمائه . والأحوص مثلها والنصيب نصفها .

وفى هذا الحديث الطويل عن موقف عمر بن العزيز من الشعراء بيان لتأثر الشعر بخلافته كما يلى :

أنه لم يأذن لهم فى مطالع خلافته كما كان يفعل غيره من الخلفاء ، وتبع ذلك أنه حرمهم ما كان لهم من حق ثابت فى بيت المال ، لا يقره الدين ، وإن أقرته السياسة .

وأنه لم يعبأ بمدح الشعراء ولا هجائهم . فلما ذكروه بسماع النبى صلى الله عليه وسلم للمدح سمع منهم ، وكافأهم من ماله الخاص،وما كان أقل هذا المال. وأن الشعر الذى كان يعجب الخلفاء من قبله لم يعجبه . وحرم ابن أبى ربيعة العطاء على شعر كافأه عليه عبد الملك خمسة أضعاف الجائزة التى أخذها غـــيره .

وقد ترك شعر المدح والهجاء والغزل، يترنح إذ صدم هذه الأنواع صدمة قوية. بإنكاره لها ، وحرم الشعراء بسبب المعانى التى كذبوا فيها أو فسقوا ، وتقرب إليه بعضهم ـ كالنصيب ـ بانه ترك النسيب. وترك الشعراء لضمائرهم فأثنى عليه بعضهم اعجابا بنبل أخلاقه وأعماله ، مثل جرير .

كان عمر راوية للشعر ، حافظا للكثير من مختاره ، عارفا وكان باتجاهات الأدب فى أيامه ، وبأثر السياسة فى توجيهه ، فنفر من ذلك . وكثر فى أيامه أدب شديد الصلة بالدين ، يدعو إليه ، ويبدى محاسنه ، ويظهر أحكامه، ويبين حدوده ، ويستمد منه المعانى والمبادىء والأساليب والألفاظ والموضوعات . وكثر الحديث عن الوعظ والزهد ووصف الدنيا ومقارنتها بالآخرة . وعلا شأن أهل الفقه والعبادة من أمثال سالم بن عبد الله بن عمر والحسن البصرى ، وعدى بن أرطاة ، ورجاء بن حيوة .

ومات عمر بن عبد العزيز بعد أن ترك له فى الصالحين ذكرا،ورثاه الشعراء فقال رجل من أهل الشام يرثيه :

قد غيب الدافنون اللحدَ إذ دفنوا   « بدير سمعان » قسطاسَ الموازين
ولم يكن همـــه عيناً يفجرها   ولا النخيل ولا ركض البراذين
أقول لمـــا أتانى نعى مهلـــكه   لا يبعدنّ قوام الملك والدين

وقال جرير يرثيه :

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... ياخير من حج بيت الله واعتمرا !
حمّلت أمراً عظيما فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله ياعمرا !
فالشمس كاسفة ليست بطالعة ... تبكى عليك نجومَ الليل والقمرا

كان الخطباء يسبون عليا رضى الله عنه حتى فى الخطب الدينية ، مرضاة لبنى أميه ، فأبطل عمر هذه السنة السيئة . وأمر أن يكون ختام هذه الخطب قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

تم طبع هذا الكتاب بحمد الله تعالى
بمطبعة المعلوم بالقاهرة
فى ١٢ رجب سنة ١٣٦٨ — ١٠ مايو سنة ١٩٤٩

الفهـــرس

صفحة

٩ — ٣٨ دراسة الأدب : دراسة النصوص لذاتها (٩). النص المستقل (١٢) حاجة النص إلى علم بظرفه وإشاراته (١٤). التحقيق الأدبى (١٦) شبه النص بعصره وبيئته (١٧). اعتماد التحقيق على الناحية الشكلية (١٧). الجمع بين النقد والتحقيق (١٠). دراسة الفنون الأدبية (٣١) طريقة التراجم أو السير (٢٤) المدارس الأدبية (٢٩) الطريقة التاريخية : ا ـ نسبة العصر إلى دولة أو أسرة (٣١). ب ـ نسبته إلى ملك عظيم (٣٢). حـ ـ نسبته إلى أديب مشهور (٣٢). ى ـ نسبته إلى حركة تاريخية كبيرة (٣٣). مايبرر التقسيم التاريخى (٣٢) تأثير الأدب فى التاريخ (٣٦) الجمع بين هـذه الطرق (٣٨)

٣٩ — ٥٤ فى سبيل الملكية الوراثية : النزاع بين على ومعاوية (٣٩) مخالفة معاوية (٤١). وقعة الجمل (٤١). أثر النزاع فى النثر : ـا ـ فى الرسائل (٤٣) ب ، فى الخطب (٤٦) . أثر النزاع فى الشعر (٥٠). نتائج معركة صفين (٥٣)

٥٥ — ٥٩ أثر العظماء فى الناس : سيادة وتقليد (٥٥) . مصدر نبوغ الأدباء (٥٦) قيادة الأمويين للأدب (٥٧)

٦٠ — ١٠٥ معاوية بن أبى سفيان شرف أسرته : أبوه . (٦٠) أمه (٦١) بيئته (٦٤) . فى إسلامه (٦٤) . قيادته للحركة الأدبية (٦٦). رسائله (٦٧). الوفادة الأدبية (٧٠). الأدب فى البيعة ليزيد (٧٤) البيعة ليزيد بالحجاز (٧٥) . الوفادة لتأييد البيعة (٨١) . الشعر فى هذه البيعة (٣ ،). اتفاق الوالد والولد (٨٤) . معاوية يسن

صفحة

سنة لمن بعده (٨٥). معاوية والأنصار (٨٥). موقفه من التهاجى بين ابن حسان وابن الحكم (٨٨). معاوية والعصبيات (٨٩) بعض نتائج هذه السياسة (٩١). معاوية والشعر (٩١). التشهير بعلى وبحنة أشياعه (٩٤). أثر هذه الفتنة فى الأدب (٩٦). المجالس الأدبية عند معاوية (٩٧). معاوية والغزل فى الحجاز (٩٩) معاوية ورواية الأخبار (٩٩) معاوية والقصص (١٠١) حرية الأدب فى زمنه (١٠١). خاتمة آثاره الأدبية (١٠٣). الخلاصة (١٠٤). معاوية زعيم مدرسة ملكية أدبية (١٠٥).

١٠٨ — ١٢٦ يزيد (١٠٨). مقتل الحسين (١٠٨). أثرها فى الأدب (١٠٨) وقعة الحرة (١٠٩). أثرها فى الأدب (١١٠). حصار مكة (١١١). أثرها فى الأدب (١١١). عتبة بن أبى سفيان (١١٤). وصيته لمؤدب أبنائه (١١٥). زياد (١١٨). أدبه صورة من نفسه (١١٩). أثر الدين فى أسلوبه (١٢١).

بنو مروان

١٢٧ — ٢٠١ — ١ — مروان (١٢٧). — ٢ — عبد الملك (١٣١). خطبه (١٣١). خطبته بعد مقتل عمرو بن سعيد (١٣٢). الظرف الذى قيلت فيه (١٣٣). خطبته بعد قتل مصعب (١٣٦). رسائله (١٣٨). الموجز منها (١٤٠). سبب الإيجاز (١٤١). الشعر فى الرسائل (١٤٢). الاقتباس من القرآن والحديث (١٤٤). عبد الملك والشعر السياسى (١٤٥). نقده للشعر (١٤٥). مجالس الشعر عنده (١٥٠). مناظرة بينه وبين خالد بن يزيد (١٥٣). الوفادة الأدبية عليه (١٥٤). استشهاده بالشعر (١٥٦).

صفحة

عطاؤه للشعراء (١٥٧) . أثر الشعر فى نفسه (١٥٨) . نفسيته من تاريخ الأدب (١٦١) .
- ٣ - الوليد بن عبد الملك (١٦٢) . ابن الرقاع وجرير عنده (١٩٣) . ابن سريج المغنى يفد عليه (١٩٣) . جرير فى البيعة لابنه (١٦٤) . ابن قيس الرقيات وغزله بأم البنين (١٦٥) ، وضاح اليمن (١٦٦) .
- ٤ - عبد العزيز بن مروان .
- ٥ - بشر بن مروان (١٧٨) . شعراء الشيعة ومدح بنى أمية (١٧١) . شعراء المدح (١٧٤) . الإغراء بين الشعراء وأثره (١٧٥)
- ٦ - الحجاج (١٧٦) .
- ٧ - سليمان بن عبد الملك (١٨٣) .
- ٨ - هشام ابن عبد الملك (١٨٧) . النزاع بينه وبين ولى العهد (١٨٧) . العصبيات (١٨٨) . التسامح مع الشيعة (١٨٩) . الكتابة الإنشائية فى عهده (١٩١) . شعر العصبية الفارسية (١٩٣) ،
- ٩ - خالد بن عبد الله القسرى (١٩٦) .

٢٠٢ — ٢١٣ - ١ - يزيد بن عبد الملك (٢٠٢) .
- ٢ - الوليد بن يزيد (٢٠٦) حياته الفنية (٢٠٧) . صلته بهشام وأثرها فيه (٢٠٧) . لما ولى الخلافة . شراب وغناء (٢٠٩) .

٢١٤ — ٢٢٤ الغناء والأدب : موقف الخلفاء والصالحين (٢١٥) . الشعراء والمغنون (٢١٨) . المجددون فى الغناء (٢١٩) . أثر الغناء فى الأدب (٢٢٣) .

٢٢٥ — ٢٣٧ عمر بن عبد العزيز : آثاره فى الأدب (٢٢٦) . وصف الامام العادل للحسن البصرى (٢٢٩) . الشعر عنده (٢٣٢) . تأثر الشعر به (٢٣٦)